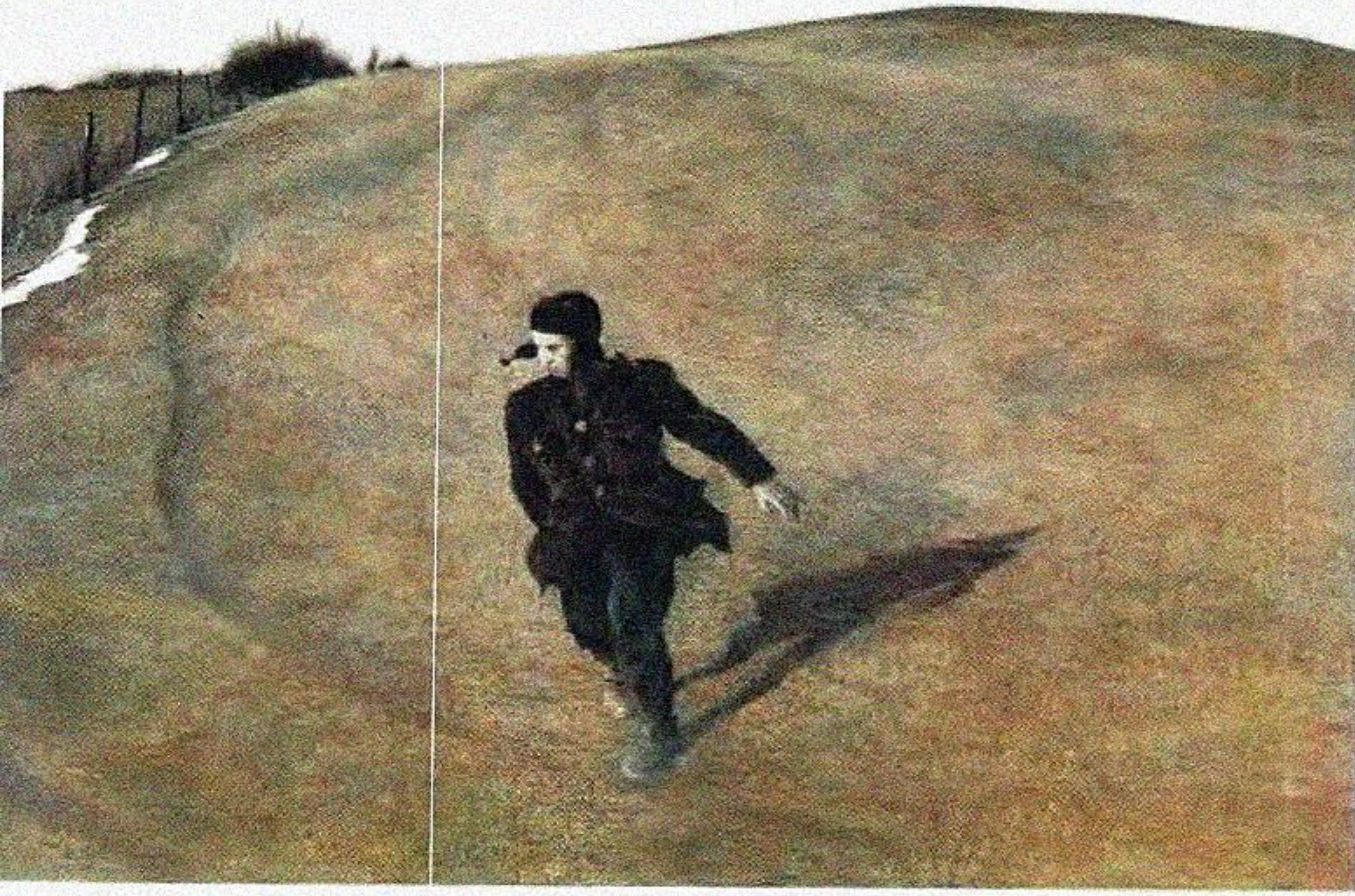
رواية



ربيع جابر

بيريتوس: مدينة تحت الأرض

المركز الثقافي العربي

دار الآداب - بيروت

كتب أعلام وقادة الفكر العربي والعالمي

الكتب هي ثورة العالم المخزونة ، والارث المناسب للأجيال والأمم

اضغط هنا منتدى مكتبة الاسكندرية

صفحتي الشخصية على الفيسبوک

جديد الكتب على زاد المعرفة 1

صفحة زاد المعرفة 2

الأعمال الكاملة : من هنا

المسرح العربي والعالمي

لتحميل روائع الأدب العربي والعالمي : القصة والرواية من هنا

لتحميل كتب المنظمة العربية للترجمة من هنا

بيت الحكمة

كتب الفلسفة والدراسات السياسية

اجتماع تربية وعلم نفس

كتب السياسة ، اقتصاد وقانون

الصحافة والإعلام-الفنون السبعة

سلاسل كتب ، مجلات ودوريات

مكتبة نوبل

كتب مشروع كلمة

موسوعات قواميس ومعاجم

كتب العلوم والطبيعة

أضغط هنا مكتبتي على تويتر

ومن هنا عشرات آلاف الكتب زاد المعرفة جوجل

ربيع جابر

بيريتوس: مدينة تحت الأرض

الكتاب

بيريتوس: مدينة تحت الأرض

تأليف

ربيع جابر

الطبعة

الأولى، 2005

عدد الصفحات: 240

القياس: 14.5 × 21.5

الترقيم الدولي:

ISBN: 9953-68-033-7

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+

إلى رينيه ومروى

هذه الرواية من نسج الخيال، وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة ومن الغرائب ومجرد عن أي قصد.

الليل يغمر بيروت المشتعلة بالكهرباء. نحن في المطعم على سطح Virgin العالي، وجوزف سماحة يقطع شطيرة البيتزا بالشوكة والسكين، ويسأل وليد نويهض عن الأحوال في البحرين. وليد يقول شيئاً عن الحرارة الشديدة والرطوبة العالية. وشخص آخر ـ نسيتُ اسمه ـ يقول إن أهل الخليج كلّهم في بيروت الآن، انظروا هذه الزحمة، مليون ونصف المليون أتوا فقط في هذين الشهرين، متى كانت بيروت مزدهرة بالسياحة هكذا، عليكم أن تشكروا بن لادن، لولا سقوط البرجين في نيويورك ما ازدهرت بيروت في هذا الصيف، الحرّ هنا أيضاً ليس قليلاً، والعرق والرطوبة!

نشرب نبيذاً أبيض بارداً وننظر إلى الظلات الحمر فوق رؤوسنا تخفق في نسائم الصيف كأجنحة حمام أو أشرعة سفن. من مكاني أرى البحر أسود مستوياً، وحين تظهر طائرة في الأفق أرى نورها الأصفر يشق صفحة الماء ويقترب من مدينتنا. مصابيح السيارات التي تعبر ساحة الشهداء تحتنا تنعكس على الأكواب فوق منضدة البار، وتنعكس على زجاج النظارات وعلى العيون.

أصوات لا تُحصى تختلط في فضاء هذا المطعم المفتوح. اللغات تتمازج (عربية وفرنسية ويابانية وإنكليزية وإيطالية)،

واللهجات يصعب حصرها. كأننا في برج بابل. الوقت تأخر، جاوز نصف الليل، لكن بيروت لا تذهب إلى النوم. السواح يملؤون المطاعم والمقاهي والشوارع والأرصفة، وأهل البلد خرجوا للتنزه: شبان وشابات، رجال ونساء. روائح طعام وعطور وأجسام وملح البحر؛ المدينة تغرق في الروائح. المهرجانات تعبر الشوارع، والموسيقى صاخبة. مطربون ومطربات. راقصون وراقصات. الهرج والمرج يستمر إلى ساعات الفجر. في الصباح لا ترى إلاّ وجوهاً ناعسة، في الحمرا أو مونو.

رجل نحيل، حركة جسمه غريبة، يقترب من طاولتنا. وليد أول من ينهض ملقياً من يده شوكة في أسنانها قطعة لحم مشوية. الشوكة تستقر عند حافة الصحن المملوء بالخضر المسلوقة (جزر وبريكولي ولوبياء وبازيلاء). وليد يصافح الرجل، وأرى جوزف يقف هو أيضاً (في يسراه المنديل؛ ولأنه طويل يضطر إلى الانحناء قليلاً وهو يدفع كرسيه إلى وراء)، والرجل الغامض يصافحه ويلفظ اسمه. بعد ذلك يستدير نحوي، ويقول اسمي (من أين يعرفني؟). لكن ما أستغربه (بينما أصافحه ناظراً إلى أسفل)، ما يلفت فيه ـ منذ ذلك اللقاء الأول ـ صوته، نبرة الصوت الهامسة، كأن عطلاً أصاب أوتاره الصوتية. لم يكن صوته مبحوحاً، لكنه بدا مخنوقاً، كأنه يخرج من تحت التراب.

حين تحدث وليد تذكرت أنني أعرف هذا الرجل، أنني طالما رأيته من قبل، أنني طوال سنة تقريباً كنت أراه وأرد على تحيته المهذبة مرتين كل يوم: مرة صباحاً، وأخرى مساء. كان الرجل حارساً في مدخل صحيفة «الحياة»، هنا، على رمية سهم من بناية Virgin. لكنه تغير! أولاً فقد وزناً. ثانياً اختلف صوته. ثالثاً... ثالثاً ماذا؟ لا أعرف. لا أدري كيف أقول هذا. لكن عليّ قوله: بدا

كأنه وصل إلى هذا المكان للتو آتياً من عالم آخر. بدا غير حقيقي. لا أعني أنه بدا غريباً عن جو المطعم. لا، ليس هذا. بدا ـ بصوته الهامس وبحركة الجسم البطيء الثقيل مع أنه شديد النحول ـ كأنه غير متأكد من وجوده. هل يمكن أن يشك أحدنا أنه موجود؟ تذكرت (وهذه الذكرى أخرجتني من الحيرة)، تذكرت عندئذٍ (أو لعل الذكرى جاءت بعد وقت)، تذكرت أيام كنت أدرس ليلاً في مستشفى الجامعة الأميركية. كنت أرى وجوه المرضى، حين يخرج واحد منهم ليلاً، ويتمشى وقتاً في الممر الطويل المضاء بالنيون الأبيض وهو يدفع قدامه عمود المصل. مريض مصاب بالأرق يمشي وحيداً في الليل في الممر الأبيض الطويل، خارج غرفته، ولا يعرف أين هو. كأنه لا يصدق أنه على قيد الحياة. أنه نجا! هكذا بدا ذلك الرجل. بدا خارجاً من مرض. من عالم لا علاقة له بعالم الأصحاء، هؤلاء الذين يتوزعون هذه الطاولات، يضحكون ويشربون ويأكلون البيتزا والمعكرونة واللحم والاسكالوب والبطاطا المقلية ويطلبون المزيد.

ظلّ الرجل النحيل واقفاً. جلستُ وسمعت وليد ـ الذي بقي واقفاً ـ يسأل الرجل أين يعمل الآن، أما زال في شركة الـ Security نفسها؟

أجابه الرجل أنه ترك الشركة ثم عاد إليها، والآن عنده دوامان، دوام ليلي هنا، ودوام نهاري في «برج الغزال»، هناك!

كان يشير بيده إلى منطقة التباريس، وراء ظهري، والتفتُ إلى حيث يرتفع «برج الغزال»، ورأيت السيارات تعبر «جسر فؤاد شهاب» ونور مصابيحها الكهربائية يقع على قرميد «كنيسة الأرمن» وينتشر كالذهب فوق بنايات الصيفي الجديدة المرممة: النوافذ بعضها مُنار، وبعضها أسود. ألاّ تبلغ الضجة الناس هناك؟ هل

يقدرون على النوم؟ لكنهم ـ لا بدَّ ـ يقفلون النوافذ ويشغلون المكيّفات. ليست هذه بنايات فقراء.

بقي الرجل ساكتاً لحظة (لم يكن في لباس العمل، هل انتهى دوامه الليلي، أم أن دوامه يبدأ الآن؟). ثم قال إنه قبل ذلك عمل حارساً في «اللعازارية»، وبعدها في «خربة سيتي بالاس»، السينما القديمة. قال إن ذلك كان مباشرة بعد السنة التي قضاها حارساً لـ «الحياة».

سأله جوزف شيئاً لم أسمعه (كان أحدهم يحدثني من الجهة الأخرى، والأصوات الكثيرة من الطاولة إلى يسارنا تطغى على أصواتنا). وحين تكلم من جديد ـ هذا الصوت الهامس الضعيف، كأنه يحتضر واقفاً بيننا ـ استرقت نظرة إلى وجهه: كانت المظلة الحمراء فوق رؤوسنا تلقي عتمة على جانب وجهه، لكنني رأيت نوراً بارقاً تحت الرموش. ليس هذا رجلاً بليد الذهن.

كان يقول شيئاً عن أنظمة الشركة، وعن الشركات الأمنية الأخرى المنافسة (عمل هذه الشركات يزدهر مع ظهور كل هذه المطاعم والنوادي الليلية والفنادق والأعمال الوافدة الخ الخ. . .)، وكنت أرتب في ذهني ما قاله قبل قليل، لأعرف الأماكن التي حرسها نهاراً أو ليلاً: «الحياة» ثم «اللعازارية» ثم «سيتي بالاس» (أشار إلى المكان وهو يذكر اسمه، خلف ظهري، وقبل جسر فؤاد شهاب: صالة السينما القديمة بقبتها البيضاوية الباقية من أيام الحرب، منخورة بالشظايا، تبدو كرأس عملاق خرافي في هذا الليل المشتعل بالأضواء والسيارات والبشر). وبعد ذلك ـ إذا فهمت جيداً ما ذكره ـ انقطع فترة عن العمل (هل كان مريضاً؟ هل تحول إلى هذا الرجل النحيل، الهامس الصوت، البليد الحركة، في تلك الفترة؟). بعد سينما سيتي بالاس، بعد حراسة هذه الأطلال ـ

المسوّرة بالشبك وحواجز الباطون والحديد ـ عند حافة الساحة البيضاء الفارغة، انقطع عن العمل زمناً. وبعد الانقطاع عاد، وها هو الآن يحرس «فيرجين» ليلاً وبناية «برج الغزال» (قال شيئاً عن المصرف الفرنسي فيها: B N P) نهاراً.

لكن ماذا كتبت قبل قليل؟ هل قلت إنه كان «بليد الحركة»؟ الأفضل أن أمحو هذه العبارة: كان جسمه ثقيلاً مع أنه نحيل، بل شديد النحول، لكنه لم يكن بليد الحركة. أعني لم تكن حركته بليدة بسبب كسلٍ فيه. على العكس: بدا كأنه يجاهد ـ كأنه يبذل طاقة خيالية، طاقة غير إنسانية ـ كي يتمكن من الحركة، وكي يتمكن من قول ما يريد. (أحاول أن أستعيد الأحداث بالتتالي الزمني، ولا أدري هل أنجح في هذا أم أفشل. فأنا بعد ذلك سأجلس معه وقتاً طويلاً. وهذا سيترك أثراً في ذكرياتي الأولى عنه. لو لم أرَه بعد ذلك اللقاء، لاستطعت أن أسرد ما حدث ـ ما رأيت وسمعت ـ على نحو أدق ربما).

مرة أخرى صافحه وليد. وهذه المرة تحرك جوزف في مقعده كأنه سينهض (لم أرَه حين جلس، ربما جلسنا معاً، في اللحظة ذاتها)، وودّع الرجل (الحارس)، وكان الرجل يكرّر الأسماء مرة أخرى، بالصوت الهامس ذاته. ووجدت نفسي أرفع نظري عن الصحن أمامي (سلطة يونانية: خس وبندورة وخيار وبصل مع جبنة فتّة وزيتون أسود وصلصة حامض ومايونيز وملح وزيت زيتون وقطرة Balsamic Vinegar) وأنظر إلى الرجل الذي ينظر إليّ مطيلاً النظر. كأنه يتفحصني. كانت نظرة مثيرة للقلق: كأنه يعرفني. كأن بيننا صلة قديمة، وأنا نسيت الصلة. كأننا كنا أصدقاء، ثم حدث أمر ما، وأنكرت صداقته. لكنني لا أعرف هذا الرجل، هذا الحارس الذي يُدعى بطرس، الذي يبدو مريضاً، بشعره الأسود ووجهه

الشاحب الضارب إلى بياض كأنه بياض الشمع. لا أعرفه، فلماذا يرمقني بنظرة العتب هذه؟

كنتُ على وشك إزاحة نظري والدخول في كلام ـ أي كلام ـ مع جوزف، حين تكلم الحارس موجهاً كلامه إليّ مباشرة. انحنى بظهره قليلاً، وقد أعطى كتفه لوليد ـ الذي كان يجلس عندئذٍ ـ كأنه لا يريد أن يسمع أحد غيري كلماته. وسمعته يقول:

ـ أنا أعرفُك. أعرفُك وأقرأ ما تكتبه وعندي كل كتبك. أقرأك وأريد أن أخبرك شيئاً. ليس الآن، ليس هنا، هذا ليس لا المكان ولا الوقت المناسب. كيف أستطيع أن أراك؟

«أعلم أنك تحبّ القصص الحقيقية. قرأت رواياتك عن مارون بغدادي ورالف رزق الله ويوسف جابر وسليمان بسترس وعائلة البارودي. أعرف أنك تحبّ القصص الحقيقية، وأنك مرات تخترع قصصاً تبدو حقيقية. ومرات تكتب قصصاً حقيقية لكنك تجعلها تبدو خيالية. أعرف كل هذا. لا أريدك أن تكتب حياتي أو قصتي. لستُ إلاّ حارساً. ثم أن أحداً لن يصدق قصتي إذا كتبتها. حارس ويقرأ روايات؟ كل أصحابي (كانوا كثراً حين بدأت العمل، قبل أن يحدث لي كل ما حدث لي تحت الأرض، قبل أن أرى كل هؤلاء البشر هناك، إنَّ قلبي ينقبض الآن في صدري حين أتذكر)، كل أصحابي الحراس الذين أفضل الآن أن أسميهم زملاء، كل الزملاء يقضون وقت الفراغ ـ وهذا أطول من سنوات طويلة ـ في حل الكلمات المتقاطعة أو قراءة «المنوعات» وأخبار المطربين والممثلين أو سماع الراديو. حتى تلفزيون المراقبة ـ وهذا صورته جامدة على مشهد واحد، مشهد الباب أو مدخل المصعد أو موقف السيارات جنب البناية ـ يُسلي الحراس في قعودهم الطويل الجامد. لست مثلهم تماماً. أحبّ أن أقرأ روايات. مذ كنت صغيراً أحببت القصص والذهاب إلى السينما. وها أنا أقول ذلك من أول كلامي:

أحبّ الروايات لكنني لن أخترع شيئاً أمامك. سأخبرك ما حدث تماماً كما حدث. طبعاً تقدر أن تكتب عباراتي كما تريد، فأنت لا تكتب بالعامية. لماذا لا تكتب بالعامية بدل الفصحى؟ لا، لا أريد أن أقرأ قصتي بالعامية. بل بالفصحى. وليست قصتي. بل قصة هؤلاء الناس الذين التقيتهم تحت الأرض. اسمع...»

*

العمل في «الحياة» كان ممتازاً. نقعد على الكرسي في الأسفل، وراء المكتب العالي، نسجل أسماء الداخلين والخارجين، ونأخذ أسماء الزوار ونتصل بكم لنتأكد هل تريدون استقبالهم أم لا. نراقب في التلفزيون مداخل المصاعد إلى الطابق الأول (الحياة) وإلى الطابق الثاني (الوسط) وإلى الطابق الثالث (الإدارة). الآن تغير الوضع، صار هناك مجلة جديدة عن المرأة، أعرف. لكن في ذلك الوقت، في 1999 ـ 2000، حين كنت أحرس هناك، لم تكن المجلة (لها) موجودة. أنا خرجت من «الحياة» وهم عملوا تلك المجلة. ستعرف أن هناك سبباً لكلامي عن كل هذا. لكن هذا يقدر أن ينتظر، ليس الآن وقته.

الشركة نقلتني من «الحياة» إلى «اللعازارية». نقلة قصيرة، نصف دقيقة مشياً من تحت إلى فوق، لكنها نقلة من فوق إلى تحت بالنسبة إلى أي حارس. في «الحياة» نقعد في الداخل، حيث المكيّف البارد صيفاً، والساخن شتاء. أمّا في «اللعازارية» فنحرس في العراء، في الباحة الواسعة، بين مباني المجمع التجاري، الباحة الفارغة معظم الوقت لأن بنايات المجمع الجديد المرمم ما زالت فارغة تقريباً. هناك ناس في بعض المكاتب والمتاجر، لكن ليس بما يكفي. الآن زادوا قليلاً، لكن في ذلك الوقت، حين عملت

هناك، كان المكان مهجوراً. ثم ساء وضعي أكثر. من «اللعازارية» نقلوني إلى سينما «سيتي بالاس»، التي نُسميها «الخربة». السينما تبعد عن اللعازارية شارعاً واحداً لكنها عالم آخر. وسوف تعرف أنني دقيق في اختيار كلماتي. السينما الخربة عالم آخر، وتحت السينما. . . لكن دعني أخبرك الأشياء كما حدثت. لا أريد أن أقفز قفزاً. لا أحبّ الروايات الحديثة.

حين كنت أحرس في «الحياة» كنت أطلع مرات ـ في وقت الراحة ـ إلى أصحابي الذين يحرسون في «اللعازارية» لأدخن معهم سيجارة وأشرب شاياً أو قهوة. نزهة دقائق، أطلع في شارع المعرض إلى زاوية «بنك لبنان والمهجر» وأقطع شارع الأمير بشير إلى اللعازارية وأقعد مع الحراس هناك، في الباحة، نتكلم ونراقب الحمائم تتقافز على البلاط الأحمر. (مرة قبضنا على حمامة منها). ومرات كنت أذهب أبعد، آخذ فنجان القهوة وأطلع من الجهة الأخرى للعازارية وأقطع شارع الأم جيلاس (هذا الشارع الصغير) إلى سينما سيتي بالاس المدمرة. هنا، في الظلال الباردة، أجلس مع حراس آخرين، نستمتع بالجو المنعش. كنت أحب القعود هناك ـ في ذلك الزمن الأول ـ لأن أصداء المكان الكبير الفارغ تُذكرني بقريتي وأيام الطفولة. ثم أن العشب ينبت هنا، في الباحة أمام السينما، والعصافير تأتي إلى أشجار الشوك القصيرة في الزوايا.

لكن بعد أن عينوني حارساً ليلياً في اللعازارية صرت أكره السينما المهدمة. أمّا حين نقلوني إلى السينما ذاتها، لأحرسها ليلاً من المتشردين والعابثين، فكان إحساسي بالضيق شديداً. حتى أنني فكرت أن أنتقل إلى شركة أمن أخرى، إحدى الشركات المنافسة.

تعرف المشكلة. لبنان كلّه هكذا. بلا واسطة لا تقدر أن

تستمر. وأنا بلا واسطة. لو كان عندي من يدعمني كنت بقيت حارساً في جريدة «الحياة». من دون دعم لم أصمد في «الحياة». هكذا نقلوني إلى اللعازارية. وبعد ذلك إلى «الخربة»: السينما المهدمة.

كان المكان مخيفاً في الليل. دائماً تسمع الأصوات ولا تعرف من أين تأتي. حرستُ اللعازارية ثلاثة أسابيع فقط، كان الوضع مقبولاً، وبدأت أتأقلم، لكنهم سرعان ما نقلوني إلى «الخربة». كان الوقت شتاء. والوسط التجاري كما تعلم يفرغ في الشتاء ليلاً. الناس في المطاعم لا تسمع أصواتهم لأن الأبواب مردودة، ولا أحد يعبر الشوارع إلاّ راكضاً تحت مظلة. كان المكان مخيفاً في الليل. والرياح الباردة تلعب بين الجدران المهدمة. صوت الريح والأمطار كان يمنعني من الحصول على لحظة واحدة من السكينة. كان صوتاً كالفحيح: رياح تدخل من الفجوات الكبيرة في القبّة العالية فوقي، القبّة الباطون التي تتسع لملعب كرة سلة، تدخل الريح من فجوات القنابل وتنزلق إلى حيث أقعد في الأسفل. أسمعها تطرطق مع الحجارة على الدرج الحديد، وعلى الأخشاب المكسرة، وأعجز عن إبعاد الصوت عن دماغي. كأن أحدهم غرز شوكة طعام في دماغي وأخذ يبعثره. لا تحسب أنني أخاف من الوحدة، وأنها وحدتي في تلك الخرائب أثّرت في عقلي. كلا. أصلاً، الناس كانوا على بعد أمتار. كنت أقعد في مدخل البناية الكبيرة المتداعية المفتوحة على الجهات بحيطانها المتساقطة وأنظر إلى السيارات تعبر الطريقين العريضين عن جنبي الساحة المستطيلة المترامية. السيارات تعبر مسرعة تحت رذاذ المطر، ونور مصابيحها يشع، ومرات يكون داخلها مضاء، أو يقع عليها نور سيارة أخرى، فأرى شاباً وصاحبته في السيارة، أو أرى امرأة تقود في الليل وحدها، جميلة، بيضاء،

كاملة الأناقة. أراهم يعبرون وراء الشبك ووراء حاجز الحديد الأحمر، منحدرين نحو الوسط التجاري والمطاعم، والمياه تتطاير تحت العجلات ورذاذها القوي يبلغ قدمي. أكون في معطف الأمن الواقي من المطر، انتعل جزمتي، وكيسي مملوء بأشياء تسليني في الليل. فواكه وفستق وبزر دوار الشمس وسندويشات صغيرة وكبيرة. أدخن كل ساعة سيجارة واحدة فقط، مع فنجان شاي أصنعه على البوتاغاز الصغير. أحب الشاي أسود، مثلك، لكنني أضع فيه سكراً كثيراً. أملأه حتى نصفه بالسكر. هكذا كنت في ذلك الوقت البعيد. الآن نادراً ما أشرب شاياً. ونادراً ما يخطر السكر في بالي. لكن دعنا نتقدم خطوة خطوة.

كان الوقت ليلاً، والريح عاصفة، والمطر ينهمر بغزارة. مع ذلك لم يتوقف عبور السيارات، مع أن الوقت تأخر، وكل النوافذ في البنايات المقابلة (وراء الساحة)، بنايات منطقة الصيفي الجديدة المرممة التي يسمّونها على خريطة سوليدير «قرية الصيفي»، كل نوافذ الصيفي أظلمت. الناس خلدوا إلى النوم. وسيارات قليلة تعبر «جسر فؤاد شهاب»، فوقي، إلى جهة اليمين، ذاهبة نحو الأشرفية، نحو «برج الغزال»، أو آتية من هناك، ذاهبة في الاتجاه المعاكس نحو الحمرا و «الغربية».

كنت في تلك الليالي الطويلة الباردة، والمياه تدلف من القبّة البيضاوية المرفوعة مع الصالة كلّها على أعمدة اسمنت منخورة بالرصاص والشظايا، أعمدة تظهر قضبان الحديد من بطونها، كنت أتذكر أيام الحرب، والبناية وراء هذا الجسر، والقصف بين طرفي المدينة، وأفكر أنني على خط التماس الفاصل بين «الغربية» و «الشرقية». وحين يقصف الرعد في السماء، ويبرق النور فوق الساحة الفارغة الكبيرة، أشعر بخوف شديد: كأنني رجعت ولداً،

يسمع القنابل وينظر من منور إلى الجسر يُقصف، ولا يقدر أن ينام. مع أنني ما عدت طفلاً. بل صرت رجلاً، حارساً ليلياً، يحمل عصا، ويحمل مسدساً مرخصاً. (قبل ذلك، في «الحياة»، لم نكن نحمل مسدسات. لكن هذا العمل الليلي، في هذا المكان المهجور الذي نحرسه من «المتسكعين والعابثين» ـ هذه هي الكلمات في «كاتالوج الحراسة» ـ يفرض علينا أن نحمل سلاحاً. لا لنستعمله، ولكن لنبعث الخوف في من يرانا. وهذه هي أصلاً كلّ مهمة الحارس. أن يبعث الخوف).

قاعداً هكذا في الليل الماطر والرعد يملأ رأسي لم أكن أبعث على الخوف أبداً. لكن أحداً لم يكن قريباً كفاية لملاحظة هذا. أو هكذا اعتقدت في الأول. اسمعني: ها أنا أصل إلى بداية القصة. البرق يشتعل، والسيارات لم تعد تعبر الشوارع، والساحة يغطيها الماء، كأن البحر تسلق اليابسة، فقطع شارع البلدية (شارع ويغان) ثم قطع بناية فيرجين، ثم قطع شارع الأمير بشير، ثم قطع اللعازارية، وملأ الساحة كلّها بالماء المالح. كأن البحر غمر الوسط التجاري كلّه في هذه العاصفة الفظيعة، وحاصرني أنا وحدي في سينما «سيتي بالاس» الباقية وحدها بلا ترميم ها هنا، من أزمنة الخراب.

كنت أرى دوائر الماء تتموج فوق الساحة، وأرى البرق الأزرق ينعكس فيها. فجأة، في اللحظة ذاتها، سمعت صوتاً غريباً وراء ظهري، وأحسّست أن حشرة دخلت تحت ساق البنطلون.

عليّ أن أخبرك أنني في تلك الأطلال في قلب الوسط التجاري كنت أرى دائماً حشرات (ليس عقارب ولكن عناكب وصراصير وما يشبه ذلك). لم أكن أخافها لكنني كنت أكره أن تلمسني. لهذا اعتدت أن ألبس جزمة عالية.

وعليّ أن أخبرك أنني كنت معتاداً في حراستي الليلية على سماع أصوات غريبة في هذه الأطلال. فكنت أحمل مصباحي الذي يعمل على أربع بطاريات كبيرة وأجول الطابق كلّه، ثم أصعد الدرج القديم الذي يطقطق إلى صالة السينما. وأحياناً أعثر على كلب فوق، أو على قطة، أو حتى على حمامة مذعورة. ثم أن الخربة لها أصواتها. الخشب يطرطق، أو الريح تُسقط حجراً، أو أحد الحواجز. كنت إذاً معتاداً على الأصوات هذه. لكن ما كان يفزعني أنني مرات ـ بينما أنعس قليلاً والمذياع يرسل أغنية لأم كلثوم في أذني ـ كنت أسمع صوتاً قريباً جداً، صوتاً بشرياً، كأنه يطلع من تحتي، من تحت مقعدي الصغير. حتى أنني مرة أزحت مقعدي وأخذت أحدّق إلى التراب، لأرى أنبوباً أو ثقباً في الأرض. وكنت بعد ذلك أحمل مصباحي وأنزل على درج آخر إلى الطبقات تحت الأرض، وأنظر في الزوايا (لعل متشرداً تسلّل إلى هنا وبسط كرتونته وأغراضه وحوّل «الخربة» بيتاً) وقلبي يدقّ في صدري، إلى أن أتأكد أن المكان على عهده فارغ تصفر فيه الريح، فأغادر الحيطان السوداء بالكلمات القديمة المخطوطة عليها ـ بعضها طلاء، وبعضها طباشير من زمن الحرب ـ وأطلع إلى فوق.

لكنني في تلك الليلة بالذات لم أنزل إلى تحت حاملاً مصباحي كالعادة. في تلك الليلة ضربت بيدي على ساقي حيث اعتقدت أن حشرة قد دخلت فأدركت أن ساقي نمَّلت وحسب (وهذا يحدثُ كثيراً معنا نحن الحراس) نمَّلت بسبب القعود الطويل، ونمّلت بسبب البرد. لكنني لم أفكر في هذا لأنني كنت مشغولاً بالصوت الغريب الذي سمعته. استدرت بغتة وأشعلت مصباحي فخيّل إليّ أنني رأيت ولداً في ثوب أبيض يختفي وراء البراميل، بعيداً في مؤخرة المكان. لم أكن متأكداً. أولاً بسبب الظلمة (نور مصباحي لا يصلّ إلى هناك

قوياً). ثانياً لأنني كنت نصف نائم. أنعستني أم كلثوم وأنعسني المطر على البحر أمامي (لم يكن بحراً. كانت الساحة الخالية المغمورة بالأمطار). بلى، كنت نصف نائم، مع أنني الحارس. بل أنني في لحظة ما ـ قبل الصوت المباغت ـ كنت حقاً نائماً. لأنني بعد ذلك تذكرت مناماً رأيته في تلك اللحظات: رأيتني صغيراً وأبي يمسك بيدي ويقودني بين الدكاكين المزدحمة من ساحة الدبّاس (هناك، تحت كنيسة الأرمن) إلى مطعم الفلافل الذي كان قائماً هنا، بين المحلات الكثيرة، تحت سينما سيتي بالاس، عند حافة الطريق تماماً. المطر أخذني إلى ذلك الزمن البعيد، إلى تلك الذكرى من أيام الطفولة. كنت مع أهلي نعيش في الجبل، ولعلها كانت أول مرة أنزل فيها مع أبي إلى بيروت، إلى المدينة. نزلنا بسيارة أجرة. وكان موقف السيارات هناك، عند كنيسة الأرمن، وكنت أتعلق بيد أبي خائفاً من الزحمة والمتاجر التي لا تعد والبنايات العالية المتلاصقة ومتاهة الشوارع والبشر الغرباء والسيارات الكبيرة السوداء والبيضاء والأصوات المتلاطمة. كنت نائماً، بلى، ورأيت أنني ما زلت صغيراً، وأبي ما زال حياً، وأنني معه نعبر ساحة الدبّاس ثم نعبر ساحة الشهداء (الآن كل هذه الساحة الفارغة صرنا نسمّيها بإسم واحد: ساحة الشهداء أو البرج. لكن قبل أزمنة الخراب، قبل أن تأتي الحرب، لم تكن هذه ساحة واحدة. بل ساحات مفصولة ببنايات وأزقة ومتاجر وبسطات ومواقف). أذكر ذلك المنام: كان المكان مملوءاً بالبشر، ووقفت مع أبي أمام مطعم الفلافل المزدحم، ولم أكن قبل ذلك قد رأيت هذا الطعام، أو ذُقته أبداً. كنت سمعت أبي يحكي مع أمي مرة عن «الفلافل»، لكنني لم أكن ذقته ـ أو رأيت أقراصه الذهب المقلية ـ في حياتي.

من أين جاء ذلك المنام؟ من منظر الساحة الفارغة التي تحولت

بحراً تحت المطر؟ أم من غناء أم كلثوم التي علمني أبي أن أحبّ صوتها؟ أم من سندويشة الفلافل في الكيس الذي أعدّته لي زوجة أخي؟ (سأخبرك عنها حين يحين الوقت، زوجة أخي: مثلي ومثل أخي تحبّ الفلافل، فتشتريها غير مقلية من «فلافل صهيون» ثم تقليها في البيت في زيتٍ جديد، ليكون طعمها أطيب).

أريد أن أعتذر الآن. تكلمت كثيراً قبل أن أصل إلى البداية. لكن أنت تعرف على الأرجح لماذا يحدث هذا. أنا قرأت رواياتك وأعرف أنك مرات تفعل هذا أيضاً. ألم تترك ابن البارودي الهارب من الشام قاعداً تحت المطر في جوف التوتة صفحات وصفحات وصفحات، وأنت تحكي عن ساحة البرج المزروعة بالتوت في ذلك الزمن البعيد (في القرن التاسع عشر)؟ ألم تتركه هناك مبلولاً صفحات طويلة قبل أن تسمح له بالدخول إلى بيروت من سورها القديم؟ لاحظ كيف أنني بدأت قصتي ـ أنا أيضاً ـ في المكان ذاته، وتحت المطر.

أريد أن أعتذر لأنني تأخرت. لكن لماذا أعتذر؟ لم يكن أمامي طريق آخر. أتكلم لأبعث الحماس في صدري. قصتي حزينة تكسر القلب، أخاف أن أبدأ فيها، فتراني واقفاً في بابها لا أدخل. لكن عليّ أن أدخل. عليّ ـ للدقة ـ أن أهبط. إذا لم أنزل فمن يُنقذ كل هؤلاء البشر من الموت الآتي إليهم؟ وحتى لو نزلت ماذا يتغير!

حملت مِصباحي وركضت وراء الفتى في الثوب الأبيض. هل كان صبياً؟ هل كان يرتدي دشداشة بدوية؟ أم أنه كان شبحاً؟ كان التنمل في ساقي، ولم أستطع أن أركض. خفت أن أقع إذا ركضت وساقي شبه مشلولة هكذا! عرجت وانتظرت قليلاً إلى أن سرى الدم في عروق رجلي من جديد ثم ركضت نحو البراميل القاتمة. كان

البرق يبرق والرعد يهدر، وعبرت سيارة شارع الأم جيلاس إلى يميني، وراء الحاجز الحديد المشبّك، وانعكس نورها على اللعازارية ذات الحيطان الصفراء المبلولة. اختفت السيارة التي شتتت انتباهي لحظة. في تلك اللحظة رأيت الشبح مرة أخرى. لم يكن شبحاً. كان ولداً! وقفز قفزة واحدة فبلغ الدرج النازل إلى الطبقات السفلية واختفى عن نظري وراء أكوام الرمل والأكياس القديمة الممزقة. تباً! ولد في هذا الليل، وبلا بيت! في هذا البرد والطوفان! ولا يملك لباساً إلاّ هذا الثوب النسائي!

نزلت الدرج أقفز خلفه، ونورٌ أحمر ما زال يوجّ في عينيّ (المصابيح الخلفية لتلك السيارة، في ظلمة الليل العاصف). اسألني كيف عرفت أنه صبي مع أنه يلبس فستاناً؟ هذه أشياء نتمرن عليها في مصلحتنا. في هذه المهنة نتعلم أشياء. عرفته من حركة جسمه. مع أنني لم أرَ وجهه في تلك اللحظات الأولى، عرفتُ أنه ليس بنتاً. غيري كان خدعه الفستان. لم يخدعني الفستان. قلت هذا صبي. ولحقت به.

لم تكن أول مرة أجدني مضطراً لطرد متشرد من مكان أحرسه. هذا أمر يحدث. في قواعد الشركة نطلب من مقتحم المكان هكذا الخروج منه فوراً، وبلغة عنيفة. لا نستخدم اللغة الهادئة. لكنني أفضل اللغة الهادئة. طبعاً الهدوء لا ينفع. عليك أن تصرخ. إذا لم يخرج الواحد بعد ذلك عليك أن تهدده باستدعاء الدرك. وإذا لم يخرج عليك أن تطلب المساعدة بالجهاز. المركز ـ الشركة ذاتها ـ تقرر عندئذٍ كيف تتصرف. إما يرسلون رجالاً منا ـ من الأمن ـ أو يتصلون بقوى الأمن الداخلي (الدرك). هذا يعتمد على المكان الذي نحرسه، وعلى تعليمات أصحاب المكان. أحياناً يفضلون أن ننهي المسألة بلا شرطة.

بينما أهبط الدرج العتيق راكضاً كبست زر الجهاز على خصري والتقطته. خشخشته القوية في الليل (الطنين الكهربائي الخشن المتقطع)، واحساسي بأنني على اتصال بآخرين، كل هذا منحني القوّة التي احتاجها لأصرخ بالشبح الهارب أن يجمد في مكانه. لكن الولد الأبيض الدشداشة، القصير الشعر، لم يجمد. بل العكس: قفز قفزة أطول، قفزة أرنب حقيقي، واختفى عن نظري بينما البرق ينطفئ.

حين بلغت المكان الذي اختفى فيه (كنا الآن في الطبقة السفلية، حيث الأرض مبقعة بالزفت والأوساخ، والحيطان ترشح ماء، تغطيها الطحالب، وصوت الرعد لا يصل إلاّ مكتوماً بعيداً، كأنه رعد في عالم آخر)، سدّدت نور المصباح على الأرض (خيّل إليّ أنه اختفى نازلاً في التراب). صعقتني المفاجأة: بين برك الماء المتجمعة هنا، في الطبقة السفلية من هذا المبنى العملاق المهجور، ماذا رأيت؟ رأيت حفرة في الأرض ينبعث منها نور نيون أبيض. أفزعني النور. وأفزعني أيضاً هواءٌ، طيبُ الرائحة، خارجٌ من أعماق الحفرة النازلة في بطن الأرض إلى حيث لا أعلم.

*

إذا سألتني الآن عن أسوأ لحظة في حياتي كلّها، أقول: تلك اللحظة، في قعر مبنى «سيتي بالاس». «سيتي بالاس»؟ ماذا تعني هذه بالإنكليزية؟ «قصر المدينة»، صحيح؟ اسم مناسب لصالة سينما. هذا المبنى الواقف كالشبح في النقطة ذاتها منذ ظهوره أواخر الستينات، كان يُخفي لي ـ وهو مدمّر هكذا ـ عالماً آخر لم أكن أتخيل يوماً أنه موجود تحت عالمنا.

أسوأ لحظة في حياتي كلّها. إنها حتى أشد ظلمة من الساعة

الأخيرة في حياة أبي. لن أتغلب يوماً على رحيل أبي. كان تعلقي به مَرَضياً، وسيبقى هكذا. كلّما تذكرته أصابني الحزن. لكن تلك الساعة، أسفل «سيتي بالاس»، كانت أسوأ. كانت أسوأ لأنها أخذتني إلى هناك، إلى تحت الأرض.

*

ما الذي دفعني إلى القفز؟ كان عليّ أن أبقى حيث أنا ربما، وأن أتصل بالمركز على الجهاز وأقول كذا كذا... ماذا كنت سأقول بالضبط؟ لا أدري. ما حدث قد حدث. ماذا تقول دائماً في رواياتك؟ كل ما يحدث مكتوب. هذا صحيح. الآن أعرف هذا.

لم أفكر. كان جسمي يندفع وحده. الولد الأبيض الثوب ـ القافز كأرنب ـ قفز إلى أعماق الأرض، وأنا لحقت به.

قفزت وانزلقت في الحفرة، نازلاً إلى تحت، إلى تحت، وبدا لي أنني لن أبلغ القعر أبداً.

*

حين كنت صغيراً، في قريتي في الجبل، كنت أنزل مع أصحابي في نفقٍ تحت الشارع يفضي إلى الوادي. كان نفقاً من الباطون، مجروراً يحمل مياه الأقنية إلى الوادي. كنا ننزل فيه أيام الصيف، حين يكون جافاً. وكلما تقدمنا بان النور الأبيض أقوى في نهايته، هناك حيث السماء التي تسقف الوادي.

في الشتاء لم نكن نقربه. لكننا، ونحن نعبر الشارع الهادئ فوقه، كنا نسمع المياه تحتنا، تجري صاخبة متدفقة خفيّة قبل أن تسقط في الوادي. (لم نكن نقول «الشارع». كنا نقول «الطريق العام»).

أخبرك عن هذا المجرور في قريتي لأنني مرة علقت فيه. هذه

ذكرى غير واضحة، لكنني أذكر خوفي وصراخي. علقت في المجرور بين صخورٍ تدحرجت وعلقت فيه خلال الشتاء. أذكر صراخي، وأذكر أبي يأتي إليّ من الحقل القريب، والشعر على ذراعيه أخضر قوي الرائحة من شتلات البندورة، وأذكره يسحبني من المجرور ويسألني كيف علقت؟ لا أعرف ماذا أخبرته لكن الصخور بدت لي، تحت، حيوانات أو مخلوقات خرافية. كانت الصخور مظلمة، ووراء الصخور ترى النور في نهاية المجرور، ووراء النهاية الوادي بشجره الأخضر. لماذا أخبرك كل هذا؟ لأنني بينما أنزلق في تلك الحفرة تحت سينما «سيتي بالاس» في وسط بيروت التجاري، أحسّستني أفقد الوعي، كأنني أسقط عن السرير وأنا نائم. كان سقوطاً سريعاً مخيفاً، حتّى أن دماغي خبط بسقف جمجمتي من قوّة السقوط. فقدت قبعتي بينما أسقط، طارت عن رأسي. وفقدت أيضاً جهاز اللاسلكي. مع أنني لم أنتبه إلى ذلك إلاّ لاحقاً. وبقيت أسقط وأنا أتذكر أشياء غير متصلة (ذلك المجرور في القرية، ثم حلوى كانت تصنعها جدتي من التين والجوز والقطر واللوز، ثم فتاة كانت تحبّني في المدرسة، ثم نافذة تواجه بيتنا القديم وفيها أحواض حبق وورد) إلى أن بلغت القعر. كنت بديناً في تلك الأيام. مؤخرتي التي يغطيها الشحم حمتني من السقطة. ارتطمت بالرمل. وعلى الفور رأيت أنني في مكانٍ فسيح أبيض. لم يكن فسيحاً جداً. لكنه لم يكن ضيقاً أيضاً. كنت في غرفة، ما يشبه غرفة. ووراء طاولة صغيرة، أو ما يشبه طاولة، رأيت ثلاثة أولاد. ثلاثة أولاد عيونهم واسعة.

جرى كل شيء بسرعة حتى أنني لم أستوعب ما جرى لي. هل كنت مرة في حادث سيارة؟ حين كنت صغيراً نزلت مرة مع خالي من ديردوريت إلى الدامور. بينما السيارة تنحدر بنا على طرقات

الجبل الضيقة لاحظت أن خالي توتر فجأة وأنه يضرب بقدمه قعر السيارة. انقطعت الفرامل وفقد السيطرة عليها. دام الأمر رمشة عين. لا أذكر الآن إلاّ الشجر الأخضر يعبر خطفاً عن جنبي السيارة ثم جبلاً يواجهنا فنتسلقه ويتكسر الزجاج وأغيب عن الوعي. استيقظت بينما يسحبوني من الحطام ورأيت خالي ممدداً على بعد خطوة والدم على وجهه وقميصه تمزق كمّها.

حين سقطت ضعت عن نفسي. وحين ارتطمت بالرمل في القعر خُيِّل إليّ أنني لم أتأذَ، أنني بأعجوبة نجوت، ولم تتحطم عظامي.

انتبهتُ إلى ما بي حين رأيت الوجوه الثلاثة، الطويلة الغريبة، بعيونها الشديدة الاتساع. كانوا يحدقون إليّ وأنا أحدق إليهم وإلى إبريق أبيض غريب الشكل على الطاولة (إبريق قديم كُسِر ثم جُبِر يستقر على حافة الطاولة الغريبة الحجر). ثم أحسّست سائلاً ساخناً يسيل على أذني وعلى خدي. كنت أنزف. وعندئذٍ فقط بدأ الألم في وركي، وفي ذراعي. النعمة دامت لحظة (تلك اللحظة الأولى حين بلغت القعر). ثم بدأ الألم. كلمة «بدأ» غير مناسبة. كيف أقول هذا؟ فجأة انفجر الألم في جسمي كلّه: ألم فظيع لم أجربه من قبل. وقلت في نفسي إن كل عظامي تكسرت. ملت على جنبي (لم أعد قادراً على البقاء كما أنا) وأنا أفكر في جهاز اللاسلكي (لماذا ما عدت أسمع خشخشته؟) فرأيت في جانب الغرفة المستطيلة صفّاً من أحواض الفخار مزروعة بأصناف نبات أعرف أسماء بعضها وأجهل أسماء أخرى (آه، كنت أتوجع، والرائحة الخضراء تدخل أنفي في هذه البئر العميقة تحت سيتي بالاس! من هؤلاء الأولاد؟ لماذا وجوههم شاحبة البياض هكذا؟ ولماذا عيونهم تبرق برقاً؟). كنت في ألمٍ شديد. وأدركت أنني سأغيب عن

الوعي، قبل أن أغيب فعلاً. وهذا زاد خوفي. لكن ما أرسل ذعراً في قلبي حقاً كان صراخ الأولاد الثلاثة معاً دفعة واحدة بكلمة واحدة:

ـ بَرَّاني، بَرَّاني، بَرَّاني!

كان صراخهم كإنذار الخطر الذي يُركب للسيارات أو الفيلات والقصور، ولم يتوقفوا عن الصراخ، حتى بعد أن أغمضت عينيّ (عيناي وحدهما انغلقتا). ثم ـ من ذلك المكان البعيد الذي غرقت في مياهه ـ تناهت إليّ أصوات أخرى. سمعت طرطقة وسمعت صرخة واحدة مختلفة أسكتت الأولاد مرة واحدة، وسمعت رجلاً يسأل ماذا جرى، وسمعت ولداً يكرر اسماً واحداً ـ كأن هذا الاسم يكفي لشرح كل ما حدث ـ مرة تلو أخرى: «ياسمينة»، أو: «هذه ياسمينة». لم أفهم ماذا يقول، لكنني هناك ـ غارقاً في مياه الغيبوبة، وفي دمائي النازفة من جسمي المملوء ـ تذكرت الشبح الأبيض وأدركت أنني أخطأت: لم يكن الشبح ولداً! كان بنتاً!

لكن أين اختفت تلك البنت؟ سقطتُ هنا فلم أرَ إلاّ ثلاثة أولاد صغار وراء الطاولة الحجر الغريبة (سأعرف بعد ذلك أنها ليست طاولة بل ناووساً فينيقياً أو رومانياً. لست خبيراً في الآثار. لكنه ناووس حجر كالذي تراه في المتاحف، بنقوش على جنبه، وكلمات غامضة على الغطاء. وأنا حسبت للوهلة الأولى أنني أنظر إلى طاولة بسبب القماش على سطحها وبسبب الإبريق على الحافة حيث لا يصل القماش).

وجدتني في مكان أعمق من قعر البئر حيث كنت غائباً عن الوعي. الدم ينزف من جسمي وأنا أغرق، أسقط وأسقط وأسقط، كأنني لم أبلغ قعر الحفرة الغامضة (تحت سينما سيتي بالاس) بعد.

وبقيت أغرق. والنار تزنر رأسي، وأبر تنغرز في وركي: كأن الأبر لا تُغرز في جسمي من الخارج، كأن الأبر تخرج من جوف جسمي وتمزق الجلد وتتابع الخروج! لا أريد أن أضجرك بوصف ألمي. لا أحد يحبّ وصف الألم. لا بدَّ أنك تعرف هذا ثم أن الواحد لا يستطيع أن ينقل حقيقة ألمه إلى الآخر. حين يتألم الواحد، يتألم وحده.

أحسّست أنني أُحمل. بعد زمنٍ طويل، بعد إحساسي بقماشٍ رطب يُبلل وجهي والشعر القصير على رأسي، أحسست أنني أُحمل: أُرفع على نقالة أو ما يشبه نقالة ثم أسبح في الهواء. كنت أسمع أصواتاً وهمهمات تمتزج بطنين النيون المتواصل كأزيز النحل، ثم عرفت أنني أبتعد عن مكان سقوطي لأن رائحة الأطياب تلاشت (ماذا كانت؟ حبقاً ومردكوشاً وصعتراً؟) ولأن طنين النيون سكت فجأة. لن أقول أنني شممت عندئذٍ رائحة شمع، مع أنني أعتقد أنني شممتها. لكنك تعرف جيداً أن ذاكرة الإنسان تخدعه دائماً. خصوصاً وأنني رجعت إلى تلك الغرفة ـ تبين لي لاحقاً أنها بيت خاص بزراعة الخضر ـ رجعتُ إليها عابراً الممر الطويل المضاء بالشموع، يدلّني صديقي سلمان الذي يُسمّونه «الفلكي».

*

دعني أرتاح لحظة. الحكي يُتعب. ثم أن عليّ قبل أن أكمل قصة المدينة تحت الأرض أن أخبرك بعض الأمور، لئلا تحسب أنني لا أعلم كم أن قصتي تبدو خيالية، ليست حقيقية.

أعرف جيداً أنك إذا كتبت هذه التجربة الفظيعة (مع أن أموراً حسنة حدثت أيضاً)، أعرف أن أحداً لن يصدقها. لا تعتقد أنني لا أعرف. مع هذا ليس يمكنني أن أمنع نفسي. عليّ أن أتكلم. هذا

كلّه جرى لي فكيف أحبسه؟ ثم أن الموت الذي. . .

لا، لا أريد أن أقفز إلى أمام. كنت أخبرك عن جسمي المكتنز الذي امتلأ جروحاً خلال سقوطي والذي تحطمت عظامه. الآن، وقد صرت نحيلاً على هذا النحو، أقدر أن أكون صادقاً: لم أكن مملوء الجسم فقط، بل كنت أميل إلى البدانة. لا، الصدق: كنت فعلاً سميناً.

لا أذكرني إلاّ سميناً. لهذا ربما علقت في ذلك المجرور تحت الطريق العام. منذ صغري أحببت الطعام حبّاً كبيراً. بعد موت أمي (متى كان ذلك؟ بعد «حرب السنتين» وبعد اغتيال كمال جنبلاط. . . سنة 1978 ماتت أمي، وكنت لم أزل في السادسة، أمّا أخي الذي يكبرني بأربع سنوات، فكان في العاشرة من عمره. . . طبعاً، هذا مفهوم، أعتذر)، بعد موت أمي، تضاعف اهتمام أبي بأخي وبي. هذا لا يعني أنه لم يكن كثير الاهتمام بنا قبل ذلك. لكن بعد أن صرنا يتيمي الأم، وجد أبي نفسه مضطراً لأن يلعب الدورين معاً: دور الأب ودور الأم. وهذا ضاعف اقبالي على الطعام كما سترى. لأن أمي التي أكل السرطان أحشاءها لم تكن طبّاخة. أما أبي فكان. حتى أن خالي روفايل (وهذا غير خالي يعقوب الذي كنت معه حين تحطمت سيارته تحت ديردوريت) الذي يسكن في بيروت اقترح عليه مرة أن يعمل طبّاخاً في أحد فنادقها الكبيرة، أو حتى أن يفتح مطعماً. هذا كلّه كان قبل اندلاع الحرب سنة 1975. وأنا لا أذكر هذه الأحاديث لكنها نُقلت إليَّ. لكنني أذكر جيداً أنه حين اشتدت الحرب علينا سنة 1983 (سنة «حرب الجبل») أوشك أبي أن يحملنا أنا وأخي نزار ويهاجر بنا إلى الخليج ليشتغل هناك طبّاخاً. هذا أذكره جيداً. لأننا جمعنا أغراضنا في الصناديق وكنا نستعد للسفر، وكان أبي حجز لنا المقاعد على الطائرة، حين بدأت

الإقتحامات في القرى، وقرر أبي أن يسرع بالنزول إلى بيروت ـ إلى بيت خالي الذي عرض أن يأوينا ـ بانتظار موعد سفرنا. وبعد ذلك جرى ما جرى وبقينا في بيروت ـ مهجّرين من قريتنا، مثلنا مثل غيرنا ـ ولم نسافر إلى الإمارات. لكن لماذا أخبرك كل هذا الآن؟

*

أنت ـ مثلي ـ من جيل الحرب. وُلدنا مع الحرب، وعرفنا الحياة تحت القصف وبين الجثث، ثم بلغنا سنّ الرشد مع «اتفاق الطائف». أنا فعلاً بلغت الثامنة عشرة مع خروج الجنرال عون من بيروت وانتهاء الحرب سنة 1990. لكن، مع أنني عشت في الحرب، وتهجرت مع أهلي من الجبل، وفقدت في الحرب أقارب (وابن خالتي ـ أحد أقرب رفاقي ـ خُطف سنة 1987 ولم نسمع عنه بعد ذلك خبراً، مثله مثل آلاف غيره)، ومع أنني قضيت الليالي ساهراً أنظر إلى أبي حاملاً الراديو الترانزستور إلى أذنه يصغي إلى آخر أخبار المعارك، ونور الشموع يتماوج على رأسه وعنقه، والقصف يقوى فوقنا، والصواريخ تصفر، والجارة تبكي في الزاوية، وطفلها يستيقظ من نومه زاعقاً. . . مع كل ذلك، مع أننا لم نغادر بيروت بعد 1983 وبقينا فيها، ومع كل الـ 15 سنة كاملة من الحرب اللبنانية، لا أقدر أن أقول إنني فعلاً كنتُ في الحرب. مع أنني كنتُ فيها دائماً. هل تعرف لماذا لا أقدر؟ لسبب بسيط جداً: أنا لم أحمل بارودة وأحارب. ليس لأنني لم أرد أن أحارب. ولكن لأن أبي ظلّ يمنعني عن ذلك: كان يخاف عليّ أن أصير مثل أخي.

*

تحت الأرض، حين فتحت عينيّ بعد الغيبوبة الطويلة، خُيِّل إليّ أنني أرى أبي. فتحت عينيّ لحظة، لكن الضغط كان ثقيلاً على

جفنيّ، كأن يداً تكبس أصبعين على رموشي. عدت إلى الظلمة وبقي الوجه الذي رأيته خطفاً، بقي في رأسي: عينان عسليتان، وبشرة تميل إلى السمرة، وشعر أسود أجعد يخطّه البياض (كان شعر أبي قاسياً؛ أخبرنا مرة أن الحلاق قال ضاحكاً إن الأفضل أن يقصه بمقص «الشحالة» الذي تُقلم به الأشجار).

لم يذهب الثقل من رأسي إلاّ بعد أيام. كنت أستيقظ وأنام ولا أعرف ماذا يحدث لي. تذكرت في تلك الأيام، والحمّى تأكل عينيّ، تذكرت حارساً معنا في الشركة كان يحرس ليلاً إحدى البنايات المجاورة للسفارة الفرنسية في منطقة المتحف، فتعرض لحادث غريب: كان نزل إلى موقف السيارات تحت البناية لسبب ما، وبينما هو عائد من الموقف وقع في حفرة عميقة: أحد عمال التصليحات ترك كما يبدو غطاء أحد المجارير مفتوحاً. لكن الكارثة لم تنتهِ هنا. فقد الحارس الوعي حين سقط. ثم جاء أحدهم ـ أحد سكان البناية ـ ورأى الغطاء في غير مكانه وعرف أن عاملاً نسيه على هذا النحو: ماذا فعل؟ دفعه بقدمه، ثم بيديه، إلى المكان الصحيح. والحارس بقي في الأسفل (اسمه جورج زخور، الآن عنده دكان في فرن الشباك، وفي ذلك الوقت كتبت عنه الجرائد، لا أدري إذا كنت قرأت الخبر).

المهم أن الحارس استيقظ فوجد نفسه في الظلام تحت. صرخ وصرخ وصرخ. لكن أحداً لم يسمعه. غطاء المجرور حديد سميك. ثم أن مكان المجرور ليس وسط الشارع، أو على الرصيف، بل جنب الطريق الخاصة المعبدة والمنحدرة إلى موقف السيارات. لا أحد يمشي في هذه النقطة من الطريق. البناية فخمة مزودة بمصعدٍ يطلع بالسكان من الكاراج مباشرة إلى بيوتهم. ينزلون بالمصعد إلى سياراتهم ويطلعون بالمصعد. لا أحد يستخدم الطريق

ماشياً. وباب الكاراج على الكهرباء. لم يسمع أحد صرخات جورج زخور المذعورة.

حين اكتشفت الشركة من أهله أنه لم يرجع أرسلت رجالاً إلى موقع البناية واتصلت بالمخفر. أهله أيضاً اتصلوا بالمخفر. لا أريد أن أضيع وقتك بقصة جورج زخور فهي كُتبت في الجريدة (لم يكتبوا اسم ساكن البناية الذي أقفل عليه غطاء المجرور مع أن الرجل أدلى بشهادته إلى قوى الأمن، ثم ذهب وزار جورج زخور في بيته حاملاً ورداً وشوكولا). المختصر المفيد أنه بقي في الأسفل يومين، وفي اليوم الثالث عثروا عليه. حين أخرجوه كان صوته مبحوحاً من الصراخ، ونظرته زائغة من الجوع لا تستقر على وجه. بعد ثلاثة أيام أو أربعة، لعلها كانت خمسة أيام، عاد إلى العمل كالعادة.

كنا نسأله ماذا فعل تحت، محبوساً كل ذلك الوقت وحده، لا يعرف ليلاً من نهار، ماذا فعل غير الصراخ؟

وكان يبتسم، ولا يضحك معنا، ويقول إنه لولا النوم كان فقع قلبه ومات.

كان يتكوم على نفسه، في الرائحة المخنوقة الفظيعة، وينام، بينما العجلات المطاط تعبر فوقه.

ومرة سألته هل جرب الزحف في المجرور بحثاً عن مخرج؟ فأخبرني أنه حاول ذلك بالتأكيد لكن المجرور كان ضيقاً ولم يستطع أن يزحف فيه.

*

غريب جداً أنني قفزت في تلك الحفرة تحت سيتي بالاس، أنا الذي بقيت قصة جورج زخور في رأسي، ولم تخرج. كنت لا أراه

في الشركة ـ لم نحرس معاً إلاّ مرة واحدة، حرسنا البنك اللبناني الفرنسي على ساحة ساسين ـ إلاّ وأتخيله تحت، مكوّماً كالجنين في المجرور، ينتظر أن ينفد الهواء أو أن يقضي جوعاً. تعرف الواحد حين تحدث معه تجربة مثل هذه (ماذا يقولون؟ «حين ينظر الواحد إلى الموت ينظر إليه في عينيه»)، الواحد بعد تجربة كهذه لا يبقى هو ذاته. حتى لو رأيته لم يتغير بعدها، حتى لو قال هو نفسه إنه لم يتغير أبداً، وحتى لو اعتقد جازماً وفي قرارة نفسه أنه لم يتغير، حتى في تلك الحال يكون قد تغيّر. أشياء أبسط بكثير تُبدلنا. كيف لا نتبدل بعد تجربة صعبة مثل هذه؟

لا ضرورة لأن تقع في مجرور أو في بئرٍ. يكفي أن تحبس نفسك في غرفة سبعة أيام أو عشرة أيام. بعد ذلك يصير حتّى الكلام صعباً. وحين تخرج من البيت يبهرك ضوء الشمس ولا تعرف أين أنت أو أين كنت أو ماذا ستعمل بحياتك الآن. هذا كلّه وأنت لم تسقط في بئرٍ خطأ.

*

غريب أنني قفزت في تلك الحفرة مطارداً الشبح الذي ظننته ولداً ثم تبين لاحقاً أنها ياسمينة. أن أكون قفزت هكذا، بلا أي خوف، أو أي حذر! إذا أردت أن أتذكر تلك اللحظة الآن أقول أنني وقعت خطأ. لم أتعمد القفز. كلا. بل سقطت. إذا أردت الصدق الصدق أقول وقعت. لكن لماذا قلت قبل ذلك أنني قفزت؟

لعلني لم أعد متأكداً تماماً. هذا جرى قبل سنوات. ثم أن أموراً كثيرة حدثت لي بعد ذلك تحت الأرض. هل قفزت أم وقعت، لم أنتبه للحفرة ووقعت؟ ان ذلك ـ في الختام ـ لا يغير شيئاً. لك أن تكتب ما تشاء. قلْ إنني قفزت مطارداً الأرنب

الأبيض مثل أليس في قصة لويس كارول إذا أردت. أو قلْ أنني لم أنتبه للوح الخشب المكسور وسقطت إلى كهفٍ تحت سينما سيتي بالاس. وحين صرخت لم يسمع صوتي أحد.

*

لكنني لم أصرخ. الأولاد الثلاثة صرخوا: «بَرَّاني، بَرَّاني، بَرَّاني...» لا أنسى صراخهم. كان هذا فعلاً جرس انذار. كان هذا اتفاقاً مقدساً بين الناس تحت: الناس الذين بقيت عندهم وقتاً طويلاً وأنا لا أصدق أنني أعيش بينهم، وأنا لا أصدق أنني عشت كل حياتي في هذه المدينة من دون أن أعرف أنهم يعيشون تحتنا، في مدينتهم تحت الأرض.

فتحت عينيّ (كنت مُمدّداً على ظهري على فراش منذ أيام وكل عضلاتي يابسة، تؤلمني مثلما يؤلمني وركي الذي انخلع من مكانه ثم ردّوه كما كان ولفّوني برباطٍ شديد)، فرأيت نور شموع يتراقص على سقف الكهف (كان هذا المكان كهفاً فعلاً، بنتوءات صخر، ومسلات حجر تتدلى منحوتة نحتاً بالماء والوقت)، ورأيت جانباً من الكهف مطروشاً بالكلس الأبيض، ورأيت رفّاً عالياً عليه قنديل زجاج قديم، قنديل كاز غير مشتعل، وجنب القنديل رأيت ساعة. ساعة حائط مدوّرة إطارها عريض بلون النحاس، وميناء الساعة أبيض يضرب إلى صفرة: رأيت الوقت! كانت الساعة الثامنة تماماً. (فكرت أنها الثامنة مساء، لأن المكان مظلم والشموع مشتعلة. ثم قلت لعلها الثامنة صباحاً، كيف أعلم، صحيح أنني لست في القطب الشمالي، والليل لا يستمر في بيروت حتى الثامنة صباحاً، لكنني الآن في كهف، وأنا على الأرجح ما زلت تحت الأرض، فكلّ هذه الأيام الماضية المحمومة لم تأخذني إلى فوق، وأنا كل

الوقت أسمع أصوات هؤلاء الناس الغرباء فوق رأسي، ولا أدري لماذا أصواتهم هامسة هكذا، فلا بدَّ أنهم قادرون على الصراخ، وعلى الحديث مثل البشر العاديين، وإلاّ كيف صرخ هؤلاء الأولاد «بَرَّاني، بَرَّاني، بَرَّاني» بأعلى صوتهم أول ما سقطت! وبقيت محتاراً لا أعرف أهي الثامنة صباحاً أم ليلاً، ولم أكن أعلم حتى تلك اللحظة أن الساعة على الحائط متوقفة على الثامنة ودقيقة واحدة ـ العقرب الطويل جاوز للتو الرقم 12ـ متوقفة على هذا الوقت الغامض منذ سنين).

هذا أول ما أذكره من لحظات استيقاظي الأولى في العالم الكائن تحت بيروت: المسلات المتدلية من السقف، والحائط المطروش بالأبيض، والرفّ الحجر، والقنديل على الرفّ، وساعة الحائط المعلقة على بعد شبر. بعد ذلك أرى وجهاً يقترب من وجهي، أحدهم ينحني عليّ ويقول شيئاً. لا أسمع الصوت الهامس، لكنني أرى حركة الفم. هذا ليس الرجل الأسمر صاحب العينين العسليتين والشعر القاسي الذي ذكّرني بأبي، ليس الرجل الذي رأيته قبل يومٍ أو يومين وأنا محموم. هذا رجل غيره. ثم بان وجه آخر: وجه امرأة. ولاحظت أنها هي أيضاً وجهها مائل إلى الطول، لكن المميز في وجهها ـ كما في كل الوجوه التي رأيتها تحت ـ كانت تلك النظرة البارقة المنبعثة من عينين واسعتين. (سأعلم بعد ذلك أنهم منذ زمنٍ بعيدٍ هكذا: يولدون بعيون واسعة. وهم لا ينتبهون عموماً لهذه السمّة المميزة في وجوههم، لأنهم نادراً ما يتعاملون مع «البرّانيين»، وهذا اسمهم لنا، نحن الذين نحيا «برّا»، أي في الخارج). أحسّست، وأنا أخرج من الحمّى للتو، أنني أُشفى بينما هذه المرأة تنظر إليّ، كأنها ـ بالنظرة الحنون الحزينة ـ تسقيني ماء، وتردّ إليّ الروح. كأنها تشربني بعينيها

الواسعتين المشروحتين. أو كأنها بعينيها العميقتي السواد تجذبني جذباً من الحمّى التي أغرق فيها.

لا أريد أن أبالغ في وصف أثر تلك النظرة فيّ. لعل أثرها كان عميقاً إلى هذا الحدّ بسبب حالتي. كنت مكسر العظام، حار الرأس، والرباطات تلف جسمي لفّاً، مثل المومياءات في قبور الفراعنة. أضف إلى ذلك أنني كنت فعلاً في مقبرة: كنت في كهف تحت الأرض.

لو كنت في قصة لكنت فكرت أنني قد مت. أنني الآن في عالم الأموات. لو كنت في قصة لكنت فكرت أن الوجه الذي رأيته قبل ساعات أو أيام هو فعلاً وجه أبي. لو كنت في قصة وليس في هذه الحياة الغريبة ـ التي هي حياتنا التي لا نملك حياة أخرى غيرها ـ لقلت إنني ذهبت إلى الجحيم أو ربما إلى النعيم (من يعلم؟)، لقلت إنني في الجنّة (وأين يكون أبي إن لم يكن في الجنّة، هذا الرجل الذي تحمل ما لا يتحمله أحد)... لو كنتُ في قصة كنت حدثت نفسي أنني نائم الآن، وأن هذا كلّه منام طويل لن ألبث أن أستيقظ منه، تماماً كما يحدث في كل القصص: لا بدَّ أنني سقطت عن الدرج بينما أنزل إلى الطبقات السفلية من سيتي بالاس، أو بينما أصعد الطبقة الثانية إلى الثالثة، إلى الصالة حيث أحبّ القعود، في أعلاها، حيث النوافذ الطويلة المطلّة على جسر فؤاد شهاب، أراقب منها السيارات العابرة في الليل وأنا أشرب شاياً وأدخن سجائري «السيدرز» التي ورثت تدخينها عن أبي ـ هذا الدخان الوطني الذي ينشق صدرك قبل أن تسحب من تبغه المنفوش نفساً... لو كنتُ في قصة لكنت فكرت أنني وقعت عن درج السينما أو وقعت في حفرة، وغفوت قليلاً مثل جورج زخور ـ الذي يبيع الآن جبناً ولبناً ولبنة من منتوجات دير تعنايل في متجره في فرن

الشباك ـ وبينما أنا نائم رأيت أولاداً ثلاثة عيونهم واسعة، ثم رأيت آخرين يحملوني على نقّالة الإسعاف عبر ممرات طويلة متشعبة إلى كهفٍ هو غرفة مطروشة بالأبيض أيضاً، مثل غرفة في بيتٍ أو مستشفى. . . لا أدري.

لماذا لا أكون في قصة، وبينما أنام قاعداً في مدخل سيتي بالاس، بين الأعمدة السوداء، في الفراغ الكبير، والمطر ينهمر على برك الطريق وبركة ساحة الشهداء، وصوت أم كلثوم يخترق الليل الساكن، أرى مناماً: أرى أنني أطارد دخيلاً (متشرداً أو عابر سبيل) فأقع في حفرة أو أقفز أو. . .

لكن ما حدث لي حدث لي. الواحد حين تحلّ به كارثة، أو حين يجد نفسه في موقف لا يفهمه، يتمنى أن يكون في منام. أنا في صغري اعتدت النوم ونحن قاعدين في الملجأ أسفل البناية في «مونو» حيث بيت خالي: كنت أنام ولا أستيقظ على دوي القصف بينما زوجة خالي تصلّي مع أختها لأمّنا مريم العذراء أن تحفظنا من القنابل. . . وكانت هناك جارة تصلّي للربّ وهي تقبّل الانجيل وتسقيه بدموعها، كانت تصلي إليه أن ينقذنا من قنابل الهاون ومدافع الـ 106 و. . . كانت تسمي أنواع الأسلحة وكل ما تعرف من عيارات مدافع، وأسماء صواريخ، وكنا لا نعرف هل نضحك أم نبكي ونحن نسمع دمدمتها بأسماء المدافع، كأنها تدمدم بأسماء القديسين. (كان هناك مدفع وراء السوديكو ـ سكوير، مدفع لنا، يقصف على «الغربية» حتى يحمي قسطله ولا يدعنا ننام، وكنّا نسمّيه «أبو صابر». وكان هناك مدفع آخر عند «فرن الناصرة» على بعد أمتار من بيتنا، وأخي قصف فترة على هذا المدفع، وكانوا يسمّونه «الكرمل»، لأن أحد المرابطين في ذلك الموقع كان يسكن في «بناية الكرمل» في شارع السيدة). أين كنت؟ صحيح، كنت في الملجأ

أنام، ولعلني قضيت الحرب كلّها نائماً. هل تصدق؟ لماذا لا أذكر الآن من الحرب كلّها إلاّ نومي في الملجأ ووجوه الناس حولي وأبي يطلب منا الصمت ليصغي إلى الترانزيستور الضعيف البطارية الضعيف التلقي (كنّا نقول «ضعيف الإرسال»). وهذا الراديو الأحمر الصغير يخشخش، ونسمع الصوت يقول إن الاشتباكات تستمر على محور السوديكو وعلى السالومي وعلى الصيّاد وعلى المتحف وعلى الشياح، كل المحاور مشتعلة، ووقف اطلاق النار الجديد لم يصمد، مَنْ خرق وقف اطلاق النار، هم أم نحن؟ وماذا يبدل ذلك.

هذا كل ما أذكره من تلك الأيام. وأذكر أخي، وأبي يتعارك مع أخي. وأذكر صاحب محل السمانة المجاور، «سمانة سلمون»، ما زال هذا اسمها. إذا كنت نازلاً من السوديكو إلى «مونو»، هذا أول متجر يصادفك عن يسارك. وبعده بيتٌ زهرٌ قديم منزوع القرميد تُرممه «شركة الجنوب للإعمار» منذ سنوات ـ منذ انتهت الحرب ـ وحتى الآن لم تنتهِ من ترميمه: إنها حتّى لم تنظف أرضه من الأتربة والحجارة والخشب المحطم بعد! كنا نسكن وراء ذلك البيت. وراء البناية القديمة البيضاء العالية التي تواجه بناية صفراء تشبهها كأنها هي، وبين العمارتين القديمتين الباحة القديمة، بالعشب اليابس ينبت بين بلاطاتها، والغسيل دائماً منشور على حبل، ما زلت حتى اليوم لا أعبر هناك ـ أعلى «مونو» ـ إلاّ ويخفف قلبي خفقة غادرة سريعة: أنظر من الباب الحديد الأسود العريض، أنظر من بين القضبان إلى الباحة الواسعة المهملة القديمة، وأنظر إلى الشرفة الحجر هناك، وأرى عمّي سمعان (كنا نسميه «عمّي») ملقياً نصفه على درج الشرفة ونصفه في الباحة: كان فعلاً مقطوعاً قطعتين. قطعته قذيفة.

أنا قرأت رواياتك وأعلم أنك مثلي، أنت أيضاً عبرت الحرب كمن يعبر مناماً. ألم نفعل كلّنا الأمر نفسه؟ لكن البعض قُتِل في نصف المنام، ولم يبقَ حيّاً ليذكر ذلك الآن. وقد مضى على الحرب وقتٌ، والأمور استقرت، وعلى الأقل لم نعد نسمع رشقات الرصاص إلاّ في الأفراح. ليس هذا قليلاً. كلا، ليس هذا قليلاً. 14 سنة مضت على انتهاء الحرب، ومن نجا، نجا وحده بجلده. أنت نجوت. وأنا نجوت. وحتى أخي الذي صارع الموت وجهاً لوجه ـ مرة ثم أخرى ـ حتى أخي نجا. وأبي أيضاً نجا من الحرب. لكنه لم يلبث أن مات. لا أريد أن أحكي عن أبي الآن. هل أُخبرك عن ابن خالتي الذي خُطِف وطقّ قلب خالتي وهي تنتظر رجوعه وتنشر صورته في الجرائد وتخصص مكافآت لمن يحمل إليها خبراً ـ أي خبر كان ـ عنه؟ انتظرَّته عامين كاملين: قال إنه نازل لحظة كي يشتري منقوشة من الفرن عند الزاوية، «فرن العائلات»، فنزِل ولم يرجع. خالتي عملت الشاي ثم تابعت أشغال البيت. والشاي صار بارداً وهي خرجت إلى الشرفة لترى لماذا تأخر الولد. لم يكن ولداً! كان في الخامسة عشرة، ويبدو ـ بسبب طوله وعرض كتفيه وذقنه التي نبتت باكراً ـ يبدو في أواخر العشرين. لم يكن ولداً. وفقدته خالتي. لم يكن عندها غيره. بعد عامين من الانتظار شربت قنينة ديمول. وجدها زوجها على الشرفة، في قميص النوم، وبالروب الأبيض الكبير الذي اشتراه ابن خالتي من «محلات تقلا» هدية لها سنة 1986.

ابن خالتي إبراهيم. كنّا نُسمّيه «برهوم». كان يأتي من «الغربية» ليقضي معي في السينما نهارات كاملة. ونذهب إلى البناية حيث يشتغل أبي ونقعد عنده. ثم في طريق العودة إلى «مونو» نأكل ترمساً، و «قضامة». كان يحبّ هذه الحبوب المحمصة. وكنت

أسمّيه «أبو قضامة». بعد أن خطفوه في الـ 87 فكرت أنه بالتأكيد قُتِل. لم أكن أعلم عندئذٍ أنني سأراه مرة أخرى.

*

قبل أن أتابع أود، للدّقة، أن أغيّر شيئاً قلته قبل قليل: قلت أنني ما زلت حتى الآن لا أعبر أعلى شارع مونو (أمام البوابة الحديد السوداء العريضة بالباحة التي بقَّع بلاطها دم عمّي سمعان) قلت إنني ما زلت لا ألمح تلك الباحة بعشبها القليل اليابس والشمس تغمرها وتغمر الغسيل الرطب المنشور هناك، إلاّ ويخفق قلبي خفقة غادرة سريعة. ألم أقل هذا؟ بلى. لكن هذا الكلام ليس دقيقاً.

أنت تعرف أن الإنسان يميل إلى المبالغة في كلامه ليخلق التأثير المطلوب في الآخر الذي يصغي إليه. هذه طبيعة الحكي. أنت أدرى بهذه الأمور مني. وأنا ـ لا بدَّ ـ أقع في المبالغة. حين أعبر مونو ليلاً، وأنت تعرف كيف يكون هذا الشارع صاخباً بالموسيقى الأجنبية، مكتظاً بالفتيان والفتيات يترنحون سكارى إلى ساعة الفجر، حين أعبر أنوار مونو الكهرباء البرتقالية في الليل طالعاً من البيت (بيت أخي حيث أسكن) إلى السوديكو أو إلى «حلويات الرشيدي» أو إلى «فرن الناصرة» لأشتري «كعك غْرَيْبه» (كان أبي يخبز لنا في البيت كعكاً مثله، ويكون كريماً بحبّ اليانسون في العجينة فتفوح الرائحة من قبل أن يحطّ الصواني في الفرن وتملأ درج البناية حتى مدخلها)... ماذا أقول؟ أكون ماشياً بين شبابٍ بشعورٍ طويلة مربوطة وبأقراط فضة وذهب في الآذان والشفاه، أوشك أن أُبعد الفتيات شبه العاريات من طريقي كمن يبعد قطيع أغنام، ودوي الموسيقى يضج بين البيوت، والنوادي الليلية تتدفق منها أمواج راقصين وراقصات، الكل يشتبك بالكل،

واللغات تتشابك. يتكلمون بكل اللغات، مزيج لغات عجيب، وأعبر الزحمة صاعداً على الدرب التي بلّطوها أخيراً بالحجر البركاني الأسود بدل الإسفلت (أعادوا تأهيلها؛ ووضعوا رخامة عليها اسم رئيس الجمهورية وتحته اسم رئيس الحكومة)، أُجاوز كل هذه الحشود، والسيارات مركونة في كل مكان، أبوابها مشرعة، وفي الداخل أرى فتياناً وفتيات ينطرحون على الجلد اللامع، في شبه اغماءة، والدخان يخرج من النوافذ، ورائحة الكحول تمتزج بروائح عطور وأجساد بشرية مملوءة طاقة... كل تلك الروائح أعبرها حتى أبلغ أعلى مونو. وحين ألمح تلك الباحة المهملة غارقة في الظلمة، أو في نور سيارة عابرة، لا أذكر عمّي سمعان ـ إلاّ إذا أمعنت التفكير ـ ولا أذكر جسماً مقطوعاً إلى نصفين من وسطه، كأنهم نشروه بمنشار الحطب... لا أذكر المصران الأخضر على الدرجة تحت الشرفة، ولا أذكر مواء القطط، ولا أذكر شقف اللحم على الغسيل الملون المنشور والغسيل الأبيض الذي سقط مع حبلٍ قطعته الشظايا أو ضغط الانفجار.

ها أنا أقول ما وجب قوله: أحياناً أتذكر ذلك الجسم المسكين المشطور نصفين، وأشرد حين أرى العبارة على اللافتة فوق الدكان: «دكان سلمون للسمانة». أو لعلها: «محل سلمون للسمانة». أترى كيف أن الذاكرة ـ حتى في هذه الأمور البسيطة القريبة ـ تخدع الإنسان؟

فماذا تقول عن حادثة مرّت عليها السنوات؟ لكنني مع كل ذلك لا أنسى عمّي سمعان: كان يعطيني حبّات سكر نبات حين أشتري علبة «بسكويت غندور»، وكان لا يأخذ مني ثمن حبّات السكر نبات.

*

تذكرت مذاق تلك الحبّات ـ ذلك المذاق الحلو الذي لم يعد هو ذاته حين كبرت ـ تذكرت مذاقها حين فتحت عينيّ تحت الأرض ورأيت تلك المرأة ترفع قماشة مبلولة وتمسح وجهي، وتمسح أذنيّ. بعد أن مسحت وجهي ورأسي، مسحت رقبتي أيضاً، ومسحت كتفيّ وصدري. وهي تمسح جذعي هكذا انتابني احساسٌ غير مفهوم: أحسّست أنها لا تمسح جسمي المكتنز الذي أعرف طيّات لحمه جيداً! أحسّستها تمسح كيساً من عظام! القماشة المبلولة في يدها انزلقت على جلدي ولم تعلق في تلال الشحم وأوديته. حاولت أن أرفع رأسي، أردت أن أرى جسمي، لكن ذلك كان مستحيلاً. كان جسمي ثقيلاً، كأنه أُفرِغ من مادته، وحُشِي رصاصاً أو حديداً. ابتعدت المرأة التي تشبه ملاكاً، واقترب رجل. كان مثلها طويل الوجه، قامته قصيرة، وعيناه متسعتان. انتبهت أنه يجرّ شيئاً ثقيلاً خلفه. ثم رأيت أنه يجرّ كرسياً منقوراً من حجر.

جلس عند رأسي، وقال بصوته الهامس:

ـ اسمي إسحاق. هل لك اسم؟

كانت غرّة سوداء من شعره تسيل على جبهته، فردَّها إلى خلف. فكرت عندئذٍ أن معظم الرجال الذين أبصرت وجوههم في أيام الحمّى الماضية كانوا مثله شعرهم طويل، وإن لم ينتبه الواحد لذلك سريعاً: لأنهم لا يستعرضون شعورهم الطويلة بل يخفونها تحت طاقيات قماش. وحدها الغرّة الطويلة تظهر، تسقط على الجبين أو العينين، فيردّونها بسرعة.

كرّر بذلك الصوت الذي تكاد لا تسمعه:

ـ أنا إسحاق. هذا بيتي. هل عندك اسم؟

أردت أن أتكلم. حركت عضلات وجهي، حركت حنكي. لكن لساني لم يتحرك. كأن عضلة لساني تخشبت، حالت حطباً،

جفّت، نشّفت وماتت. قبل أن يسيطر عليّ الذعر، سمعته يقول:

ـ حاول على مهل. حاول تحريك فمك.

أردت أن أحاول. لكنني قبل ذلك أخذت أغور في رأسي، أغور في تلافيق دماغي، أبحث عن. . . اسألني عَمَ كنت أبحث؟ كنت أبحث عن اسمي. وخيّل إليّ ـ مذعوراً ـ أنني فقدت اسمي إلى الأبد.

كان وجهه كوجوه الأولاد الثلاثة، وكوجه المرأة، وتلك المرأة الأخرى (هل كانت امرأة أخرى؟ وهل كانت هناك في البداية فتاة قالوا إنها تدعى ياسمينة؟ وماذا جرى لذلك الرجل العسلي العينين، الجعِد الشعر، الذي ذكّرني بالمرحوم أبي؟). كان وجهه شاحب البياض، مطفأ البياض. كان بياضاً قديماً معتقاً، مثل قميص قطن أبيض غُسِل مرات لا تحصى فحال لونه إلى أبيض مصفر. أنت ترى كيف أرجع مرة تلو أخرى إلى وصف لون بشرتهم! إلى هذا الحد بدت بشرتهم حزينة! لن أذكر هذا بعد الآن.

مدّ يده فرأيت ذراعاً نحيلة معروقة يغطيها شعرٌ كثيف. حمل ذراعي اليمنى، وقال لي بصوته الذي رفع نبرته درجةً، لكنه مع ذلك ظلّ منخفضاً:

ـ أنظرْ!

نظرت إلى ذراعي فلم أعرفها. رأيتها نحيلة. ليست نحيلة مثل ذراعه لكنها نحيلة. هذه ليست ذراعي! ثم انتبهت إلى ثقوب دقيقة بلون الدم في جلدي، عند الرسغ، وفوق الكوع، في العضلة، وحيث تظهر الشرايين الزرقاء.

قال هامساً:

ـ كنا نحقنك بالماء والسكر. لولا الشحم على جسمك ما

كنت نجوت. كل هذا الوقت!

ضبابٌ ثقيل خيَّم على دماغي. أغمضت عينيّ. مرة أخرى سمعت سؤاله:

ـ هل لك اسم؟

كنتُ بلا أمل. مغمض العينين بحثت في جرّة الفخار عن قرش ذهب. الجرّة رأسي، والقرش اسمي. كنت أسمع رنين القروش في جرّة الفخار. وكنتُ بلا أمل. لكن فمي تحرك مع ذلك. من دون أن أقرر شيئاً، وقبل أن أعثر على اسمي، أنقذني فمي. قلت:

ـ اسمي بطرس.

لفظت الإسم وأنا أفتح عينيّ. سمعت صوتي وعرفته. كأن صوتي متعباً، غريباً بعض الشيء، لكنني عرفته. هكذا يكون الصوت بعد مرضٍ طويل. أعرف هذا. لكنه صوتي! وقلت في نفسي: «بَقِيَ أن أعلم كيف صارت ذراعي بمثل هذا النحول».

مرة أخرى جربت أن أرفع جذعي على كوعيّ. مرة أخرى فشلت. الرجل حمل طاسة (أين كانت؟ على الأرض؟) حمل طاسة حجراً، ثم قرّب ملعقة خشبية من فمي. فاحت رائحة زنخة، قوية، غريبة. قال الرجل هامساً:

ـ اشربْ! اشربْ! هذا يُفيدك!

لم أشرب. مع أنني انتبهت فجأة إلى جوعي الشديد. كنت أريد أن أعرف أين أنا؟ وما هو الوقت؟ هل نحن في الليل أم في النهار؟ وكم مضى عليّ هنا، في هذا المكان الغريب الذي لا أعرف ما هو، كم مضى عليّ في هذا الفراش الطري (لكنه ليس حقاً طريّاً، إنّ جسمي كلّه متصلب كالصوان)، أكثر من يومين؟ ثلاثة أيام مثلاً؟

لا أعرف ماذا سألت الرجل بالضبط، لكن الدهشة بدت على وجهه. رأيته يرفع حاجبيه، ويُرتب أفكاره قبل أن يتكلم. ظهرت تجاعيد غائرة في جبهته (لا بدَّ أنه جاوز الأربعين، ولعله جاوز الخمسين). وقبل أن يتكلم وضع الطاسة (سأعلم لاحقاً أنها حساء سمك يعملونه من الحسك ورؤوس السمك)، وضع الطاسة أرضاً. بعد ذلك جاءني صوته الخافت:

ـ «منذ أيام؟ منذ ثلاثة أيام؟» لا يا بطرس. أنت هنا من موسم الأمطار. حين وجدناك كانت الدهاليز كلّها ترشح ماء. الآن سقوف الدهاليز جافة. إذا لمستها برأسك نزل منها تراب وغبار. هذا موسم الجفاف. في العالم البرَّاني، فوق، في عالمك، الوقت الآن صيف. أنت جئت إلى مدينتنا في الشتاء. هذا يعني أن شهوراً طويلة مضت. لا أعرف كم بالضبط. نحن هنا لا نهتم بمرور الأيام مثلكم. هنا لا تُشرق الشمس ولا تغيب أبداً.

كلامه الغامض ضاعَفَ الضباب في رأسي. كأن دماغي يسبح في حساء سمك، بين الرؤوس، في قدر ماء على النار.

لكن عضلة لساني تحركت من جديد:

ـ تقول مدينتكم؟ ما هذا المكان؟ ما هذه المدينة؟ أين أنا؟

حدَّق الرجل إليّ كأنني ألفظ كلاماً غامضاً. كأنني أنا الذي تكلم بالألغاز. أحسّست ناراً تتقد تحتي، تحت القدر الحديد، وتُسوِّد المعدن بالسخام. كان مخّي يغلي مع مخّ سمكة، ومع حسكٍ رفيع، وتكلمت:

ـ بربّك ما هذا المكان؟ أين أنا؟

رفع الرجل يداً طويلة الأصابع، ربَّت على كتفي وعلى رأسي كأنه أبي، وقال:

ـ «لا تخف يا ابني. أنت في بيروت. مدينتنا نحن نُسمّيها «بيروت». المدينة فوقنا لا نسمّيها «بيروت» مثلكم. نسمّيها «البرّا». وأنت من العالم البرّاني. أنت الآن تحت المدينة التي فيها بيتك. صاحب الخرائط الفلكي سلمان ـ الوحيد الذي يملك خرائط عالمكم هنا ـ يقول إن بيتي، وأنت الآن ضيف على بيتي الصغير، يقع تماماً تحت «قلعة» في مدينتكم هي «جامع» يُصلي فيه المسلمون وتسمّونها «الجامع العمري الكبير». لا تخف يا ابني. أنت في أمان. لكنك نائم منذ وقت طويل. أنظر إلى جسمك كيف صار جلداً على عظم! حين سقطت ارتطم رأسك بالأرض. حملناك وأنت بين اليقظة والغيبوبة. لم نحسب أنك ستنجو. وها أنت قد نجوت. لكن عليك أن تأكل. من دون شرابٍ أو طعام لن تقدر أن تقوم.

سكت وانحنى. غاب. حين ظهر من جديد رأيت الطاسة في يده. وحين اقتربت الملعقة المملوءة بالسائل الداكن من وجهي، انفتح فمي وحده، مع أن الرائحة لم تكن طيبة.

*

لم يكن حساء سيئاً جداً. كان سيئاً، بلى، لكن ليس سيئاً جداً. مع الجوع تفقد الذوق الرفيع، أو على الأقل تقبل بالوسط. مشكلتي أنني منذ صغري اعتدت على الأكل الطيب. ليس طعام الأثرياء. لم نكن أثرياء يوماً. كان طعامنا طعام الفقراء، لكنه كان طيباً. هذا أيضاً ـ فن الطبخ ـ ورثته عن أبي. لم أرث عن أمي إلاّ شعرها الناعم.

*

شربت كل ما في الطاسة ولم أشبع. نور الشموع ألقى ظلالاً

على الأرض. حين بانت المرأة من وراء الحائط المطروش بالأبيض حاملةً طاسة أخرى مملوءة بالحساء أيضاً، استغربت دخولها: من أين دخلت؟ لم أرَ باباً هناك! بعد ذلك اكتشفت أن كل المداخل هنا هكذا: نادراً ما ترى باباً. كل المداخل جانبية، كأنك تتحرك في متاهة حجر. (بعد وقتٍ، حين أرى خريطة المدينة في مكتبة الفلكي سلمان اكتشف أن المدينة متاهة فعلاً: متاهة من البيوت والدهاليز المنقورة في الصخر والتراب؛ بعض دهاليزها الأشد قدماً ما زال على حاله منذ أيام الرومان لم يتغير: ها هنا كانت «بيريتوس»، المدينة الرومانية العتيقة، قبل الزلازل التي طمرتها بالتراب).

*

أذكر أحد أسئلتي الأولى إلى مضيفي إسحاق، بعد أن بدأ جيرانه يتوافدون لرؤيتي وللتهنئة بسلامتي. كنت مدهوشاً بتوافدهم. كانو كثراً، وكلّهم يتشابهون على نحوٍ غامض يثير الفزع، بلى، الفزع! كنت أفزع من الشبه الشديد بين كل تلك الوجوه، كأنهم كلّهم أخوة، مع أنني أعلم، وهم قالوا لي، أنهم ليسوا أخوة. كانوا عائلات، وكانوا كثراً، وكلّهم عيونهم واسعة، وكلّهم يتكلمون همساً، لكنهم بينما يتكلمون معك تنتبه أنهم لا يتشابهون إلاّ في الشكل، وحين تنتبه إلى هذا يتلاشى ذعرك، لا تعود تشعر بالفزع حين يُطلّون عليك فجأة، من وراء الحائط، بقاماتهم القصيرة، وعيونهم الكبيرة. حين بدأت ألاحظ اختلاف طباعهم وشخصياتهم وأساليبهم في الحكي، واحداً عن آخر، حين بدأت أحفظ أسماءهم وأعرف ماذا يفعلون واحداً واحداً، بدأت أُميز الوجوه أيضاً: بدأت ألاحظ أنهم حتى في الشكل، حتى في الوجه، لا يتشابهون فعلاً. كيف أجعلك تفهم ماذا أقول؟ نادراً ما نرى صينيين في بيروت، صحيح؟ ألاّ تتخيل الصينيين بوجوه متشابهة؟ ولعل أهل الصين

يعتقدون أن أهل بيروت ـ إذا كانوا سمعوا ببيروت ـ لعلهم يعتقدون أننا جميعاً لنا الوجه ذاته. هل تفهم ماذا أقول؟

طيب. كانوا يأتون، واحداً واحداً، أو جماعات. والبعض يأتي بزوجته معه، وأحياناً يجلب ولداً أو ولدين (عائلاتهم ـ كما سترى ـ ليست كبيرة). يقعدون جنب سريري ونتكلم. في البدء كان الواحد منهم يظل واقفاً، لا يقعد. يقف على مسافة. بعد زيارات عدة يقترب. خطوة، خطوة. ثم بعد أحاديث متكررة أدعوه للجلوس فيجلس. كل الوقت حركاتهم مهذبة. أصواتهم هامسة.

أذكر أحد أسئلتي الأولى إلى مضيفي إسحاق، بعد أن بدأ توافد جيرانه لرؤيتي والتسليم عليّ. كانت ابنته (تلك المرأة التي تشبه ملاكاً والتي يناديها راحيل) كانت راحيل في زاويتها، تحت الرفّ الذي يحمل القنديل الذي لا يشعلونه أبداً (ليس عندهم كاز. القنديل زينة وحسب. مثله مثل الساعة المعطلة العتيقة)، ترتق بإبرة معقوفة ثخينة وبخيط مسحوب من كيس جنفيص، ترتق أحد قمصان أبيها. كان هو قاعداً على الكرسي الحجر، جنب سريري، ينفخ في ناي خشبٍ موسيقى حزينة (لا يعرفون من الآلات الموسيقية غير الناي. ليس عندهم آلات وترية. ولا يسمحون للأطفال والأولاد بالطرطقة على الحجارة أو النواويس أو قرع الخشب على الخشب. أي هدير، أي دوي، قد يتسبب بسقوط أتربة من السقوف. مرات تحدث انهيارات. المدينة ـ كما سأكتشف ـ لا تقوم تحت بيروت، بيروت حيث تعذب أبي ومات، لا تقوم تحت بيروت بأمتار قليلة. هناك أماكن تغرق فيها إلى تحت بارتفاع ناطحة سحاب من ناطحات سحاب نيويورك الشهيرة). كان الرجل إسحاق الذي ينادونه «شيخ إسحاق» يعزف موسيقاه (كل ليلة قبل أن نُخلد إلى النوم يعزف هذه الموسيقى، موسيقى تُذكرني بأمي التي لم يبقَ لي منها إلاّ صورة شبه

خيالية، سأذكرها لك بعد قليل)، وكانت الموسيقى تملأ الكهف بما يشبه القطن: خُيِّل إليّ أنني أرى حمائم تتطاير بين الحيطان. فجأة انقبض قلبي: أريد أن أرى نور الشمس، أريد أن أرى السماء الزرقاء، أريد أن أرى البنايات التي أعرفها، أريد أن أرى أعمدة الكهرباء، أريد أن أرى نافورة الماء أمام البلدية، أريد أن أرى جسر فؤاد شهاب، أريد أن أرى سهلات البرج، ساحة البرج يغطيها الحصى الأبيض، أريد أن أرى مستطيل السماء أعلى باحة اللعازارية الحمراء، وأريد أن أرى الحمائم تتقافز على حواف النوافذ، وعلى حواف السطح، ثم تتساقط إلى حيث نرش لها الحبّ. انقبض قلبي كأنني أعصره في يدي. كأنني أعصر عصفوراً حيّاً. سمعت قلبي يصرخ. قنوط فظيع خيَّم عليّ. طقّ قلبي وأنا ملقى في هذا الفراش في هذا الكهف تحت الأرض. طقَّ قلبي وفقع. لكن ما هذا؟ الموسيقى تغيرت، موجة علت ثم هبطت، وأحسّست برودة تتسرب في الفضاء (فوق، في العالم البرّاني، الحرارة تُلهب البيوت والشوارع الآن، هذا عزّ الصيف، أليس كذلك؟)، كان الرجل الماهر يعزف لحناً آخر، وتبدل مزاجي، ابتعد القنوط عني قليلاً، ووجدتني أسأله:

ـ شيخ إسحاق كم عدد سكان مدينتكم؟

كفَّ عن العزف. أبعد الناي ونظر نحو راحيل. هي أيضاً كفّت عن الخياطة. تبادلا النظرات. كأنهما يفكران معاً. كأنهما يتباحثان بالأمر، يتشاوران، هو يقترح رقماً، وهي تقترح رقماً آخر، ومعاً يصلان إلى رقم تقريبي صحيح. لكن كل هذا بلا كلام. أو هكذا فكرت، أنا الغَريب عن هذه العائلة، عن هذا البيت، عن هذه المدينة السفلية.

أخيراً تكلم الرجل هامساً:

ـ سكان مدينتك أنت كم؟

هذه المرة تكلمتُ بصوت أقل ارتفاعاً:

ـ مليون، أو أكثر بقليل.

هزّ الرجل رأسه. نظر إلى ابنته كأنه يسألها هل تفكر في ما يفكر فيه. ثم قال:

ـ ونحن مليون أيضاً.

*

لم يبتسم حين قال إنهم مليون نسمة. وأنا، الذي أوشكت أن أضحك، لم أضحك.

لم أضحك لأنني سمعت راحيل (التي نادراً ما يُسمع صوتها) سمعتها تقول من مكانها البعيد:

ـ أكثر من مليون! ومع «ناس الوحل» يكون العدد ثلاثة ملايين تقريباً.

*

كانت أول مرة أسمع فيها عن هؤلاء. كان الإسم فظيعاً: «ناس الوحل». سمعت الخوف في النبرة اللطيفة. وهي تلفظ العبارة.

رأيت أباها إسحاق يحدجها بنظرة لم أفهم معناها.

أردت أن أسأل سؤالاً لكنه قطع الطريق عليّ. قال إن علينا الاستيقاظ باكراً، وألقى تحية النوم المعتادة:

ـ ليكنْ نومك عميقاً وتفتح عينيك مرتاح البال!

كان هذا من تقاليدهم. ولا يزال.

*

تلك الليلة، بعد انطفاء الشموع، وقد سادت الظلمة السميكة بيت الشيخ إسحاق وسادت السكينة دهاليز المتاهة المطمورة الحجر حيث سأتجول طويلاً بعد وقتٍ، تلك الليلة، والظلمة الصامتة تكبس صدري كبساً، رأيت في المنام ـ بينما أسمع شخيراً هامساً أليفاً ـ رأيت هؤلاء: رأيت «ناس الوحل».

وأغرب ما في الأمر أنني رأيتهم في المنام كما هم فعلاً، مع أن أحداً لم يكن قد وصف لي أشكالهم وقاماتهم وأبدانهم من قبل. لم أكن سمعت عنهم إلاّ تلك العبارة التي لفظتها راحيل بلا انتباه. لم أكن سمعت إلاّ الإسم: «ناس الوحل»! فكيف رأيتهم على حقيقتهم في منامي؟ مرات تحدث مع الإنسان أشياء غريبة. أذكر أن أبي رأى مرة في المنام أن النمرة الحديد في مؤخرة سيارته الداتسون 120Y الصفراء قد انكسرت ووقعت. أخبرنا المنام في الصباح بينما يشرب قهوته الحلوة. وذلك النهار نفسه، عند المساء، رجع إلى البيت وأخبرنا أن شاحنة اصطدمت بسيارته من خلف. كانت السيارة متوقفة جنب الرصيف، في شارع بلس، أمام باب الجامعة الأميركية. الشاحنات نادراً ما تعبر على ذلك الخط. أنظر الغرابة! وانكسرت نمرة الحديد. تلك الليلة رأيتهم في منامي، تماماً كما وصفهم لي بعد ذلك بأسابيع الصيّاد عبّاس (الرجل اللاهث الأنفاس الذي لم يكن قد ظهر أمام سريري حتى تلك الساعة، وحين جاء أخيراً اعتذر لأنه لم يأتِ قبل ذلك، ثم وضع بين يدي راحيل سلّاً مملوءاً سمكاً). تلك الليلة رأيتهم للمرة الأولى، «ناس الوحل» الذين يحيون خارج المدينة، في الضواحي المهملة، حيث لا يذهب الأهالي، وحيث يضيع كل أمل.

ماذا رأيت؟ رأيت ناساً من وحل يتمددون على أسرة قش وقماش في منطقة أرياف خضراء كأنها سهل البقاع ويرفعون

أجسامهم قليلاً، يرفعون أجساماً عريضة كبيرة على أذرع نحيلة من وحلٍ جامدٍ لا يقطر وحلاً كما تقطر صدورهم. كانوا ينظرون إليّ نظرات مريضة، وذات لحظة بدت نظراتهم غاضبة شريرة، ثم رجعت سقيمة حزينة، وكانوا ينظرون إليّ لأنني أراقبهم. عيونهم صغيرة قاتمة السواد، صغيرة كحبات العدس. لكن أقدامهم ضخمة مفلطحة كذيول الحيتان. أبدانهم كلّها من وحل. حتى شعرهم من وحل. وأسنانهم من وحل. والأظافر على أصابعهم من وحل أيضاً. عراة الصدور، قمصانهم فاتحة الألوان مفكوكة الأزرار، ينظرون إليّ وهم يرفعون ظهورهم عن الأسرة القماش المعلقة فتتسع عيونهم السوداء، وأرى مداخل خيم قماش قريبة، وأعرف أنهم كلّهم مرضى، فقراء، ويحتضرون جوعاً. (السماء غائمة، الفضاء منير، وبعيداً وراء السهول تظهر سلسلة جبال). لكنني - في المنام نفسه - لا ألبث أن أراهم أقوياء، مع أنهم من وحل. أنسى ما تخيلته قبل لحظة، لا أفكر بعد ذلك أنهم جياع، فقط أتأمل الوحل يقطر من الرقاب ومن أسفل الذقن، حيث الترقوة، وأرى العيون التي تتسع وهم ينظرون إليّ، ينظرون إليّ لأنني أنظر إليهم، ولأنني لا أقدر أن أشيح بوجهي عن هذه الوجوه، عن هذا المنام.

بعد حساء السمك، بعد أيامٍ من حساء السمك، تقبل معدتي طعاماً جامداً. تُطعمني راحيل عندئذٍ سمكاً مسلوقاً يُطيِّبونه بنبتٍ أخضر حامض الطعم، تقول لي اسمه لكنه لا يعلق في رأسي فأنساه. أجد السمك المسلوق بلا مذاق. لكني آكل منه كثيراً مع ذلك. آكل حصتي كلّها ثم ألتهم ما بقي في صحنها، وما في صحن أبيها الشيخ إسحاق. يبتسمان حين أنتهي من طعامي.

يقولان إنني أُعوض عن أيام المرض.

لا يعلمان أنني آكل هذا الطعام كلّه لأسترد صحتي سريعاً لأرحل عن هذا المكان. أريد أن أطلع إلى فوق. الحيوانات فقط، القنافذ والفئران والأفاعي والجرذان، تحيا في جحورٍ في بطن التراب. كيف يبقون هنا، لا أفهم!

ذات ظهيرة (أقول إنها ظهيرة لأنه وقت الغذاء، حين يرجع مضيفي الشيخ إسحاق من عمله ليقضي ساعة في البيت ويأكل معنا ما طبخته راحيل في غيابه: الوجبة ذاتها كل يوم)، يتأخر الشيخ إسحاق.

راحيل تقترح أن نأكل قبله، فالسمك استوى.

أقول:

ـ لست جائعاً جداً. لننتظره.

تخبرني عندئذٍ هامسة إنه أخبرها أنه قد يتأخر، فاليوم عندهم اجتماعات.

أعلم أن الشيخ يعمل في «معمل الشمع» (حتى الشمع يطبخونه من بقايا السمك بعد مزج البقايا بمواد أخرى؛ سوف أصف هذا المعمل بعد قليل). أحاول أن أتخيل المقصود بكلمة «اجتماعات».

كالعادة تضع راحيل لوح خشب على فراشي. هذه المرة ـ على غير عادة ـ لن يساعدني مضيفي على تقطيع السمكة المسلوقة في الصحن الحجر.

هذه المرة تساعدني راحيل. واللوح في حضني.

حين نتلامس بالأيادي صدفة لا يسري بين جسمينا تيار كهرباء كما توقعت. تقول لي شيئاً لا يدلّ على إحساسها بلمستي. أنا، في المقابل، أحسّ بالبرد. كأنني لم ألمس للتو امرأة تشبه الملاك (لا أقول إنها كانت ملاكاً. كانت رائحتها في أنفي. وأوشكت أن أغمر جسمها وأقبلها في رقبتها. ما منعني عن ذلك كان برد بشرتها). كأنني ألمس لوح جليد. أو كأنني ألمس دلفيناً. كأن دماً بارداً ـ لا فاتراً ـ يجري في عروقها، في الأعضاء، وفي الشعر والأظافر أيضاً. خُفت.

كنت أتوقع تيار كهرباء بيننا لأنني طالما لاحظت كيف تنظر إليّ. ولأنني ـ أنا أيضاً ـ طالما راقبتها في الليالي ـ وموسيقى الناي الحزينة تملأ كياني شجناً ـ طالما راقبتها تحت الرفّ الحجر تخيط كنزةً أو كفوفاً أو شالاً (حتى أنها خاطت جورباً لي، ففي الشتاء يصير الجو قارصاً هنا، والبرد يعض الأقدام عضّاً)، أو تلقي رأسها على الجدار وتنعس ناظرة إلى نقطة ثابتة في الفضاء، هناك، في

الزاوية الأخرى حيث ناووس حجر متوسط الحجم تعلوه جرّة فخار نُقش على بطنها رسم امرأة بطبشور أبيض (أعلم بعد ذلك أن هذا الرسم خطّته أمّها هاجر زوجة الشيخ إسحاق التي ماتت «قبل ثلاثة مواسم جفاف»، ماتت اختناقاً وهي نائمة). قبل ذلك التلامس طالما اعتدت أن أتأمل راحيل في الصباح وهي تطحن السمك الأبيض المجفّف على المطحنة اليدوية (أعرف هذه المطاحن. جدتي ـ أم أبي ـ كان عندها مطحنة كهذه، من نحاس أيضاً، لكنها أصغر حجماً. كانت تطحن عليها حبوب البنّ المحمصة. لم أرَ في حياتي أبداً مطحنة لطحن السمك المجفف. يجفّفون السمك حتى يصير كالجلود ثم يطحنونه كالطحين، مثل طحين القمح، لكن أسمر قليلاً، وليس ناعماً، بل خشناً مبرغلاً. ثم يبلّونه بماء ومادة أخرى ـ أدرك لاحقاً أنها خميرة ـ ويعجنون كل هذا ثم يخبزونه في الفرن فيصير خبزاً. ليس طيباً كخبزنا. لكنك تألفه. بمرور الشهور تألفه. وتألفه لأنك من دونه تبقى جائعاً).

بعد ذلك التلامس، ذلك الجليد الذي غطى باطن يدي، توقفت عن تخيلها عارية في سريري.

وفي تلك الفترة جاءت ياسمينة تزورني.

*

كانت راحيل قد أخبرتني عنها قبل ذلك. قالت إنها جاءت لزيارتي حين كنتُ غائباً عن الوعي. وقالت إن المرأة مسكينة.

لم تكن بنتاً صغيرة إذاً.

قالت إن ياسمينة مات زوجها قبل وقتٍ قصير. وقالت إن المسكينة لم تعد كما كانت. سكتت لحظة ثم قالت إن شيئاً حدث لها في مخّها: صارت تبكي وتنوح وتركض في الشوارع كل الليل

وصوتها يعلو ويعلو، وأكثر من مرة قبضوا عليها وهي تحاول قلع منافذ التهوئة، والخروج في الأنفاق الطويلة، الخروج إلى «برّا».

كانوا يمسكون بها ويردّونها إلى بيت أهلها. لكنها لا تلبث أن تفرّ من جديد.

كلّفوا الأولاد بمراقبتها.

لكنها أسرع من الأولاد.

منذ أصابها هذا الخبل صارت سريعة. كالأفعى سريعة. وكالأفعى ساكنة، لا تسمع لها حسّاً. في لحظة تختفي عن نظرك. ثم تظهر هناك، بعيدة. فرّت من الأولاد أكثر من مرة. وعثرت على مخرج: نفق التهوئة فوق «بيت الخُضر»، هناك حيث عثروا عليّ.

*

قبل أن تأتي لزيارتي أخبرتني راحيل أن ياسمينة ليست في الأصل من هذا الحيّ (حيّ شيخ محمد) ولكنها من حيّ بعيد، عند البوابة الجنوبية.

ـ البوابة الجنوبية؟

شرحت راحيل لي كيف أن بيروت (مدينتهم التي تحت الأرض) لها خمسة أبواب.

كنت في تلك الفترة بدأت أستعيد القدرة على تحريك ذراعيّ. رفعت يدي أمام وجهي، لا شعورياً. كان هذا أسلوب جسمي الجديد في التعبير عن دهشته: أبواب؟ لهذه المدينة تحت الأرض؟ هذه المدينة التي لم أرَها بعد! مع أنني أذكر، أنهم بينما ينقلونني من تلك الغرفة البيضاء المشعشعة بالنيون والمختنقة برائحة الأطياب والخضرة العجيبة، أذكر ـ وأنا أفقد الوعي وأسقط في الغيبوبة التي دامت حتى انتهاء موسم الأمطار ـ أذكر ممرات عالية السقف،

وأخرى واطئة السقف، أذكر مشاعل وشموعاً معلقة على حيطان تزينها نقوش (رسوم غزلان وأرانب وطيور ونمور ونسور وأبقار وأغنام وثعالب)، أذكر بيوتاً تطلّ منها الرؤوس، تطلّ من مداخل واطئة، بعتبات حجر وطين، أذكر الهمسات تدخل أذنيّ، الكلمة ذاتها تتكرر «برّاني»، «برّاني»، واسم ياسمينة أيضاً، وأسمع صوتاً يقول «كل الحق على ياسمينة»، وآخر يردّ «هذه المرأة مصيبة»، وثالثاً يكمل: «ستحل علينا مصيبة بسببها»، وأذكر اهتزاز النقّالة، وجسمي يوجعني، وأظافري توجعني، والسائل الساخن يسيل في فمي، ولا أقدر أن أبلع ريقي. . . أذكر قناطر تُزينها تماثيل ذابت ملامح وجوهها. أذكر ساحة مربعة تعبر ضباباً أحمر يغطي العينين، ساحة مربعة تتوزعها مقاعد من قرميد أحمر، وبين صفوف المقاعد تجري مياه، ومن المياه يرتفع بخارٌ خفيفٌ (ما هذا؟ حمامات رومانية؟). أذكر الوجه الذي يشبه وجه أبي، وأحد الأولاد الثلاثة يضع أصابعه على كتفي، تماماً حيث يوجعني. أريد أن أبعد يده، لكنني لا أستطيع. أتلاشى.

كيف ترجع هذه الذكريات الآن؟

ـ خمسة أبواب؟ وماذا وراء الأبواب؟

تقول راحيل بصوتها الهامس:

ـ لا شيء.

ـ كيف تكون أبواباً إذاً؟

تتوقف عن رتق البنطلون الذي ترتقه. تُرخي يديها لحظة، فأسمع تنهيدة تخرج من الأعماق. تقول:

ـ المدينة بلا حيطان لا تبقى. أجدادنا بنوا هذه الحيطان. نصف بيوت المدينة قديم قديم، لم يتبدل منذ مئة موسم مطر، أكثر

من مئة. وفي هذه الحيطان ـ أعني الحيطان حول بيروت ـ أبواب. خمسة أبواب عددها. وتظل مقفلة دائماً. هكذا كانت الأحوال منذ زمن بعيد. وهكذا هي الآن. ولكل باب حرّاسه. زوج ياسمينة، إيليا الصيّاد، كان واحداً من هؤلاء. والآن يريد صاحبه عباس، عباس الصيّاد، يريد أن يأخذ ياسمينة إلى بيته، أن تصير زوجته. لكن ياسمينة لا ترضى.

ـ لماذا يحرسون الأبواب؟ لماذا تسمّونهم الصيّادين؟

تنظر راحيل بعيداً. تضايقها أسئلتي. نور الشمعة يخفق على الجدار. أعرف أن الشيخ إسحاق سيرجع بعد قليل. تعلمت أن أقيس الوقت بمراقبة سيلان الشمعة القاتمة اللون (الشمع تحت ليس أبيض. لونه رمادي ضارب إلى خضرة، كأنه يتعفن).

لكنني لا أسكت. منذ فتحت عينيّ وأنا ممدد في هذا السرير، لا أقدر حتى على القيام لقضاء حاجتي. أقضي حاجتي في إناء من الفخار، وأتحمل الذلّ. في المرات الأولى كانت الدموع تترقرق في عينيّ بينما مضيفي يحمل إناء القاذورات مبتعداً.

لا أسكت الآن. ما دامت راحيل قد تكلمت أخيراً، فهي تقدر أن تخبرني أكثر. أبوها دائماً يعرف كيف يتهرب من الإجابة على أسئلتي.

سألتها:

ـ ماذا يصيدون؟ هل يصيدون سمكاً؟ لا تأكلون إلاّ السمك؟ من أين يصيدونه؟

تضحك عفوياً. القماش الذي يلف شعرها يفقد شكله المشدود الأنيق بحركة رأسها، وأرى شعرها المربوط: أستغرب أنه ضارب إلى الحمرة. ليس أسود كالفحم كما تخيلته.

تضحك وتضع يداً على فمها وتُسكت ضحكتها. يتورد وجهها. استحت لأنها ضحكت بقوة هكذا. أبتسم وأسألها لماذا تضحك عليّ؟

تقول:

ـ لا أحد يصيد سمكاً. لم نعد نفعل ذلك منذ زمن بعيد. نُربي السمك في مزارع.

أحاول أن أتخيل «مزارع السمك»، فأتخيل بركة حجر مملوءة ماء، والسمك يسعى تحت دوائر المياه. (بعد ذلك سأرى أن المزارع ليست بركاً فسيحة بل هي أجران عميقة، بفتحات عالية تشبه فتحات الآبار، والسمك الذي يربى في أعماقها كلّه أعمى، لا يرى، لأن النور لا يبلغ هذه الأعماق السحيقة. وكلّما أرادوا سمكاً دلّوا دلواً في البئر بحبلٍ مجدول طويل ثم رفعوا الدلو فخرج طافحاً بالسمك: سمك أزرقَ سماوي اللون، طوله شبر تقريباً، رفيع الحسك، وعلى عينيه غشاء داكن، إذا مسحته باصبعك علق على الجلد كأنه صمغ. ويستخدمون هذه المادة صمغاً).

أسمعها تقول:

ـ حين تأتي ياسمينة حاول ألاّ تسألها كثيراً. لأنها سريعة الهيجان والخوف.

وتقوم راحيل لتحضر المائدة.

*

بعد الطعام يغادر الشيخ إسحاق مرة أخرى. وقبل أن أسمع معدتي تهضم ما أكلته تظهر ياسمينة. قبل أن أراها تدخل أنتبه إلى حركة راحيل: تترك مقعدها تحت رفّ الحجر وتنهض.

أكتشف من عناق المرأتين أنهما على صلة صداقة قديمة.

مرة تلو أخرى تدعو راحيل صاحبتها إلى التوجه نحو فراشي.

تبدو ياسمينة مترددة. كأنها غيّرت رأيها. كأنها لا تريد هذا. وأخشى ـ وأستغرب بعد ذلك هذا الخوف العميق الذي استولى عليّ ـ أخشى أن تستدير ياسمينة ذات الثوب الأصفر العاجي، أخشى أن تستدير وتختفي وراء الحائط الأبيض، تختفي في المتاهة المطمورة الحجر، فلا أراها بعد ذلك أبداً.

أخشى ذلك حتى الإختناق.

*

لكن ياسمينة بقيت. وحين قبلت الجلوس على المقعد الحجر جنب رأسي رأيت وجهها عن قريب: كيف حسبتُ ـ وأنا فوق، بين أعمدة سيتي بالاس المظلمة ـ كيف حسبتُ أنها صبي؟

*

لئلا أقع في المبالغة مرة أخرى (وأنت صرت تعلم الآن، أنني ـ مثلك ـ أهوى الدقّة) لن أقول إنني حين نظرت إليها تُطرق حياء في نور الشموع، ثم ترفع إلى وجهي عينيها المشروحتين برموشها السود العالية، لن أقول إنني فكرت عندئذٍ أنني أنظر إلى أجمل امرأة في العالم. أقصد العالم كلّه، العالم الذي فوق حيث عشت كل حياتي، وهذا العالم تحت حيث وجوه النساء تتقارب في فتنة جمالها.

اللون البنفسجي في البياض المحيط بالبؤبؤين البارقين كان معتكراً بحمرة خفيفة. أنبأتني تلك الحمرة، تلك الشرايين الدقيقة شبه الخفية، أنها كانت تبكي، أو أنها ـ منذ فقدت زوجها ـ باتت كثيرة البكاء. لكنها، مع ذلك، ابتسمت لي. طرفا فمها ارتفعا، والخدّان تدوّرا مثل تفاحتين. وأنا ـ النائم في هذا الفراش تحت

الأرض منذ شهور ـ ابتهج قلبي. كأنك أطلقت حمامة في الفضاء.

حين تبتسم امرأة حلوة الوجه يفرح كل إنسان ينظر بعينين. وإذا ابتسمت امرأة حلوة وهي حزينة تضاعف الفرح. مع كل حزنها تضحك من أجلك. تبتسم كي تُفرحك. فكيف لا تفرح مرتين؟

كانت تلف شعرها بقماشة رقيقة زرقاء، وتخيلت شعرها تحت القماش، وقلت لا بدَّ أن هذه القماشة المطرزة الحواف تُعتبر ثمينة في هذا المكان. قلت هذا في سرّي وأنا أنظر إلى يديها الناعمتين مجموعتين في حضنها، على الثوب العاجي الصفرة، ثم أرفع بصري ثانية إلى جبهتها لأرى طرف الفرق الظاهر تحت القماشة وأرى شعراً يلمع كأنه غُسِل للتو.

رائحة راحيل كانت ما زالت في الفضاء حول رأسي. رائحة حيوان مفعم عاطفة (كم بدا هذا غريباً مع برودة بشرتها). لكن حين جلست ياسمينة على المقعد الحجر عند رأسي تضوّعت في الهواء رائحة أخرى: ليس رائحة طيب أو عطر من عطور عالمنا، ولكن رائحة أخرى مختلفة. سألت نفسي من أي مواد يصنعون عطورهم في هذا المكان؟ دوختني الرائحة الطيبة. ولم أكن أعلم حتى تلك الساعة أن هذه رائحة جسمها.

ما حدث عندئذٍ كان غريباً جداً: فجأة اختفت راحيل من البيت. لا أعني أنها لم تعد ظاهرة أمام بصري بسبب النور الخارج من ياسمينة الناظرة إلى وجهي، كلا، لا أقصد ذلك. لستُ شاعراً. أقرأ روايات، لكنني حارس ليلي، ليس أكثر. أقول إن راحيل اختفت فجأة من المكان، لأنها ـ من دون أن تستأذن أو تقول شيئاً لنا ـ انسلت من حيث كانت تقف (وقبة رأسها تكاد تلامس الساعة المعلقة على الحائط)، انزلقت كراقصات الباليه على الأرض الحجر التي صقلتها الأقدام والأيام، وغادرت المنزل. هكذا بقينا وحدنا.

كانت تلك المرة الأولى. أو هكذا كنت أعتقد حتى تلك اللحظة.

لكنها ـ وحدها ـ تكلمت:

ـ تغيرت يا بطرس.

صدمتني كلماتها. صدمني أن تكلمني بهذا الصوت الحميمي الهامس الحار. صدمني استعمالها اسمي. وصدمني قولها أنني تغيرت. ماذا تقصد أنني تغيرت؟ متى كنت أعرفها وتعرفني؟ أنا لم أرَها قبل الآن!

تابعت وهي تكمش يديها على ثوبها، وساقاها تتلاصقان، وظهرها يستقيم أكثر على المقعد:

ـ لا تخف هكذا. كلماتي تسبق فكري. إيليا قتلني حين قُتِل. لم أعدْ نفسي. لا تخف. أقول إنك تغيرت لأنني راقبتك أكثر من ليلة وليلتين وأنت فوق، «برّا».

مفاجأة تتبعها مفاجأة. كيف عرفت في ماذا أفكر؟ هل ظهر ذعري (هل بانت صدمتي) على وجهي؟ ثم كيف قُتِل زوجها؟ راحيل قالت إنه مات. لم تقل لي أنه قُتِل؟ والسؤال الأهم: كانت تراقبني وأنا أحرس «سيتي بالاس» ليلاً؟ لماذا كانت تطلع من عالمها وتراقبني؟ أين أنا؟ في أراضي الجنّ؟

انتبهت أنها متضايقة في جلوسها لأن المقعد بلا ظهر: لا تقدر أن تسند ظهرها. ثم فكرت أنها لا بدَّ تتعب تعباً مضاعفاً مع سكوتي. لكن ماذا أقول؟ كنت أحدّق إلى ثوبها، أحدّق أمامي مباشرة، ورأسي مائل على المخدة العالية، مائل صوبها، ولم أكن منتبهاً أن نظراتي مسدّدة إلى نحرها، إلى صدرها العارم المشدود داخل ثوبها العاجي. لم أنتبه إلاّ حين رفعتْ يداً وفتحتْ أصابعها وهي تلمس رقبتها: كانت تخفي عُريها. أبعدتُ نظري مسرعاً.

قالت بصوتٍ ثابتٍ حزينٍ:

ـ لم آتِ لأضايقك.

وتحركتْ تريد النهوض.

يدي قفزت إليها؛ أمسكتُها من ذراعها. قلت:

ـ لا تذهبي.

شدّدت ذراعها الملساء الحارة:

ـ اقعدي هنا. الحجر لا يُريح.

من دون أن تتخلى عن ابتسامتها الحزينة، أو عن رغبتها في المغادرة، جلستْ على حافة فراشي. عرفتُ أن سكوتي (أكان السبب سكوتي فقط؟) سيؤدي إلى رحيلها. مرة أخرى رجع الخوف إليّ. لكنني في هذه المرة أخذت من خوفي شجاعة.

بصوتٍ غير مرتفع سألتها:

ـ لماذا كنتِ تراقبينني؟ كم مرة فعلتِ ذلك؟

كانت أصابعي ما زالت تقبض زندها. حرّرت ذراعها مني، ووقفت. قالت من مكانها العالي:

ـ تغيرت كثيراً.

ثم، برمشة عين، اختفت وراء الحائط.

*

تركتني وراحت. راحت وتركتني في ألف حيرة وحيرة: لماذا جاءت ولماذا ذهبت؟ لماذا قالت إنني تغيرت؟ لماذا كانت تراقبني؟ من أكون بالنسبة إليها؟ هل تعرفني؟ لكنني لم أرَ وجهها أبداً قبل هذه الساعة! ثم ماذا تقصد أنني تغيرت؟ هل تعني أن مظهري تغير؟ بالتأكيد تغيرت: فقدت ربع وزني، فكيف لا يتبدل شكلي! لكنها لم تتكلم، لم تكن تتكلم عن مظهري! كلا، من نبرة الصوت أعرف.

كانت تقول إنني من الداخل تغيرت. أن شخصيتي كلّها تبدلت. لكنها حين دخلت، أول دخولها وجلوسها ها هنا (ما زالت رائحتها تغمرني)، أول قعودها، نظرت إليّ نظرة لا تقول إنها تراني متغيراً. أليس كذلك؟ ماذا جرى إذاً حتى تغيرت؟ أي كلمات نطقتُ بها فبدَّلت رأيها فيّ؟ لكنني لم أقلْ إلاّ القليل؟ هل تكون هذه خطيئتي؟ أنني لم أتكلم؟ أنني ـ كالحجر ـ بقيت ساكتاً وهي تطلبني، أو على الأقل تطلب صوتي، أن أردّ عليها؟ لكن من أنا لتهتم بي؟ ولماذا أحسبُ أنها تهتم بي؟ ألم تقل راحيل إن المسكينة لم تعدْ سليمة في رأسها منذ مات زوجها؟

هل مات أم قتلوه؟ وكيف أعرف؟ لو كنت قادراً على القيام ما تركتها تذهب هكذا. لكن وركي لم يجبر بعد، لا ولا عظمة فخذي. لا أجرؤ على الحركة، وأنا وحدي في هذا الكهف الحجر، والشموع أوشكت أن تنطفئ، ولا أحد يأتي. كلّهم هناك وراء الحائط الأبيض، ينصرفون إلى أعمالهم وحياتهم، ضائعين في متاهة مدينتهم الأرضية التي أنتظر بفارغ الصبر أن أقوم من هذا الفراش لأتجول فيها.

*

وسوف يأتي يومٌ وأُشفى. وسوف يأتي يومٌ وأمشي في شوارع «مدينة الأرض» وأدخل بيوتها وساحاتها. المدينة التي يسمّونها «بيروت»، كما نسمّي ـ نحن أيضاً ـ مدينتنا «بيروت».

وحتى قبل أن أُشفى وأتمكن من السير وحدي بلا معونة (ولكن مع عصا)، حتى قبل ذلك، سأخرج من ذلك البيت الذي عرف حيرتي وخوفي واضطرابي وفزعي وقنوطي كما عرف فرحي بالبقاء على قيد الحياة، وبالتمدد على الفراش مع تلك المرأة الجميلة.

حتى قبل الشفاء سأخرج من ذلك البيت، على مقعد حجر بعجلات حجر أسطوانية طويلة، جلبوه لي من قصر المدينة، الذي يسمّونه «قصر بيروت». ويسمّونه «القصر الرئاسي» أيضاً.

*

لكن قبل ذلك كان عليّ أن أغرق في حيرتي أعمق فأعمق. أرقت الليالي الطويلة أكرر في رأسي الحوار الذي دار بيني وبين ياسمينة، أقلب الأسئلة والأجوبة، وأتذكر النظرات والايماءات ونبرة الصوت المتبدلة، وأحاول أن أفهم ماذا حدث بالضبط ولماذا تركتني وذهبت. حاولت الإفادة من راحيل، سألتها عن أخبار صاحبتها، هل قالت شيئاً، لكن راحيل اختارت الصمت. وصمت راحيل تحول إلى سوسة أخرى تنخر رأسي. لماذا سكتت؟ أهي أيضاً غاضبة؟ لكنها تعتني بي كعادتها! ولكن كيف أجزم أصلاً أن ياسمينة ذهبت لأنها غضبت؟ وماذا فعلت لها كي تغضب؟ ومن أنا، ما قيمتي، أصلاً؟

*

الأرق في الليالي الثقيلة الساكنة جعلني أسمع للمرة الأولى أصواتاً من أعلى: أصوات مدينتي! أصوات عالمي! العالم الذي اشتقت إليه! كيف نسيت كل تلك الشوارع والساحات والدكاكين، كيف نسيت الشمس والسماء والأشجار والغيوم والحشيش في دقائق الاضطراب والحيرة هذه، بينما أفكر في زعل ياسمينة؟ إن هذا أمر عجيب. أمر لا يُصدق. كيف نسيت!

لكنني حقاً لم أنسَ. ولا للحظة واحدة نسيت. شغلتني صحتي، وشغلتني تلك الوجوه والنظرات، بلى، لكنني ما نسيت. كيف ينسى الواحد بيته وبلده؟ الواحد لا ينسى أبداً.

كنتُ تحت بلدي. وكان شوقي إليها شوقاً يستحيل التعبير عنه بالكلام. الحنين ـ مثل الحبّ ـ لا تقوله الألفاظ. في تلك الليلة الأولى، حين تناهت إليّ الأصوات عبر طبقات التراب والصخر لم أصدق أذنيّ. لم أصدق ما أسمعه. فكرت أنني أتوهم، أو أنها أصوات من بيتٍ مجاور. مع أن الأصوات هنا، في هذا المكان، لا ترتفع أبداً. لم أسمع مرة صوتاً في الليل. أحياناً في النهار، ومضيفي إسحاق في العمل، أسمع أصواتاً تعبر الشارع وراء حائط البيت، حيث المدخل. أسمع الأصوات العابرة، وأسمع ضجة خافتة هي ضجة الطريق. لكن الأصوات تبقى هامسة. هذا في وقت النهار. أما في الليل فالصمت شامل دائماً: كأنك في مقبرة. لم أسمع مرة ضجة في الليل. ذات مرة سمعت أصواتاً كسقسقة طيور ـ أو خرير الماء ـ وأنا نائم. لكنني حين فتحت عينيّ أدركت أن الوقت نهار وأنني غفوت القيلولة بعد الغذاء: كانت الصحون الفارغة ما زالت على المائدة. أما تلك الأصوات ـ تلك السقسقة ـ فكانت أصوات الجارات يتحدثن مع راحيل في مدخل البيت، على عتبة الطريق.

تلك اليلة سمعت أصوات بيروت، مدينتنا. بيروت، فوق. بيروت الفوقا. سمعت غناء وموسيقى (لم تكن موسيقى أجنبية. كانت موسيقى عربية. لم أتأكد ماذا كانت الأغنية. لكنها كانت أغنية حديثة. ليست طرباً قديماً، ليست أم كلثوم التي أحبّها. لا أم كلثوم ولا عبد الوهاب ولا أي من هؤلاء. أغنية من الأغاني الجديدة الشائعة التي يبزغ نجمها شهرين فتضج بها المدينة كلّها ثم لا نسمعها بعد ذلك. أغنية من الأغاني التي أمقتها، بالكلمات التي لا تعني شيئاً ـ أو تعني شيئاً مكروراً إلى ما لا نهاية، فبات من تكراره لا يدل إلى معناه، بل إلى الكلمات ذاتها، كلمات بلا

معنى، بلا روح، جوفاء وبلا قيمة. كانت أغنية حديثة، بالموسيقى التي لا تشبه موسيقى، خلطة آلات وأصوات لا أعرف ماذا تكون، وفي العادة أمقتها، لكنني عندئذٍ ـ وأنا تحت الأرض الثقيلة الصامتة المظلمة ـ فكرت أنها أحلى صوت أسمعه في حياتي.)

حاولت أن أتكهن أين أنا بالضبط؟ قالوا لي أنّنا تحت الجامع العمري. الشيخ إسحاق أخبرني. نقل هذا عن صاحبه الفلكي سلمان (كل يوم أنتظر زيارته. منذ أيام وهو يقول للشيخ إسحاق، إذا صادفه على الطريق، أنه يريد المجيء والقعود معي والكلام طويلاً. لكنه لم يأتِ بعد. وراحيل تقول إنه بالتأكيد سيأتي لكن بيته بعيد وهو صار عجوزاً. بيته قريب من «معمل الشمع» ولهذا يلتقي أباها دائماً، لكنه بعيد من هذا المكان. ليس بعيداً بالنسبة إلى أبيها الذي يسلك دروباً مختصرة وعرة لا يستطيع العجوز سلوكها. لكنه بعيد بالنسبة إلى الفلكي سلمان. ثم أنه سيُنهكني بالأسئلة حين يزورني. والأفضل لي ـ بحسب راحيل ـ أن أتعافى قبل ذلك وأسترد قواي فعلاً. فأنا ما زلت بالغ النحول وعظامي ناتئة من وجهي. في الغيبوبة استهلك جسمي كل ما عليّ من شحم، حتى أنه أحرق نسيج العضلات أيضاً، ليستمد الطاقة المطلوبة للبقاء حيّاً. الجسم وحده يفعل هذا. أليس الجسم البشري عجيباً؟ قالت: «الأفضل أن تتأخر زيارته فهو حين يبدأ بالكلام عن العالم البرّاني لا يسكت». قالت الأفضل لي أن أسترد بعض صحتي أولاً. لم أقلْ شيئاً. ماذا أقول لها؟ هذا الطعام القليل الذي أتناوله لا يكفي أرنباً، لا يكفي قطاً؟ طاسة الحساء وقطعة السمك المسلوق وكسرة خبز السمك الجافة، هل تكفيني طعاماً؟ إني خارج من مرض، وبحاجة إلى غذاء، لكن الطعام هنا قليل جداً. ومن دون طعام كيف أسترد صحتي؟ كيف تجبر عظامي المكسرة؟ وكيف تتغطى بالعضل

والشحم من جديد؟ لا أقول لها شيئاً من ذلك. أول أيام استيقاظي من الغيبوبة أوشكتُ على البكاء وأنا أطلب منهم أن ينقلوني إلى فوق، أن يردّوني إلى بيتي. قلت لهم إنني سأدفع لهم مالاً كثيراً، فقط احملوني إلى فوق. تشاوروا (مضيفي الشيخ إسحاق ومعه رجال كثر) تشاوروا وقالوا هذا غير ممكن. قالوا غير ممكن أن نحملك وعظامك محطمة هكذا، لن تبقى على قيد الحياة! واقترب واحد منهم (سأعرف بعد ذلك أنه يُدعى يوسف وأنه كبير العشّابين هنا) اقترب طبيبهم هذا الذي اسمه يوسف وأمسك بساقي وجذبها جذبة خفيفة. زعقتُ ألماً. فارت الدموع من عينيّ ونزلت مالحة ـ شديدة الملوحة ـ في فمي. من السقف تساقطت أتربة على فراشي الأبيض. كل الكهف ارتج من قوّة صوتي. غامت الرؤية أمام عينيّ. ومع كل تلك الغيوم رأيت وجوههم وقد انسحب الدم منها. صراخي ملأ قلوبهم ذعراً. حين تلاشى الصدى تكلم الطبيب يوسف (ليس طبيباً حقاً. بعضهم يسمّيه «الطبيب». لكن معظمهم يسمّونه «العشّاب». وهناك رجال غيره يحملون لقب الطبيب حقاً. وبين هؤلاء واحد اسمه نقولا يسمّونه «الحاج الطبيب نقولا»، و «الطبيب الحاج نقولا»، وهو الرجل الذي ردّ وركي المخلوع إلى مكانه). تكلم الطبيب يوسف، حين سكنت لا أحرك ألماً:

ـ هذه حركة صغيرة. فكيف إذا حملناك؟

بعد ذلك لم أعد أطلب حملي ونقلي. قررتُ أن أنتظر حتى أُشفى.

لكنني في تلك الليلة، بينما أسمع أصوات المدينة في الأعلى، أردت أن أصرخ بأقوى صوتي، أن أوقظ تلك البيوت الحجر المطمورة كلّها، ليأتوا ويحملوني إلى بيتي.

*

لم أصرخ. أردت أن أصرخ. وحبست صراخي. ماذا ينفعني الصراخ؟ الذين هنا لن يحملوني إلى أعلى. والذين فوق لن يسمعوا صوتي. بيني وبينهم أمتار تراب وحجارة. ورؤوسهم ملفوفة لفّاً بصخب الموسيقى والحوارات وأصوات السيارات وضجيج المطاعم. لن يسمعوا صوتي. أنا الآن خارج حياتهم، خارج عالمهم. أنا الآن تحت. أعيش كما يعيش الموتى، في هذه القبور الحجر التي يسمّونها هنا بيوتاً. أنا الآن «برّاني».

لم أصرخ. ولأدفع عن صدري الهمّ، أخذتُ أحاول تحديد مكاني. هل أنا حقاً تحت الجامع؟ لكن الجامع يكون خالياً من المصلين في هذا الوقت، ولا ضجة فيه. ثم أن الجامع دائماً لا ضجة فيه. وبالتأكيد ليست فيه أغنيات حديثة. على الأرجح صاحب الخرائط أخطأ الظن قليلاً. على الأرجح أنا تحت الشارع الذي يحاذي الجامع العمري: شارع من تلك الشوارع. ليس الشارع الضيق خلفه، ولكن «شارع الجامع» ذاته، المنحدر من ساحة مجلس النواب. (لو أستطيع أن أنظر الآن إلى ساعة المجلس، الساعة المرتفعة على برج «ساعة العبد»، توجّ في الظلمة، بيضاء كأنها القمر، وعلى وجه القمر يتحرك عقربا الساعة. عقربان يتحركان، بلى، ولا يتوقفان إلاّ في أحيان قليلة). لعلني تحت شارع الجامع العمري، والناس يخرجون من المطاعم ويدخلون: المطعم الطلياني البارلمانتو حيث طالما رأيت المحررين في «الحياة» قاعدين يأكلون المعكرونة بالبندورة ويشربون النبيذ الأحمر ـ يا ربّ! متى آكل طعاماً يؤكل مرة أخرى! متى آكل أكلاً ليس سمكاً! على تلك الجهة مطاعم، وعلى هذه الجهة مطاعم: هنا، جنب الجامع، مطاعم أميركانية تبيع كرواسون ودونات وأصناف أنيقة من الخبز المحلى مزينة بالسكر والكريما أو بالشوكولا، في

عجينتها زبيب ومكسرات، بندق ولوز وجوز وفستق، يا ربّ! أو لعلني في الجهة الأخرى، تحت الشارع الآخر حيث المطعم البلدي اللبناني، طالما رأيت الناس فيه يأكلون فتوشاً (ببندورة عمانية حامضة وخبز قمح قُلي في الزيت) ومتبلات وكبّة حَرَّة وبطاطا مقلية وفطائر جبنة تبرق بالزبدة والزيت برقاً. يا ربّ! وقبالته مطعم السلمون الفخم الذي يدفع الواحد منا مرتبه كاملاً من دون أن يشبع فيه: أرى داخله ـ وراء الزجاج النظيف اللامع ـ كنبات المخمل الحمراء والطاولات المحفورة يتوزعها وزراء ونواب ومطربون وراقصات وبشر كثيراً ما نرى وجوههم على شاشة التلفزيون. يأكلون من صحون واسعة. كؤوس الشراب بلورية ممشوقة يرفعونها على مهل إلى الشفاه، والمناديل مطوية على شكل حمائم بين الأطباق الملونة الكثيرة... كنتُ حين أسمع نزار (أخي الكبير) يتكلم عن تلك المطاعم، أزعل منه، وأقول إنها لا تصنع صنفاً واحداً من الطعام أطيب من الطعام الذي نعمله في بيتنا. وكان يضحك مني ويقول إنني جاهل، كل هذه الكتب التي أحرق عينيّ وأنا أقرأها، وما زلت جاهلاً. كنتُ أزعل منه حين يتكلم عن تلك الأطباق، والطعام فيها، والندل يحملونها على الصواني عابرين كالرقاصين بين الموائد؛ كنتُ أزعل منه، وها أنا أعمل مثله: فمي امتلأ لعاباً وأنا أفكر في تلك المطاعم، مزدحمةً فوق رأسي، لا تدري بي.

لكنني قد لا أكون تحت ذلك الشارع. ربما كنت تحت «شارع ويغان» تماماً. أو تحت «شارع عبد الملك». أو تحت «شارع اللنبي». كل هذه الشوارع تعجّ بالمطاعم. وفي الليل تُخرج المقاهي الكراسي إلى الطريق، تتمدد عن الأرصفة المقاهي، وتسيطر على الطرقات. يرفعون الظلات والمصابيح وأفخاخ البعوض، وتدور

المراوح. ما زلنا في موسم الجفاف. هنا لا أشعر بالحرّ. الكهف يُرسل برودة حتى صيفاً. لكن فوق الطقس لاهب الآن. والإسفلت ينفث كل الحرارة التي تشبَّع بها ليلاً. الحرارة لا تبلغ هذه القبور. تحت الإسفلت طبقات تراب عازل وصخر، وتحت كل هذا بيتي. أهذا بيتي حقاً؟ كيف أقول هذا؟

ودّدت أن أصرخ في ذلك الليل، بينما صوت الموسيقى يخفت (تلك الموسيقى التي أمقتها صارت الآن أملي). ودّدت أن تنشق الأرض، أن ينشق السقف، فأرى ـ مرةً واحدة بعد ـ السماء التي أحبّها.

❊

ـ السماء؟ أنا رأيت السماء. أنا وُلدت هنا. لم أنزل من فوق. ولدت هنا. لكنني أعرف السماء التي تتكلم عنها. حاولْ أن تحفظ هذه الأحاديث بيننا. هناك ناس يغضبون إذا عرفوا بعض الأشياء التي أستطيع أن أخبرك عنها. السماء مثلاً، بلى، أعرف السماء. رأيتها أكثر من مرة. لكنني لم أرَها إلاّ ليلاً. وذات ليلة كانت زاخرة بالنجوم. حاولت أن أُحصي كل تلك النجوم البيض، مثل الثقوب في القماشة القاتمة، لكنني لم أقدر. أعرف السماء. وعندي خرائط فلكية. أعرف المجرة والدبّ الأكبر ونجمة الصباح والمساء التي هي فينوس كوكب الزهرة. لكن الناس هنا، وأهلي أيضاً، لا يعلمون أنني رأيت السماء ليالي طويلة. هناك عدد صغير جداً من «الصيّادين»، من الحراس، يعرف هذا. لم أقدم على هذه العملية إلاّ بعد تفكير طويل. والصيّاد إيليا الذي غادر عالمنا كان واحداً من هؤلاء. أريدك أن تُقسم أمامي بعينيك هاتين وبراحة بالك أنك لن تنقل الكلام الذي يدور بيننا إلى أحد. إذا عرف الصيّادون بهذا، إذا

عرفوا. . . لا، لا نريد التفكير في ما سيحدث إذا عرفوا. أنا أثق فيك. سمعت عنك أموراً. ولهذا أحسّ أنني أعرفك. الذين يزورونك ويتكلمون معك يأتون إليّ أنا أيضاً، مع أن بيتي بعيد، هناك، وراء «المعامل»، داخل البوابة الشمالية، «بوابة البحر». يزورونك ثم يزورونني. لهذا تراني تأخرت قبل أن أجيء إليك. لقد كنت أراك طوال الوقت. أراك بعيونهم. أنا أصلاً لا أرى جيداً. مع أنني رأيت نجوم السماء التي لم يرَها إلاّ قلة هنا؛ مع ذلك لا أستطيع أن أرى جيداً. ليس العمر فقط. ليست الأعوام فقط. لا، ولا المياه الزرقاء التي نزلت في عيني هذه، ثم في عيني هذه. ليس هذا فقط ما أعماني. لست ضريراً تماماً. ما زلت أرى. والناس لا يعرفون حتى أن بصري ضعيف. أعرج قليلاً على ساقي، مع أن ساقي سليمة. أعرج لأحمل هذه العصا من دون أن أثير فيهم الشكوك. لا أحد يعلم أنني أفقد بصري. حين أفقد بصري تماماً يصير عندهم ما يضحكون عليه. يصير اسمي «الفلكي الضرير». ما زلت أرى. لكن ليس كما يرون. لكنني أنا ـ في المقابل ـ أرى بقلبي. أعرف ما لا يعرفون. لا تحسب أنني لا أحبّهم. لا أكره أحداً في هذا العالم. ربما كنت أكره إنساناً أو اثنين. لكن ليس أكثر. والواحد مرات يكره نفسه كما تعلم. هذا لا يعني أنني أكره نفسي. لكن أحياناً يحدث هذا الأمر. أنا أثق فيك وعساني لا أكره نفسي يوماً لأنني وضعت فيك هذه الثقة. وهناك غيري أيضاً، هناك مَنْ. . . لا، لا، لا، لا أريد الكلام عن تلك الأشياء. السماء قلت. بلى، أعرفها. أعرف عن العالم البرّاني أموراً لا تحصى. هل أخبروك عن ناس الوحل الذين يحيون وراء الأسوار؟ لا تصدق هذه الأساطير، أنت تعرف سذاجة العامة، لا تصدقهم. صدقني أنا. كيف يعرفون شيئاً عن «ناس الوحل» وهم لم يتسلقوا السور مرة

واحدة في حياتهم؟ ثم كيف يتسلقونه؟ ممنوع عليهم الذهاب إلى الحدود. لا أحد يذهب إلى الحدود، إلى البوابات، إلاّ الحراس. الحراس، وأنا. لكن أنا أيضاً لا أذهب إلى كل الأبواب. فقط إلى «بوابة البحر» كنت أذهب. والآن ـ من دون إيليا ـ لم أعد أذهب. كيف أقدر أن أذهب إلى هناك من دون إيليا؟ قلبي تعبان يا بطرس؛ تعبان قلبي يا بطرس الآن. مرات لا أنام الليل. أعجز عن النوم فأبقى ساهراً. وفي بيتي القريب من «بوابة البحر» التي لا تُفتح أبداً أسمع هدير الأمواج. لكنني لا أريد أن أحكي عن تلك الأشياء الآن. السماء، بلى أعرف السماء. هناك باب صغير في «باب البحر» إذا خرجت منه تصل إلى ممرٍ طويل منقور في الصخر مثل كل طرقات بيروت. تسلك هذا الممر وكلّما تشعب الممر أمامك تسلك الطريق إلى يسارك. متاهة ممرات يضيع فيها الإنسان ولا يرجع إلى بيته. لكن إذا بقيت تأخذ الطريق إلى يسارك، ثم الطريق إلى يسارك، تصل. عليك أن تحمل شمعتين، وتُشعل واحدة. حين توشك الأولى على الإنطفاء تشعل منها الأخرى الجديدة. قبل أن تنتهي هذه الشمعة الثانية تبلغ ممراً ضيقاً شديد الإنحدار: عليك أن تتشجع وتقعد على الأرض ثم تندفع في هذا الدهليز النازل إلى أسفل. قبل هذا الدهليز كانت متاهة الدهاليز تطلع إلى أعلى. والآن تنحدر. لا خوف عليك. الأرض ملساء وإذا بقيت منبطحاً على ظهرك لن تطرق المسلات رأسك ولن تتأذى. في نهاية سقوطك تجد نفسك في مكان قوي الرياح. هل تفهم ماذا أقول؟ رياح. رياح عارمة. ورائحة ملح. ورائحة بحر. وأمواج. وتسمع أصوات مدينتك، مدينتك أنت، العالم. هناك، في ذلك المكان، تحيا أعداد غفيرة من الوطاويط. عليك اطفاء الشمعة لئلا يصيبها الذعر وتهاجمك. بعد ذلك تقدم إلى أمام، اتبع الصوت ـ هدير

البحر ـ حتى ترى النور. في الليل أيضاً هناك نور. نور السماء. حتى إذا كانت السماء خالية من النجوم تماماً، حتى إذا كانت مغطاة ببطانيات من الغيوم الكثيفة، حتى عندئذٍ ترسل السماء نوراً. تابع التقدم خطوة خطوة، بلا صوت، لئلا توقظ الوطاويط. وها أنت على شط البحر، تواجهك صخرتان عملاقتان تخرجان من أعماق البحر، وتتطاير بينهما النوارس. أعرف النوارس. وأعرف هاتين الصخرتين. أنتم تسمّونها «صخور الروشة».

ـ لكن لماذا رجعت إلى هنا؟ لماذا ترجع إلى تحت الأرض بعد أن خرجت؟

ـ ليس عندي بيت فوق. بيتي هنا.

*

تقصَّد أن يأتي إليّ والمنزل فارغ. قال وهو يُلقي التحية:

ـ أهلاً بك في مدينتنا. أهلاً وسهلاً.

بعد حديثه الطويل أحسّست أن الوساوس قد ملأت جسمي. اقترَبَ الظُهر، والآن يظهر الشيخ إسحاق في الباب ويكفّ العجوز نصف الأعمى عن ثرثرته المتدفقة. هل يضايقني سكوته الآن؟ لا. العكس هو الصحيح. أريده أن يسكت. كلامه أتعبني. معها حق راحيل. لكن عليّ ـ على الأقل ـ أن آخذ منه بعض الأجوبة.

أسأله، لعلني أفهم ماذا يجري هنا:

ـ ماذا حدث لصاحبك الصيّاد إيليا؟ هل مات أم أنه قُتل كما تقول ياسمينة؟

فجأة يتبدّل وجه العجوز. كأن الغشاء انقشع عن العينين المريضتين. هل أيقنَ من نبرة صوتي مقدار القلق الذي بثَّته فيّ حكايته؟ لكنني ـ حتى تلك اللحظة ـ لم أكن أعلم أنه انتبه إلى

انزعاجي. حتى تلك اللحظة كان تضايقي منه فظيعاً. قبل أن يفتح فمه أطلقت أسئلتي كلّها:

ـ وماذا تعني حين تقول أن هناك ناساً سيغضبون إذا حدّثتني عن رحلتك إلى «صخور الروشة»؟ هل أنا في خطر هنا؟ هل أنت في خطر الآن؟ ومن هم الناس الذين تخشاهم؟ الذين يجب أن أخشاهم؟ وهؤلاء الصيّادون، هؤلاء الحراس، ماذا يصيدون؟ أنني لا أفهم شيئاً من عالمكم هذا؟

كنت أرتجف وأنا أتكلم. أرتجف بسبب اندفاعي في الحديث العصبي ـ وأنا ما زلت أتعافى من مرضي ـ وأرتجف لأنني كنت مضطراً إلى تنفيس كل تلك الحيرة ـ كل ذلك الذعر الذي يتحول حنقاً ـ كنت مضطراً إلى تنفيسه في أسئلة يصعب أن تُلفظ بصوتٍ هامسٍ. ومع ذلك لفظتها همساً!

ـ «لا، لا، لا تخف يا بني. لم أقصد أن أضايقك بكلامي. لا أنت في خطر، ولا أنا في خطر. لا أحد يهدد أحداً في مدينتنا. لا يُصيبك الذعر يا بطرس. الخوف الوحيد هنا هو من المرض، أو من وباء يضرب «مزارع السمك»، أو من زلزال ـ أو حفريات في الأعلى ـ تُسقط السقوف على رؤوسنا. هذا الخوف الوحيد هنا. والخوف من الظلمة طبعاً. والأطفال إذا خالفوا وصايا الأهل نثير خوفهم بالحديث عن «ناس الوحل». وكل تلك الخرافات. لا تخفْ مني يا بطرس. أنا عجوز. ومرات لا أنتقي كلماتي بعناية. ماذا سألتني أيضاً؟ سألتني عن إيليا: هل قُتِل أم مات؟ راحيل قالت لك إنه مات، وياسمينة قالت إنه قُتِل، صحيح؟ الاثنتان لم ترغبا في الكذب. هنا لا أحد يكذب. لا مصلحة لأحد في ذلك. كلّنا نحيا كعائلة. مع أن الساكن في هذا الحيّ قد لا يعرف الساكن في الحيّ المجاور. أو قد يعرفه بالاسم، يسمع عنه، لكن من دون أن يتبادلا

التحية ولو لمرة. لا عربات هنا. أعرف أنه فوق توجد عربات تنتقلون فيها. وقبل ذلك كان أسلافكم يركبون الحمير والبغال والأحصنة. لم أرَ هذه الحيوانات الكبيرة. لكنني رأيت صورها. عندنا قاعة مملوءة بتصاوير هذه المخلوقات. كنت أخبرك عن إيليا: إيليا لا مات ولا قُتل. أنا بفمي العجوز قلت لك ما جرى له. لكنك لم تنتبه. «إيليا غادر عالمنا». قال لي إنه سيذهب. وذهب. أراد زوجته أن تذهب معه. لكن ياسمينة خافت. راحيل قالت لك إنه مات لأن الناس هنا لا يريدون التفكير في «العالم البرّاني»: إذا تركنا أحدٌ ورحل نقول إنه مات. هكذا ننساه. ولا نخشى ساعة عودته. ولا نخشى أن يُخبر العالم عنّا. نقول مات ثم نصدق أنه مات. لأننا كل أعمارنا عشنا هنا، داخل هذا السور. الناس في بيروت ـ أقصد بيروت هذه ـ الناس هنا لا تقول «السور». تقول «الحيطان». أنا وحدي، وبعض الكبار في السنّ، نقول «السور». حين يغادر واحدٌ منّا الأسوار نقول: «أخذه ناس الوحل». وياسمينة لا تقدر أن تتخيل أن إيليا ـ الرجل الوحيد الذي عرفته ونامت في فراشه ـ لا تصدق أنه تركها. لا تقدر. لهذا تقول إنه قُتل. مع أنها تعلم أنه خرج من هنا إلى فوق، تماماً كما تعلم كيف خرج ومن أين خرج. كانت خطّته في البدء أن يخرج من الكهف البحري قبالة «صخور الروشة» ـ عندي اسمها على خريطة، عندي خريطة سأُريك إياها ـ لكنه بدّل الخطّة حين وجد مخرجاً أسهل. دلّني إلى المخرج الذي عثر عليه، ودلَّ ياسمينة. لكنها خافت أن تطلع معه. فطلع وحده».

قبل أن يخبرني عرفتُ من أين خرج.

ـ «خرج من حيث دخلت».

*

ـ لكن لماذا ظلّت زوجته تخرج وتراقبني؟ ألم تقل إنها خافت أن تخرج معه؟

ـ «لا أعلم يا ابني. قلب الإنسان لغز».

*

ـ سؤال واحد بعد؛ «الصيّادون» ماذا يصيدون؟

ـ «وماذا تحسب أنهم يصيدون؟ يقعدون عند البوابات كل الوقت. يصيدون الثعابين التي تدخل من شقوق السور أو تطلع من بطن الأرض. ومرات يعثرون على قنفذ أو غرير فيقتلونه ويشوون لحمه وتكون وليمة. قبل ذلك، على أيام الأجداد، كانوا يصيدون سلاحف مائية وتماسيح أيضاً. أو هكذا تروي جدّاتنا. وفي بعض الحقبات من تاريخ مدينتنا كان يُسمح لهم بالخروج من «باب البحر» إلى الكهوف تحت جدار الشاطئ الصخري، ليصيدوا سمكاً ووطاويط ويجمعوا بيض النوارس. لكن مع ازدياد الخطر ـ بازدياد السكان فوق، وظهور البيوت والمطاعم قريباً من الشط ـ أُقفل «باب البحر» نهائياً. ولم يعد الصيّادون يفتحونه».

سألني «الفلكي» أسئلة لا تُعد. بينما أجيبه على أسئلته، بينما أراه يضحك أو يحزن أو يشرد، أدركت أنه هو أيضاً ـ مثل ياسمينة ـ غريب الأطوار. لم يكن مريضاً. راحيل قالت إن ياسمينة مخبولة. ولو أنها سمعت كلام العجوز سلمان اليوم كانت قالت إنه هو أيضاً مخبول. راحيل تشبه زوجة أخي: كل إنسان لا يشبهها، كل إنسان لا يحكي مثلما تحكي ولا يتصرف كما يتصرف الناس عموماً، كل شخص مختلف قليلاً يبدو لها «أخوت»، ليس طبيعياً، «براغي عقله فالتة».

أراد الرجل الذي يفقد بصره رويداً رويداً في الظلمات تحت الأرض (مع أنه وُلد بعينين متسعتين فإن المياه الزرقاء غمرت حدقتيه) أراد الفلكي سلمان أن أصف له الأشجار والأنهار والسماء والغيوم. لكنه أكثر من كل هذا أراد أن أصف الشمس: قرص الشمس المنير الذهب الذي تخرج منه نيران مشتعلة. نيران تكاد أن تشعل الغيوم في السماء، نيران تكاد أن تحرق القرميد على سطوح البنايات العالية.

سألني عن الطائرات، هل أعرف الطائرات، هل أعرف هذه العربات العملاقة الجبارة ذات الأجنحة، كأنها الوطاويط

والنوارس، لكنها ضخمة جداً، وتطير في السماء، تطير فوق البحار ولا تسقط.

سألني عن البقر، وحليب البقر، واللبن، واللبنة، والجبن الذي يعملونه من حليب البقر.

سألني عن تغير الفصول، عن البراعم على أشجار الفاكهة. وأخبرني عن الرسوم على الحيطان في قاعة «القصر الرئاسي»، القاعة الرومانية القديمة، وقال إنه سيأخذني لأراها ما أن أقف على قدمي. (وسوف أذهب وأراها قبل شفائي الكامل، سأذهب على الكرسي، والأولاد يحيطون بي).

مرة تلو أخرى كان يرجع إلى حديث الأشجار التي تخضر وترتفع أعلى فأعلى تطلب نور الشمس. مرة تلو أخرى ـ في تلك الجلسة، ثم في جلساتنا التي ستتكرر، في بيت الشيخ إسحاق ثم في بيوت وأحياء أخرى ـ طلب مني أن أصف الأشجار، التي تشبه الشتلات في أحواض الفخار، لكنها أكبر بكثير، كل شجرة مثل شتلة حبق عملاقة، تنمو وتنمو وتنمو، ثم تأتي العصافير وتملأ الأغصان وتبني فيها الأعشاش وتبيض بيوضاً.

أخبرته ـ حين أرهقني ـ أن الأشجار قليلة جداً في بيروت، فوق. نادراً ما نراها.

بدت الخيبة على وجهه.

ـ كيف؟ لماذا قليلة؟ هناك شمس! وسماء!

قلت له إننا نحتاج إلى بناء البيوت لأن الناس يتكاثرون وأهالي الأرياف يأتون إلى العاصمة بحثاً عن عمل: البنايات تأخذ مكان الشجر.

قال إنه لا يفهم.

قال إن عنده خرائط لكنه لا يفهم أقوالي.

سألته هل عنده كتب؟

قال إن الكتب نادرة في بيروت. هو عنده كتاب واحد. لكنه عتيق، حتى أنك إذا حاولت أن تفتح صفحاته تفتَّت حواف الصفحات بين أصابعك. ورق أصفر مهلهل محفوظ بين غلافين سميكين في قعر ناووس. لا يلمسه. أحياناً يتأمله لكنه لا يقرأه أبداً. فهو يخاف أن يتفتت.

ـ لا تقرأ أبداً؟

قال إنه يقرأ على الحيطان. ذلك أن جدّه، الذي كان ماكراً، نقش نصف صفحات ذلك الكتاب، آلاف الكلمات، نقشها على حيطان البيت وعلى السقف أيضاً.

قال إنه سيأخذني إلى بيته ما أن أقوم من الفراش. (وسوف يأخذني فعلاً. وكنت سألته مرات عن الكتاب المنقوش على حيطان بيته، وكان يقول لي جملاً حفظها عن ظهر قلب، لغة عربية فصحى أليفة وغير أليفة معاً، ولن أعرف ما هو الكتاب حتى أذهب وأقرأ الحيطان بنفسي فأكتشف أنها مقاطع من «مقدمة ابن خلدون»).

أخبرني أن هناك مكتبة في المدينة. كل من أراد القراءة يذهب إليها ويقرأ في نور الشموع. وقبل سنوات بعيدة كانت توجد مصابيح نيون في إحدى غرف المكتبة لكن الناس فوق قطعوا خط الكهرباء.

ـ من قطع الخط؟

ـ أنتم. الناس في مدينتك. نحن أصلاً لا تهمّنا كثيراً هذه الأنوار القوية. لكن بعض الرجال الذين جاؤوا إلى مدينتنا من «برّا» ـ أثناء الحرب ـ مدّوا تلك الأسلاك الغريبة الحديد، وأتوا بتلك المصابيح الرفيعة الممشوقة. ما زال يوجد عندنا بعض المصابيح.

نستعملها في «بيوت الخُضر»، وبعض القصور. ليست كثيرة. لكنها تعمل. وخطوطها لم تُقطع بعد.

ـ من هؤلاء الذين نزلوا في الحرب؟ متى نزلوا؟ أما زالوا هنا؟

ـ أريد أن أسألك أسئلة كثيرة. لكنك تظل تسبقني. أنا لا أعرف عن المدينة أشياء كثيرة. عليك أن تسأل «المؤرخ». المؤرخ يخبرك. ألم تتعرف عليه بعد؟

يُحدثني عن المؤرخ مسعود قليلاً، ثم يقول إن عليّ زيارة المكتبة إذا كنت أحبّ الكتب.

ـ عندنا في «مكتبة بيروت العامة» كتب قديمة نادرة. عندنا التوراة مثلاً. هذا كتاب اليهود. لكن لا أحد يقرأه. أحياناً تجد من يقرأه. ليس دائماً. صاحب هذا البيت، الشيخ إسحاق، أجداده كانوا يهوداً. هذا الحيّ، «حي شيخ محمد»، كانوا يسمّونه «حيّ اليهود» على أيام جدي. الآن لم يبقَ من الأديان إلاّ الأسماء. لا أحد هنا يصلي. عندنا في المكتبة كل الكتب الدينية. عندنا كتاب جغرافيا. عندنا كتاب عن النباتات. عندنا كتاب ليس قديماً جداً، جلبه أحد الوافدين السُمر، كتاب عن الفيزياء الحديثة. عليك أن تذهب إلى المكتبة. أنا أذهب إليها كثيراً. قبل أن يضعف بصري كنت أذهب أكثر. قرأت نصف ما فيها من كتب. كتاب الجغرافيا قرأته 36 مرة.

ـ فيها كتب كثيرة «مكتبة بيروت العامة»؟

ـ أكثر من عشرين كتاباً.

*

تأخر الوقت والعجوز سلمان يتكلم وأهل البيت غائبون. لا الشيخ إسحاق رجع ظهراً ليأكل ولا راحيل عادت من زيارة

الجارات والمرور على السوق. راحيل لا تخرج مدة طويلة، فأين هي؟ لا تخرج من هذا الحيّ لئلا تضيع. لا تعرف دهاليز الأحياء المجاورة. تذهب إلى الجارات القريبات. يجتمعن منذ الصباح بعد خروج الرجال فأسمع همسهن الخفيف عبر شبكة التهوئة. فقط في هذه الساعات الباكرة أسمع أصوات الجيران. بعد ذلك يسود السكون. لكن في الصباحات تجتمع نسوة الحيّ كلّه في البيت وراء رأسي ويشربن «شاياً». ليس عندهم قهوة. ولا شاي. لكنهم يقطفون من سقوف بيوتهم جذوراً معينة تنمو في موسم الجفاف ـ أول موسم الجفاف ـ يقطعون هذه الجذور التي تشبه شروش أشجار الفاكهة، يغسلونها بالماء جيداً، ثم يغلونها ويشربونها. هذه عندهم بديل الشاي. أشربها مرتين كل يوم: مرة صباحاً، ومرة بعد الطعام. (شبيهة بنعناع يابس مغلي).

لم يرجع الشيخ إسحاق في موعده ولا رجعت راحيل، فانشغل بالي. كنت متأكداً أن الوقت جاوز الظهيرة، بل جاوز العصر أيضاً، لأن الشمعة أوشكت على الانطفاء. بدا لي أن الفلكي سلمان (الضائع في كلماته المتدفقة كأنه يغرق في نهرٍ ينبع من جوفه) بدا لي العجوز شبه الأعمى غير عالم بمرور الوقت. لعله لم ينتبه أن الشمعة سالت على الناووس الحجر وأوشكت قطرتها أن تبلغ الأرض. لعله لا يهتم للوقت. لماذا يهتم؟ لكن ألاّ يجوع؟

كنت أسمع عصافير معدتي تزقزق. وكلما مضى الوقت أزداد توتراً. أما هو فيُصلح المنديل على رأسه وينفض ما تساقط عليه من أتربة السقف ويتابع كلامه عن العالم البرّاني. في البداية وجدت كلامه عن «العالم فوق» طريفاً. ثم بدأت أملُّ. أريده أن يكلمني عن عالمه، هذه المدينة وأهلها وحياتهم. لكنه مسحور بذلك العالم الذي لا يراه، العالم فوق رأسه، السماء. ليس السماء التي نعرفها،

بل السماء الأخرى تحتها: مدينتنا.

كل كلامه زاد الجوع فيّ. سألني عن «الأطعمة فوق» وأخبرني عن الأطعمة التي سمع عنها: ليس الألبان والأجبان فقط، بل أصناف اللحوم التي تُشوى، وأصناف الشراب التي لا تحصى: بعضها يجعلك تقفز عن الأرض قفزاً، وبعضها الآخر يبعث فيك النوم. كان يعرف أخبار أطعمة إذا أكلتها مرة كل خمسة أيام كفتك الجوع. ويعرف أطعمة يتفننون في طبخها فلا يصنعونها من مادة واحدة فقط أو من مادتين أو حتى ثلاث مواد: هناك طعام يعملونه من 33 مادة معاً.

كان يربط منديلاً على رأسه مثل القراصنة في «جزيرة الكنز»، ولا يعتمر طاقية مثل معظم الناس هنا. فكّ المنديل مرة فرأيت علامات على رأسه شبه الصلعاء. حين انتبه إلى تحديقي ضحك (فقط حين يضحك يرتفع صوته عن درجة الهمس) وقال:

ـ هذا من الأحلام. كل ندوب رأسي من الأحلام.

قال إنه مرات يرى أحلاماً مخيفة فيستيقظ ويطرق رأسه بالسقف. يحبّ أن ينام في الطبقة الثانية من بيته، والسقف منخفض فوق.

سألته لماذا يحبّ النوم فوق؟

قال باسماً:

ـ أخاف من الفئران. هل تصدق؟ في هذه السنّ وما زلت أخاف منها!

قلت له إنني لم أرَ فأرة واحدة هنا.

ضحك وقال بالتأكيد، هذا أفقر حيّ في المدينة كلّها، الفئران تموت جوعاً إذا دخلت إلى هذا الحيّ. عليك أن تذهب إلى قلب

المدينة، هناك لا أحد يسلك الطرقات بعد حلول الظلام.

ـ أين قلب المدينة؟

ـ حيث القصر الرئاسي.

أسأله ماذا يوجد هناك؟ أفكر أن حديثه سيلهيني عن جوعي وقلقي على الأقل (لا أعرف حتى تلك اللحظة أن جوعي وقلقي يستمران تحديداً بسبب كلامه، بسبب وجوده هنا، هذا الرجل الغريب الذي سيصير بعد ذلك صديقي).

يشرح لي أن المدينة بُنيت في الأصل مثل متاهة، متاهة بشوارع وبيوت وحدائق غناء تتعالى أشجارها نحو السماء، وفي قلب المتاهة يتربع قصر الحاكم الروماني. هذا طبعاً كان قبل أزمنة سحيقة، قبل الزلازل التي قلبت قشرة الأرض وطمرت سقوف البيوت.

أقول له إنني أعرف هذا لأننا بعد الحرب، حين نسفوا البنايات المتداعية في «ساحة الشهداء»، كنا ننزل إلى حيث يحفرون فنرى القناطر تظهر من التراب ونرى أعمدة بتيجان منقوشة. أقول إن الناس يأتون من خارج البلاد للفرجة على هذه الآثار القديمة، وأن قسماً منها نُظِف من الأعشاب وزُرعت جنبه الأشجار. وأقول إنهم عملوا حديقة لهذه الآثار عند «القصر الحكومي»، وأصلحوا حمّاماً رومانياً باقياً، وزينوا جوانبه بالفسيفساء. أخبره أنني قبل سنوات كنت أحرس هناك.

تنفجر في جسم الفلكي طاقة جديدة فيقوم عن المقعد الحجر ويُخرج حجر صوان من ثوبه الطويل ويخطّ علامات على الأرض. يقول: «نحن هنا أنظرْ، تحت الجامع العمري الكبير، وإذا خرجت من هذا البيت، أنظرْ أنظرْ، إذا عبرت «حيّ شيخ محمد» إلى آخره،

إلى بئر الماء، تصير تحت «سوق الحدادين»، ألاّ تسمّونه هكذا، هناك تصنعون أشياء عجيبة من الحديد، وبعد السوق الأرض ترتفع إلى أعلى، وعلى قمة الجبل يوجد «القصر الحكومي»، أليس كذلك؟ وعلى سقفه العالي قرميد. هناك وضعتم حديقة؟».

أبتسم وأقول له إن القصر بقرميد فعلاً، لكن هذا السوق الذي يتحدث عنه لا أعرفه. أقول له إن عجائز بيروت يتحدثون عن أسواق قديمة كانت في المدينة، لكنني لا أعرفها جيداً. وأقول له إنني أنا أيضاً قبل الحرب نزلت إلى المدينة مع أبي ومشينا في تلك الأسواق. لكننا لم نذهب في تلك الرحلة إلى تلك الناحية، وبقينا في جهة ساحة الدباس وساحة الشهداء.

لا يقول شيئاً. فقط يصغي. وأعرف أنه يُسجل في رأسه كل ما أقول. يطلب مني أحياناً أن أكرر ما قلت قبل قليل.

أخبره أنني أتذكر إنني سمعت شيئاً عن سوق حدادين وسوق خشب وسوق صاغة وجوهرجية وسوق أقمشة. لكن كل هذه الأسواق احترقت في الحرب.

يقول إنه يعرف عن الحرب وعن الحرائق، وإن القنابل والإنفجارات كانتا تتسبب بالدمار هنا أيضاً، في الأسفل: أحياناً تتصدع السقوف وتسقط.

أستغرب حدوث ذلك فأسأله على أي عمق نحن؟

يقول إن العمق يتبدل من مكان إلى آخر، فهذه الأرض ليست مستوية، تطلع وتنزل.

أُذكِّره أنه كان يُحدثني عن القصر الرئاسي، ثم نسي أن يكمل حديثه.

يقول صحيح، القصر في قلب المتاهة كما أخبرتك، ليس

قصراً كبيراً جداً، لكنه كبير. وفيه مطبخ. وهذا أهم ما فيه. نحن ننتخب رئيساً كل ثلاثة مواسم مرة واحدة. والرئيس يعيش في هذا القصر، وعنده طعام، وعنده أكثر من امرأة.

ـ فقط يبقى رئيساً ثلاث سنوات؟

يضحك الفلكي.

ـ ليس ثلاث سنوات. هذه «مواسم السمك» التي أقصدها، لا مواسم المطر والجفاف. «مواسم السمك» أقصر بكثير. إذا أردت أن تحسب الوقت كما تفعلون فوق، فالرئيس عندنا يبقى رئيساً سنة واحدة فقط. كل سنة ننتخب رئيساً.

ـ وهل يستطيع الرئيس أن يترشح للانتخابات مرة ثانية؟

ـ بالتأكيد يستطيع. ألاّ يستطيع عندكم؟

أشرح له: «عندنا دستور يقتضي أن يكون الرئيس رئيساً مرة واحدة فقط». وأخبره كيف أننا أحياناً نُعدّل الدستور.

يضحك ويقول: «نحن أيضاً عندنا دستور، هل تحسب أنه ليس عندنا دستور. أنا لا أعرف كثيراً في هذه الأشياء، عليك أن تتكلم مع «الفيلسوف». هو يعرف هذه الأشياء، ويعرف عن عالمكم أيضاً. أنتم تقسمون الرئاسة إلى مواقع، وعندكم جماعات مقسمة بحسب الأديان وأمور كهذه. ليس عندنا هذه الأمور هنا. قلت لك هذا. لا أحد يذهب إلى صلاة جماعية هنا. كل واحد يُصلي في بيته».

أقول إن في «العالم البرّاني» أماكن متطورة تمارس هذا النظام ذاته الذي يتكلم عنه.

يضحك الفلكي:

ـ إنها ليست متطورة كثيراً إذاً. هل ترى هذه الكهوف متطورة؟

أسأله هل الرئيس الحالي رئيس منذ زمن طويل. يخبرني أنهم انتخبوه قبل وقتٍ قليل، بعد أن نزلت أنا إلى هنا، لكنه في الأغلب لن يبقى رئيساً، وسيفرّ إلى بيت أهله، لن يصمد.

لا أفهم ماذا يقول.

يشرح لي أن المشكلة هنا أن الرئيس لا يريد البقاء في القصر طويلاً، لأن حياة القصر ليست سهلة أبداً.

يتكلم ويتكلم ويتكلم. اكتشف من كلامه أن «من يصير رئيساً يُحبس في القصر ويُمنع من الخروج». ممنوع على الرئيس الظهور في العلن، وعنده غرفة واحدة أعلى القصر يحيا فيها. ولا يدخل عليه أحدٌ إلاّ زوجاته. الزوجات تحملن إليه الطعام من المطبخ الرئاسي. والزوجات تحملن إليه أخبار المدينة والحكومة. وهو يرسل الأوامر إلى الوزراء عبر زوجاته. هذا نظامهم في الحُكم. لذا نادراً ما يصمد رئيسٌ في «القصر».

أقول له إن هذا معناه أن الحكومة هي الرئيس الحقيقي. أو رئيس الحكومة.

يقول ليس عندنا رئيس حكومة. كل القرارات تُتخذ بالتصويت.

أسأله عن عدد الوزراء في الحكومة. يقول أن العدد غير محدد. لكنه على العموم عدد كبير. ويقول:

ـ في بعض الأوقات نكون كلّنا وزراء.

ـ كلكم؟ مليون وزير؟

يخبرني أن أهل المدينة أقل من ذلك بكثير.

ـ لكن الشيخ إسحاق قال لي ان. . .

يقاطعني الفلكي:

ـ قال لك ما تريد يا بطرس. لم يفهم قصدك. هنا الناس لا تستخدم الأرقام كثيراً. الأرقام الكبيرة لا يعرفونها. أهل مدينتنا لا يزيدون عن ألف نسمة. ربما كانوا عشرة آلاف نسمة. لست متأكداً.

يصيبني كلامه المتناقض بالإحباط. ثم أنني جائع. وما يزيد الطين بلة أنه لا يسكت. يقول متابعاً:

ـ لكن هذا النظام السياسي لم يعد معتمداً الآن. تغيرت الأحوال كثيراً في العصر الحديث. قلّت الموارد فقلّ الاهتمام بتدبير الأمور. ثم أن الاتصال بين الأحياء المفصولة بالدهاليز صعب. إذا سألتني عن اسم الرئيس الآن أقول لك نسيت. مع أننا انتخبناه قبل أيام. نفعل ذلك لنحافظ على التقاليد ليس أكثر. حتى المطبخ الرئاسي نحافظ عليه من أجل التقاليد. مع أن الطعام كما أخبرتك صار أقل الآن. أذكر في طفولتي أنني كنت أذهب مع أهلي إلى «البوابة الغربية» فنتسلق السلالم ونقطف من الأرض العالية ثماراً شهية. كنا نأخذها ونسلقها ونأكلها. هذه تسمّونها أنتم «بطاطا». كنا نقطف جزراً وفجلاً ولفتاً وبصلاً. هذا كلّه أكلته في طفولتي. حتى الآن لم أنسَ طعمه. ثم تغير الزمن. صرنا نذهب إلى «البوابة الغربية» فلا نجد شيئاً، لا في موسم الأمطار ولا في موسم الجفاف! ورغم هذا ما زلنا نسمي تلك البوابة «الباب الطيب».

أضحك مع أنه حزين وأخبره أنهم كانوا على الأرجح يسطون على بساتين رأس بيروت، أو بساتين المصيطبة. أشرح له أن تلك الحقول اختفت وظهرت مكانها بنايات زجاج عالية وشوارع زفت عريضة.

ـ لأننا كنا نسرق ما يزرعون؟

أقول ربما، من يعلم؟

لا أدري إذا كان يمازحني. لكنه يبدو جاداً. ويبدو كأن الحزن سيمحوه محواً من أمام عينيّ.

في تلك اللحظة ـ الشمعة ترتجف وقد ذابت تماماً فلم يبقَ منها إلاّ الفتيل يتأرجح فوق بقعة الشمع المخضرة ـ أسمع همهمة وراء الحائط.

يضحك الفلكي:

ـ لا بدَّ أنهما جاعا مثلك، وتعبا من الوقوف. عليّ أن أذهب. لكن قبل ذلك: هدية!

من جيبٍ في باطن ثوبه الطويل أخرج صديقي الجديد هدية لا يحلم بها إنسان تحت الأرض: كتلة من التين اليابس.

*

اكتشفت ـ بعد رحيله ـ بينما ألوك التين الشهيّ والسكر يجري في دمي، أن الشيخ المسكين وابنته كانا في مدخل البيت منذ الظهيرة ينتظران رحيل الفلكي. ذلك أن الفلكي ـ وهو رجل صاحب سطوة تحت ـ طلب منهما عدم مقاطعة كلامه معي، لأن هذا الكلام بالغ الأهمية.

في البدء استغربت سطوة العجوز شبه الأعمى عليهما. بعد وقت فهمت السبب. الفلكي سلمان مشهور في «بيروت التحتا»، وكل الناس يحترمونه ويطلبون رضاه. ذلك أنه الرجل الوحيد الذي يعرف طريقه في هذه الدهاليز. عنده خريطة. ودائماً يُضيف تفاصيل جديدة إلى خريطته. وهو الآن يُدرب ابنه الكبير (الذي لم يأتِ على ذكره أبداً خلال حديثنا الأول المنهك الطويل) على استخدام

الخريطة، من أجل سلوك دروب المتاهة الحجر.

سأخبر قصة قصيرة تشرح أهمية هذا الأمر: ذات يوم اضطرت راحيل إلى الذهاب إلى الجانب البعيد من «حي شيخ محمد». كان الأب قد غادر المنزل وبدت شديدة الاضطراب. قالت إن طحين السمك قليل وعليها أن تذهب إلى «سوق راشد» البعيد حيث لا تذهب عادة. الأب يذهب إلى هناك. لكنها لا تعرف جيداً تلك الطريق وتخاف أن تضيع في دهاليز المتاهة.

قالت لي كل هذا وهي تُخرج من الناووس الحجر ربطة ضخمة من الخيطان ثم تربط طرف الخيط برسغها وتعقده ثلاث مرات.

ثم اقتربت مني وطلبت مني أن أمسك بالطرف الآخر من الخيط الغريب (خيط من ألوان مختلفة، خيوط رُبط بعضها إلى بعض).

التفّت بثوبٍ، وقالت قبل خروجها:

ـ أضع حياتي في يدك. إذا أفلت الخيط ضعت!

ثم خرجت تجرّ الخيط. (هل أخبِركَ عن القلق الشديد الذي جعل معدتي تنقبض وتتقلص، تنقبض وتتقلص، وأنا أرى كرة الخيطان على الأرض تنط وتصغر وتنط، كل الوقت تتقافز تلك الكرة وأنا أصلي ألا تتشابك خيطانها ـ وماذا يحدث إذا تشابكت؟ إذا انتهى الخيط ترجع إليّ، أليس كذلك؟ ـ والعرق يجري على ظهري، وباطن يدي يبتلّ، والخيط يبتلّ!).

*

كتلة التين اليابس تلك، التي تقدر أن تقبض عليها في راحتك، لم آكلها وحدي. مع أن جوعي كان رهيباً. قطعت من الكتلة الثمينة قطعتين، واحدة لمضيفي الشيخ إسحاق، والأخرى لراحيل التي

تعتني بي كما لم يعتنِ بي أحدٌ منذ سنوات طويلة.

الشيخ قال كُلْها أنت، أنت بحاجة إليها.

وابنته أحنت رأسها ولم تقبل أن تأخذ القطعة (الطيبة الرائحة) من يدي.

قلت والطعم اللذيذ يملأ فمي:

ـ لن أقبل. نأكل معاً.

قال الشيخ لابنته:

ـ خذيها من السيد الكريم.

ومدّ يده وأخذ قطعته أيضاً. تأملها وأخبرني:

ـ أنا ذقت التين الأخضر أيضاً. وليس التين اليابس فقط. لكن راحيل لا تعرف هذا الطعام. حين كانت لم تزل طفلة ترضع حليب أمها ذقتُ هذا الطعام. من أجل أمها خاطرت بحياتي وذهبت إلى «الصيّادين» في مركزهم البعيد، عند «البوابة الجنوبية». في تلك الأيام كان «الوقت الأسود» قد بدأ. كانت الأحوال فظيعة، والكل يتصرف بجنون.

أسأله ما هو «الوقت الأسود»؟

يقول وهو يقلب قطعة التين الشقراء الصغيرة في يده:

ـ تسمّونه فوق: «الحرب».

أسأله:

ـ أهنا أيضاً تحدث حروب؟

يهزّ رأسه، ويشرح لي:

ـ لا، هنا لا تحدث حروب. الحرب التي جرت «برّا» نسمّيها هنا: «الوقت الأسود». كانت مدينتنا كلّها تهتز في تلك الأيام، والسقوف تتصدع، ومرات تسقط. لكن الكارثة كانت الدخان. كان

الدخان الأسود يقتلنا. يدخل من شبكة التهوئة القديمة ويخنقنا. دام ذلك مواسم ومواسم. بعض الأهالي أراد أن يكسر «باب البحر» للخروج إلى الكهوف. كان زمناً فظيعاً. مات بشر. واختنق أطفال. وفي تلك الفترة أيضاً بدأ «الصيّادون» يخرجون إلى «برّا» ويرجعون محمّلين بأطعمة وألبسة وأثاث. كانوا يتكلمون عن النار والأشجار التي تشتعل ويصفون البيوت والمخازن والمتاجر وكل العالم البرّاني المحروق. وبعضهم ضاع ولم يرجع. أو أصابه العمى من النور القوي.

يسكت الشيخ فتتكلم ابنته (ما زالت تنظر إلى القطعة بين أصابعها. تشمّها، وعضلات وجهها تتحرك حين تشمّها. لكنها لم تذقْها بعد):

ـ أذكر «الوقت الأسود». كانت أمي تكنس البيت مئة مرة في اليوم وتظلّ الأرض تتسخ بالتراب. كنا نام فينهمر علينا التراب ونحن نيام. كنتُ أخاف أن أُدفن حيّة.

أقول ناظراً إلى القطعة بين رؤوس أناملها:

ـ ذوقيها!

تقول مشرقة الوجه:

ـ لا، بعد الأكل.

أمّا الشيخ إسحاق فيُخفي القطعة في ثوبه.

*

ذكريات قديمة تغمرني تلك الليلة. أبي في حقله في الجبل، يسقي بالمجرفة، وتيار الماء يجري بين الأثلام الخضر. عند العصر يقعد ويمسح العرق عن وجهه: يشرب شاياً ويُدخن تبغاً يلفّه بنفسه في ورق أبيض رقيق «ماركة الشام».

أمي على المصطبة، خارج بيتنا في الجبل، المصطبة البعيدة عن الطريق العام، تحيطها كروم عنب وبساتين خوخ وتفاح ودراق، وعند زاويتها، حيث يبدأ الحقل، ترتفع شجرة جوز وارفة الظلال. أقعد مع أخي بين جذور الشجرة الظاهرة فوق التراب ونتأمل أمي تنقر حبّات كوسى رفيعة صغيرة لتعمل «أبلما»، أكلة أبي المفضلة. كان يُسمي أمي «أم أبلما»، لأنها شاطرة في هذه الطبخة. يضحك ويقول إنها لا تعرف أن تقلي بيضاً لكنها تعرف كيف تطبخ هذه الطبخة الصعبة! مع أنني لم أرَ أمي أبداً تطبخ «أبلما» وحدها. كانت فقط تنقر حبّات الكوسى الرفيعة وتغسلها وتنتظر أبي حتى يأتي. هو الذي يُعد «الحشوة»، يقلي البصل المفروم واللحمة والصنوبر. وهو الذي يحشي الكوسى ثم يسدّها بقطع كوسى صغيرة، ثم يقليها في زيت عميق. يرفعها بعد ذلك إلى صينية ويغمرها بالبندورة الجبلية الحمراء المقطعة. الكوسى من حقلنا والبصل من حقلنا والبندورة من حقلنا. يقول إن الطبخ الطيّب سرّه في مواده. الصينية تغلي بالماء الذي يغمرها، والرائحة تخرج من الفرن وتشق القلب. يعمل أبي الأرز المفلفل بالشعيرية، وأنا وأخي نقعد إلى الطاولة العالية. كل الوقت يتحدث أبي عن مهارة أمي في الطبخ. وهي تأكل وتضحك. ما زلت أذكر ضحكتها. وأبي ينده: «يا أم أبلما»! وهي تسكب له من الصينية، فتوزع الحبّات ـ التي تحمّرت ـ على فرشة الأرز، وتسقي ذلك كلّه بصلصة البندورة الكثيفة. الملعقة تهتز في يدها ضحكاً، وأبي ينظر إليها.

بعد أن ماتت أمي لم يطبخ أبي طبخته الأثيرة مرة واحدة.

وأنا ـ الذي ورثتُ طباع أبي ـ لم أذق «أبلما» من غير يديه أبداً.

❋

ذكرى أخرى: أبي يُقلّم تعريشة العنب المقساسي، ويتفحص الأوراق ورقة ورقة. يلتقط ورقة خضراء اصفرّت حوافها، ويدلّني على الدودة الصفراء الرفيعة التي تسعى بين العروق. يسألني ماذا أرى؟ أقول: «دودة». يسألني ماذا سنفعل غداً؟ أقول: «سنرش العرائش كبريتاً». يضع يده على رأسي وينظر إلى أعلى، إلى الورق الذي يرتعش في هواء الجبل.

بعد أن تهجّرنا بات يتنفس خلال الليل بصعوبة. كأن بيروت تخنقه. كان يطلع إلى السطح ليرى السماء. ثم ينزل كئيباً.

*

من ذلك الزمن الأول القديم في بيت خالي أعلى «شارع مونو» أذكر رجلاً تهجَّر من الجنوب فجاء إلى بيروت، وسكن ليس بعيداً، وراء «فرن الناصرة». تصادق أبي مع هذا الرجل وكان يذهب لزيارته كثيراً. لا يزوره في البيت الصغير وراء الفرن. يقول إن كل بيوت بيروت متشابهة، كلّها مثل علب السردين، مصفوفة في صفوف، وفوق الصفوف صفوف أخرى. وكلّها بلا هواء. ولا خضرة حولها. حتى السماء لا نراها هنا، ترفع رأسك فترى بنايات شاهقة تميل وتكاد تقع على رأسك. أو ترى أعمدة الكهرباء بشبكات الخطوط المعلقة مثل الخيم المتسخة. من يرى السماء في هذه المدينة؟

كان أبي يذهب ويزور صاحبه المهجّر مثله، يزوره في «دير الناصرة». كان الرجل يُدعى وديع الحايك (من قرية صربا، قضاء النبطية، محافظة جنوب لبنان). لا أنسى اسمه. ولا أنسى وجهه. هو وأبي زرعا أشجار الموز في حديقة «دير الناصرة»: حديقة محضونة بسورٍ حجرٍ أصفر قديم يرتفع فوق الطريق الطالعة صوب

ساحة ساسين، الطريق التي يسمّونها «جادة الرئيس الياس سركيس».

حين أرجع من المدرسة أذهب لرؤية أبي في مكان عمله في «عبد الوهاب الإنكليزي». وحين لا أجده في البناية أدور وأذهب إلى «دير الناصرة». أجده هناك مع صاحبه القصير الطفولي الوجه ـ مع أنه أكبر من أبي بعشرين سنة ـ يشربان شاياً ويأكلان كعكاً ويسقيان الشجر. مات أبي ثم مات صاحبه، لكنني ما أزال أذكر جلوسهما تحت تلك الأشجار التي ارتفعت وصار ورقها العريض الطويل يغطي السور ويتدلى صوب الرصيف، فيرى العابرون على الدرب أقراط الموز الخضراء الجميلة. كانا يجلسان ساعات بين الأشجار، يدخنان ويتكلمان: أبي يتكلم عن بساتين التفاح والخوخ والدراق وعن كروم العنب وعن حقول البندورة الجبلية وخيم اللوبياء، وصاحبه يحكي عن بساتينه في الجنوب: بساتين الحامض والليمون والموز. مالك «فرن الناصرة» قال لأبي إن صاحبه كان يُرسل الحمضيات والموز بالبواخر والشاحنات إلى مصر والشام. قال إنه في سنة من السنوات مباشرة قبل الحرب «ضَمَنَ» وحده كل بساتين الساحل من الدامور إلى الأولي، «الوزراء والنواب أكلوا على طاولته».

وأبي الذي كان لا تهمّه هذه الأمور، أحنى رأسه بينما مالك الفرن يحكي عن ثروة صاحبه والنكبة التي أصابت ثروته في الحرب، وظلّ ساكتاً حتى بعد خروجنا. لا أنسى ذلك اليوم أبداً: كنت أحمل ربطة الخبز الساخنة العرقانة في يدٍ، واليد الأخرى على كتف أبي.

سرنا صامتين.

كنت أعلم ما به.
كان يريد أن يبكي.

*

صوت حار متقطع هامس، نشيج متواصل يوقظني من نوم عميق. كنت أراني في المنام واقفاً أمام «أفران بربر» في منطقةَ الحمراء (رأس بيروت) آكل منقوشة زعتر مع بندورة ونعناع وخيار، وكبيس وزيتون ورشّة سمسم وملح، فأيقظني هذا البكاء من نومي. من يبكي؟ مخدتي مبلولة بالعرق من رقبتي، والعرق من وجهي، والعرق من شعري الذي صار طويلاً ولم أغسله منذ أيام. هل أنا من يبكي؟ (لا أذكر أنني ذرفتُ دمعة واحدة منذ جنازة أبي. بعد موته نشَّف الدمع من عينيّ.) هل أنا من يبكي الآن؟ بالتأكيد لا. هل كان شخص ما يبكي في منامي؟ لكنني كنت على الرصيف، أنظر إلى «البيكاديللي» وهي لا تزال صالة سينما ومسرحاً ولم تتحول إلى مطعم بعد. أنظر إلى «البيكاديللي» وإلى سيارة بويك بيضاء تخرج من الموقف القريب ـ موقف تحت الأرض، النزلة إليه قوية جداً ـ آكل منقوشتي المحمصة وأنظر إلى السيارات وشرطي السير (هو أيضاً يأكل منقوشة بكشك، أو لعلها منقوشة جبنة) وأنظر إلى العابرين. كان الوقت أول المساء، والمصابيح الكهربائية تشتعل دفعة واحدة. ثم بدأ هذا البكاء. في الظلمة فتحت عينيّ.

أُصيخ السمع في فراشي في الكهف تحت الأرض. أهو الشيخ إسحاق يبكي راقداً في الزاوية حيث تفرش له ابنته الفراش؟ أم هي راحيل تنشج هكذا في الغرفة المجاورة؟ أم أن الصوت يأتي عبر شبكة التهوئة من بيتٍ آخر قريب (شرحوا لي أن كل بيوت المدينة يأتيها الهواء ويذهب منها الدخان ـ والنَفَسُ الفاسد ـ عبر شبكة ممرات منقورة في الصخور فوقنا تتصل بالكهوف عند شاطئ البحر.

وسوف أعرف لاحقاً من الفلكي سلمان أنه منقوش على حائط القاعة القديمة في «القصر الرئاسي» أنه في زمن «المجاعة البرّانية» ـ وهذا اسمهم لمجاعة الحرب العالمية الأولى ـ جاء إلى المدينة رجال من مدينة أرضية أخرى بعيدة: رجال من اسطنبول. كيف جاؤوا من هناك، لا أعلم! لكن الفلكي زعم أن مدناً كثيرة على ساحل البحر ـ «كمدينة صيدون مثلاً» ـ تقوم على مدنٍ أخرى تحتها. هذا شرط وجود المدن تحت الأرض: وجود الكهوف البحرية! كهوف تحت شطآنٍ صخرية مرتفعة يدخل منها الهواء إلى بطن الأرض).

أصخْتُ السمع حتى خُيّل إليّ أن أذنيّ تكبران في الليل وتتضخمان. رأيت بعين الخيال أذنين أكبر من أذني الفيل، وقلت في نفسي أن هذا البكاء يصلني من فوق الأرض. من بيتٍ ما فوق الأرض. أو ربما من مطاعم المدينة التي تُقفل للتو: الليل المشتعل بالكهرباء ينتهي والفجر يقترب وعمال المطاعم يمسحون البلاط من القاذورات وصدورهم يُجوفها التعب. وفي زاوية تقعد نادلة متعبة، وتمسح عن وجهها آثار الحمرة والكحل، وتبكي قليلاً. الكراسي رُفِعت على الطاولات، مقلوبةً.

كنت أموت ملَلاً نائماً على ظهري هكذا كل الليل وكل النهار، لا أعرف الوقت، ولا متى ستُشفى عظامي. لكن تلك الليلة، بينما أسمع النشيج يسكت فجأة، أدركت أن شيئاً سيقع الآن، وأن حياتي ستتغير إلى الأبد.

*

امرأة عارية حارة البدن مبلولة بالدموع اندسّت تحت غطائي. دفنتْ وجهها في رقبتي فانقطع نشيجها. أناملها الساخنة دلّت يدي

المرتبكة إلى بطنها. كانت بطناً مدوّرة، ملساء، ملآنة، ما إن لامستُها حتى سرت رعشة في كامل ذراعي.

لم أتبين ملامحها في الظلام. لم أعرف ماذا أصنع بجسمي المطروح كشجرة مقطوعة. ولم أسمع لها صوتاً. كانت جنبي وفوقي وتحتي. كيف نزعتْ عني ثيابي وأنا ملفوف نصفي بالرباطات، لا أدري. من تلك اللحظة وحتى سكنت حركتها مرَّ وقتٌ لا أدري طوله. كان قصيراً كبرقة عين. وكان أطول من الأبدية. جسمي الحطب تراخى كلّه حين انتهت مني. للمرة الأولى منذ دهرٍ أغمضت عينيّ مملوءاً بالطمأنينة. كنتُ تحت الأرض، مفكوكَ الورك (لكن وركي يجبر)، مكسر العظام (لكن عظامي تُشفى)، أعيش حياة الجرذان في بطن التراب؛ ومع ذلك ملأتني السكينة. غمرتني رائحةٌ من الفردوس، وعرفتُ من تكون. في الظلمة الكاملة همستُ:

ـ ياسمينة.

*

غادرتْ قبل استيقاظ أهل البيت. في الزاوية كان مضيفي الشيخ إسحاق ما زال يشخر شخيره اللطيف غير عالم بما جرى لي في هذه الساعة. كانت ساعة ليلٍ، وكنت مطروحاً كالجثة على الفراش، وجاءت إليّ ياسمينة وبدَّلتني.

*

جاءت إليّ في الظلام الأرضي عابرة المتاهة المخيفة المطمورة. أسقطت رداءها عند حافة فراشي وانسلّت جنبي عارية إلاّ من اسوارة خشب في يسراها. هل قطعت الدهاليز من بيتها البعيد إلى هنا بلا شمعة؟

رائحتها تملأ شعر رأسي. من البعيد أسمع صوت البحر

وهديل الحمام وصراخ النوارس. أهو وهم؟ أم أن الصوت البرّاني يبلغني عابراً شبكة التهوئة؟ تلمستُ مخدتي فعثرت على شعرة طويلة. قبضت على الشعرة ـ ومصغياً إلى نواح الأمواج الخيالي ـ سقطت في نومٍ عميق.

*

أعلم أنها ستعود. من حركة أناملها المتمهلة على وجهي ورقبتي وكتفي وذراعي وبطني وظهري، أعلمُ أنها ـ غداً، في الليل ـ ستعود.

*

غرقتُ في النوم، والغبطة تملأ أعضائي. رأيت أنني على حصان أخترق سهولاً لا نهائية. الطريق حمراء التربة، وسهول القمح الذهب الصفراء تترامى عن الجهتين إلى حيث لا أعلم. قطعت السهل وحوافر الحصان لا تكاد تلمس الأرض. سهول تكرّ وراء سهول. كان المساء يُقبل. ورائحة الطبيعة تتبدل. والأشياء ترتاح وتستقر وترقد. بعيداً رأيت بيتاً واطئاً مستطيلاً، وحول البيت نصف دائرة خضراء عالية: صف من شجر السرو الشاهق العلو.

طرقت الباب ففتحه رجلٌ طويل، فارع الطول حتى أنني خفت. لكنه تراجع باسماً بوجهٍ شاحب البياض وعينين دافئتين. قال إنه كان ينتظرني، «منذ سنوات أنتظر».

في أراضي النوم الغامضة جلست مع الرجل المستوحد وسمعته يحكي عن عائلته. قال إنه ترك غرف البيت كلّها كما كانت. لم يُبدل فيها غرضاً. وراء رأسه رأيت نافذة، وستارة بلون الخردل. وراء الزجاج تساقط الثلج كالقطن.

*

حين استيقظت لم أتذكر منامي (لن أتذكره إلاّ بعد شهور. وتذكرته لأنني رأيته مرة ثانية عندئذٍ. وفي هذه المرة لم أرَ ثلجاً يتساقط وراء الزجاج بل رأيت شجرة كرز مزهرة غارقة في ضياء الشمس.) لم أتذكر المنام لكنني تذكرت المرأة الجميلة.

حين اقتربت راحيل مني تحمل طاسة الشاي رأيتها تبتسم. ثم استدارت وغادرت المنزل.

الشيخ إسحاق (مضيفي) غادر قبل أن أستيقظ. بقيت وحدي في نور الشموع في ذلك الصباح أشرب السائل الساخن، أتذكر ياسمينة، وأسأل نفسي أسئلة لا أول لها ولا آخر، ثم أنسى كل الأسئلة، وأجدني أنتظر قدوم الليل مرة أخرى.

*

قبل أن يأتي الليل، بعد طعام الغداء، في ساعة القيلولة، سألتُ راحيل هل بيت ياسمينة بعيد جداً؟

قالت إنه وراء النهر، بعد الجسر القديم.

لم أفهم ماذا تقول: نهر؟ جسر؟ (بعد ذلك سأرى النهر الذي يشق المدينة إلى نصفين، والذي غارت مياهه قبل سنين، فصارت كالخيط، وعن جانبي الخيط وحلٌ وهياكل عظم وأسماك نافقة. عباس الصياد سيروي لي كيف أن النهر قبل أن ينقطع ماؤه كان يتدفّق قوياً في موسم الأمطار، يسمعون صوته الهادر، وإذا أشعلوا المشاعل أبصروا سمكاً يتقافز فيه ويكاد يرتطم بالمسلات المتدلية الحجر. وقبل أن تغور مياه النهر انتبه القاطنون في جواره أن رائحته تتبدل وهديره يتبدل. أشعلوا النيران فرأوا النهر معتكراً بالوحول وبمواد غريبة بيضاء كالكلس لكنها تفور وتزبد. أحد الأطفال شرب من الماء فتسمم. وولد آخر لمس الزبد الغريب فاحترقت بشرته.

في تلك الفترة ذاتها سمعوا انفجارات في الأعلى، عند «البوابة الجنوبية»، قريباً من الصخور حيث ينبع نهر المياه الجوفية الكبير. بعد الانفجارات بأيام سكن هدير النهر: رويداً رويداً صار كالخيط الرفيع، ينزّ كجرح قديم ولا يروي عطشاً).

أسأل راحيل هل تكفي نصف شمعة للذهاب من هنا إلى بيت ياسمينة؟

تقول راحيل إنها لم تذهب إلى هناك أبداً، لكنها تعرف أن الطريق من هنا إلى «حيّ الأزرق» أقل من نصف شمعة، وبيت ياسمينة عند طرف الحيّ، جنب الدير المهجور.

أسألها كيف لم تذهب يوماً إلى زيارة ياسمينة وهي صديقتها.

تقول لي أنها لا تحبّ الخروج من البيت، فإذا خرجت منه لا تغادر الحيّ. تخاف أن تضيع. مرة أخذها أبوها معه إلى النهر. لم يكن جفّ بعد. ووقفا على الجسر حيث المشاعل ونظرا إلى المياه. في ذلك الوقت كانت أمها ما زالت حيّة. الآن جفّ النهر. الناس يشمّون رائحة فظيعة هناك. والأولاد يمرضون وبولهم يصير أخضر اللون، حارقاً.

أقول إن وركي يؤلمني، وكذلك عظمة فخذي.

تقول هذا أفضل، أحسن لك، هكذا قال الحكيم، كلما تألمت أكثر شُفيت أسرع، هذه عظامك تنمو، لهذا تتألم. (كانت واقفة هنا إذاً بينما كبير العشّابين يوسف يقول لي في ذلك المساء أن الواحد لا يكبر بلا ألم والعظام هكذا أيضاً).

أقول لها إنه «فوق» توجد أماكن للمرضى فيها أدوية يحقنونها في الجسم فيصير الألم محمولاً.

تبتسم وتخبرني أن كل ما أشربه، كل حساء السمك وكل

الشاي، تعمله من أجلي في مياهٍ تُخدر الأوجاع يرفعونها من بئرٍ مشهورة عند «الباب الطيب». وتقول لي إن السمك إذا سبح في هذا الماء نام.

*

الشيخ إسحاق يرجع عند المساء مع رجل لا أعرفه. الرجل يقف على مسافة من سريري ويلقي التحية:

ـ السلام عليكم.

أتذكر أن هذه تحية المسلمين. أردّ:

ـ وعليكم السلام.

يتورد وجهه. فعلاً يتورد. بياض وجهه يتشرب حمرة الدم. يعتمر عمامة بلون التراب، ويلتف بعباءة سميكة النسيج خشنة (أعلم فيما بعد أن المادة الخام لمعظم الأقمشة في بلدهم مأخوذة من جذور يقطعونها من السقوف، تكون مثل الألياف، وملمسها كخيوط الصوف. هذه الجذور يجففونها موسماً ثم يدقونها في أجران الحجر دقّاً لطيفاً ويغسلونها لتنظف من التراب والأغبرة. بعد تنظيف الألياف هكذا يفصلونها بعضها عن بعض، ثم يغزلونها خيوطاً على مغازل بعجلات حجر وينسجونها قماشاً. يكون لونها عندئذٍ لون الرماد. فإذا أرادوا تبييض النسيج وضعوه جنب فرنٍ قوية النار زهاء الساعة فيتغير لونه ويصير ببياض اللبن. إذا تركوه قرب النار وقتاً أطول حال لونه إلى صفرة العسل).

الشيخ إسحاق يدفع الرجل نحو فراشي. أنتبه أنهم هنا يُفضلون استخدام الأيدي على لفظ الكلمات. ألاحظ أنهم في بعض المواقف لا يستعملون الكلمات أبداً. بل يلجأون إلى التعبير بالجسم كلّه. أتذكر راحيل تستقبل ياسمينة بالعناق، فأبتسم.

الرجل صاحب العمامة يبتسم هو أيضاً، ثم يقعد على المقعد الحجر جنب رأسي بينما الشيخ إسحاق يُخبرني أنه «المؤرخ»: مسعود.

هذا هو مؤرخهم إذاً. منذ أيام أنتظر قدومه. لكنني في هذا المساء بالذات، بينما أنتظر فارغ الصبر أن يعبر الوقت خطفاً ويغيب نور الشموع كي تأتي امرأتي إليّ، في هذا المساء بالذات لا أريد أن أجالس أحداً. ولا حتى «المؤرخ». مع هذا لا بدَّ من مجالسته. أي خيار أملك؟ ما زلت عاجزاً عن مغادرة السرير! (كل يوم أُمرن مفاصلي، وراحيل تساعدني في رياضتي. أرفع ساقي السليمة وأُنزلها. هذا يُسبب وجعاً في وركي لكنني أحارب الوجع بقوة الإرادة وحسب. بالتأكيد يساعدني أيضاً ذلك الماء المُرخّي للأعصاب. ساقي الأخرى، ذات العظمة المكسورة، تتحسن هي أيضاً. العظم لَحَمَ. وراحيل ترفع ساقي من القدم بينما أشدّ ركبتي. أمارس رياضة أخرى أيضاً: أرفع جذعي فتضع راحيل مخدات وراء ظهري. مستقيماً في الفراش هكذا أبرم رأسي إلى هذه الجهة وتلك مدرباً عضلات رقبتي. أرفع ذراعي عالياً أيضاً لتتحرك هذه العظام الرفيعة. لا أصدق أن هذا الجسم لي. أنظر إلى نحولي ولا أعرف نفسي! لم أكن مرة بهذا النحول. أين كرشي؟ أين اللحم تحت ذقني؟ أين الشحم على صدري؟ راحيل تُخرج من الناووس الحجر مرآة مثلثة الشكل إطارها حجر منحوت. زجاج المرآة عتيق، يشبه المعدن القديم ولا يشبه زجاجاً. حين أرى وجهي بالندوب عند الأذنين، والعظام الظاهرة في أعلى الخدين، لا أعرفني. أنظر إلى عينيّ غارقتين في المحجرين ولا أعرف عينيّ. هذا اللون الباذنجاني الداكن. هذا النحول المخيف. هذا الوجه الذي تغير. لا أدري كيف حدث هذا. لو أنه حدث لي وأنا في كامل الوعي لفرحت

كثيراً. مرات ومرات حاولتُ ـ وأنا فوق ـ أن أعتمد نظام حمية يزيل الوزن الزائد عن جسمي. الوزن الزائد طالما سبّب لي آلاماً في عمودي الفقري. لكن كيف يتخلص إنسانٌ شرهٌ من وزنه الزائد. لست شرهاً حقاً. لكن الطعام طيب. وكلما انتابتني كآبةٌ وجدتني أمام البراد. ماذا أفعل؟ لو نحلتُ هكذا وأنا فوق لفرحت. لكنني نحلتُ وأنا مريضٌ نائم. لهذا لم أعتد بدني الجديد. إلى أن جاءت ياسمينة في تلك الليلة ومرّت بأناملها على عظامي: فجأة بات هذا البدن الغريب ـ الأجنبي ـ بدني!).

لم أعد أتذكر الحديث الذي دار بيننا تلك الليلة. تكلم المؤرخ العجوز طويلاً، وأنا أسمعه ولا أسمعه. كنت أنتظر ذهابه وانطفاء الشموع وقدوم ياسمينة. أنا الذي أحبّ القصص والأخبار لم أكن في تلك الساعة مهتماً بكل تلك العجائب والغرائب. كان يحكي عن «الموجة الثانية» الكبيرة من «الوافدين السُمر» على زمن أجداده، حين هبط هؤلاء الغرباء الجرحى بثياب ممزقة وأبدان محروقة، هبطوا إلى بيروت من فجوات ودهاليز ومخارج في «أرض التوت»، وكان معهم أولاد ونساء سمراوات طويلات ـ حتى أن طولهن يبعث الخوف في النفس. قال المؤرخ العجوز أن أجداده في تلك العصور البعيدة كانوا يخرجون ليلاً إلى «أرض التوت» ويقطفون تلك الثمار الشهية. لكن ذات مرة صعد ثلاثة منهم ولم يرجعوا. ثم رجع واحدٌ من الثلاثة، نجا من الموت على يد رجال ضخام الجثث يحملون سيوفاً هلالية الشكل، حادة، إذا هوت على الجسم قطّعته تقطيعاً. رجع الرجل وقال أنه وحده نجا. ومنذ ذلك الحين أُقفلت المخارج إلى «أرض التوت». (هذه «ساحة البرج»؟).

الغرباء الذين أتوا في ذلك العهد (متى كان ذلك؟ في حرب 1860؟) ظلّوا هنا. حكوا أنهم هربوا من مدنٍ بعيدة تحترق

(دمشق، حاصبيا، دير القمر، زحلة، جزين). قالوا إن الحكومة جمعتهم في «السهلات» (هذا اسم آخر لأرض التوت، اسم الناس لها في «العالم البرّاني»)، خارج سور المدينة، وتركتهم يجوعون ويمرضون ويموتون بانتظار وصول الطعام والدواء من وراء البحر. حين نزلوا إلى «بيروت» ـ أحد الأولاد عثر صدفة على الدهليز ـ استُقبلوا بالترحاب. أكلوا سمكاً وشربوا حساء سمك. «رجالهم أحبّوا نساءنا، ورجالنا أحبّوا نساءهم»، قال العجوز. وابتسم.

ابتساماته أذكرها. لأنني سأراها كثيراً بعد تلك الليلة الأولى. حين يبتسم يُدهشك بصف الأسنان الباقية بيضاء كاملة، عظمية البياض. لا صُفرة عليها ولا سواد. (لا يأكلون شوكولا تحت ولا بقلاوة. لا سكر عندهم. لكنني شربت في بيت «الرسّام» الذي يعيش على حافة النهر شراباً حلو المذاق. سألته عنه، فقال إنه الشراب المعهود لكنه محلى. سألته كيف يُحلّونه، فحدثني عن جذرٍ نادر ثمين ينبت في سقوف محددة: يقطعون الجذر في منتصف موسم الجفاف ثم ينقعونه في الماء حتى يطرى ويتفرع ويصير كالخيوط. بعد ذلك يجفّفونه، ويفركونه. فيصير سكراً!).

كان العجوز يتحدث وأنا أنظر إلى وجهه ثم إلى عمامته ثم إلى الساعة المعطلة على الحائط الأبيض ثم إلى القنديل الذي لا يُشعل أبداً. النور يتموج (تيار هواء يدخل من ممرات غير مرئية، ويُخيل إليّ أحياناً أنني أسمع موج البحر. أذكر ذلك أمام أهل البيت فيقولون أن هذا صعب لأن البحر بعيد من هنا. أقول هذا صوت ماء، أليس صوت ماء؟ فيقولون أن المكان مملوء بالآبار والجداول الجارية في الصخر، خفيَّة!).

قال إن البعض يعتقد أن حياة هذه المدينة بدأت في ذلك العهد وأن هؤلاء الجرحى الذين هربوا من المذابح والنار (يروي أنه في

طفولته، أول سماعه تلك القصص، كان يحسب أنهم هربوا من براكين انفجرت وأحرقت بيوتهم وحقولهم وطمّرتها بالسيول والرماد... ولم يعرف أنهم تهجّروا بسبب الحرب إلاّ حين كبر.)، هؤلاء المهجّرون من جبالٍ بعيدة هم الذين أسّسوا «بيروت». لكنه يعرف من النقوش في القاعات القديمة، وعلى البلاطات الباقية في «حيّ المناجم» وفي «حيّ العميان» وفي «حيّ زوفا» وفي «وادي الملح»، أن المدينة أقدم بكثير. قبل ذلك العهد كانت أصغر ربما، وأقل بيوتاً (يقول لي: لا بدَّ أنك تراها كالأوكار!).

سألتُه عن «ناس الوحل». قلت إن كثراً حدثوني عنهم (ذلك المنام الذي يعاودني: الأجسام التي تقطر وحلاً، والوجوه البائسة المريضة!)، لكن الفلكي سلمان قال لي إنهم غير حقيقيين!

ابتسم المؤرخ العجوز وقال إن صديقه سلمان «ليس من هذا العالم». قال إنه «يحيا في الخرائط» فقط، ومع أنه يعرف كيف يمشي في هذه الطرقات «مظلمَ العينين» من دون أن يضيع لكنه لا يعرف شيئاً عن «الأقاليم وراء السور»!

وجدتُ عبارات المؤرخ غريبة. وفكرت أنه هو أيضاً ليس من هذا العالم. إذا كان الفلكي يحيا في الخرائط، فهو يحيا في النقوش.

بانت راحيل في المدخل الداخلي لحظة ثم اختفت. وسمعتُ الهمس مرة أخرى. الوقت تأخر، الشموع أوشكت على الانطفاء، والمؤرخ ثابت على المقعد، بجسم لا يتململ. وخُيل إليّ أنني أسمع طنيناً من هناك، حيث راحيل والشيخ إسحاق. (هذا الصوت كثيراً ما أسمعه ولا أدري ما هو. ليس طنين نحل، وليس أزيز بعوض، فماذا يكون؟ لا نحل هنا ولا برغش. لم أرَ طوال وقتي «تحت» برغشة واحدة. كيف لا تدخل الحشرات الطائرة عبر

شبكات التهوئة؟ هل زوّدوا المخارج بشبك حديد صغير الفتحات، مربعاته دقيقة؟ من أين جلبوا هذا الشبك؟ بعد وقتٍ سأدرك السرَّ: معظم المخارج في شبكة التهوئة موجودة عند الكهوف البحرية. الكهوف تستوطنها الوطاويط. والوطاويط تتغذى على الحشرات الطائرة. عباس الصياد سيخبرني عن حوادث اختناق في بعض البيوت وعن ناسٍ ماتوا بسبب هذه الوطاويط: مرات تتكاثر في مخارج الهواء وتسدّها! قال إنهم في أيام جدّه كانوا يخرجون ـ يقصد «الحراس» ـ أول كل موسم جفاف لتنظيف المخارج من الوطاويط. لكن هذا توقف منذ إقفال «باب البحر». سألته ماذا يحدث الآن إذا سدّت الوطاويط الهواء عن بيتٍ من البيوت، ماذا يصنع أهله؟ أشار إلى بيت مظلم النوافذ كنّا نعبر أمامه ـ بيت يتداعى ـ وقال إنهم «يهجرونه إلى بيتٍ آخر». هناك بيوت كثيرة فارغة، ينتقلون إليها ويرممونها، «هذا هو الحل الوحيد»!

كلام عباس ذكّرني ببيتنا في الجبل وبذلك الصباح الحزين ـ مطلع سنة 1984ـ حين عرفنا أنهم نسفوه بالديناميت. لماذا ينسفون بيتاً فارغاً؟ أليس أفضل أن يسكنوا فيه؟ سائق التاكسي الذي حمل الخبر إلينا في بيت خالي في «مونو» قال إنهم ينسفونه لهذا السبب بالذات، وينسفون كل بيوت المسيحيين في الجبل: لا يريدون أن يأتي آخرون «من خارج المنطقة» لإحتلال هذه البيوت! من منازل ديردوريت كلّها لم يبقَ منزلٌ واقفاً!).

سألت المؤرخ هل رأى بعينيه «ناس الوحل»؟

قال إن أخاه الذي مات قبل سنين رآهم مرة. ثم قال إن خبرهم منقوش في الحجر وأن أجداده كانوا يعرفونهم ويعيشون معهم، ذلك أن ناس الوحل كانوا أصلاً من أهل بيروت. وما حدث هو أنهم اضطروا للخروج إلى وراء السور.

سألته عن السبب، لماذا يخرجون؟

أجـاب أنـهـم «طُـردوا طـرداً». قـال إن ذلـك حـدث «سـنـة الطاعون». قبل زمنٍ بعيدٍ من «المجاعة البرّانية» (ذكر عابراً إن هذه المجاعة سبّبت ازدحاماً هنا: «موجة ثالثة» من وافدين سُمر هبطت إلى هنا. كانوا يموتون جوعاً «فوق» بعد أن أكل الجراد حقولهم. نزلوا ببطونٍ منتفخة من شرب الماء، وعظامهم ناتئة كالخناجر من جلودهم. هنا وجدوا سمكاً أعمى، وجذوراً، وبيوتاً لا تدخلها الأمطار!). في عصورٍ سحيقة، أصاب الوباء «مزارع السمك». كانوا يرفعون السمك من الأحواض العميقة فيجدون الحراشف الفضيّة ـ الزرقاء قد تغطّت كلّها بالحبوب القاتمة المتورمة: حبوب الطاعون! وكل من تجرأ وأكل من ذلك السمك المريض فارق الحياة، أو جُنَّ. كان الجوع فظيعاً، وداخل «الباب الطيب» ـ في «حيّ العميان» الذي كان عندئذٍ يُسمى «حيّ النبلاء» ـ أخذ الأهالي يأكلون الوحل. الوحل هناك، مثل الوحل في أي مكان آخر، لا يؤكل. لكنه صار طعامهم. في ذلك الحيّ توجد بئر حلوة المياه. الماء فيها شديد الحلاوة. ربما هذا ما جعل الوحل فيها سكري الطعم. وما جرى أن الناس ـ حتى بعد انتهاء الطاعون ـ ظلّوا يأكلون الوحل من حين إلى آخر. ثم حدث ذلك الأمر المخيف الغامض: امرأة مشهورة بجمالها وسُمنتها وضعت طفلاً من وحل! كان أمراً لا يُصدق. ثم تكرر ذلك مع جاراتها. وأطفال الوحل كبروا وصاروا يهاجمون البيوت في الأحياء المجاورة ويأكلون حيطانها! هذا منقوش في ألواح الحجر. البعض يصدقه والبعض لا يصدقه. لكنه مكتوب. «أنا لا أخترعه». ثم اجتمع أهل بيروت، تسلحوا بالحجارة، طردوا أهل «حيّ النبلاء» إلى خارج الأسوار، وأقفلوا «الباب الطيب».

سألتُ المؤرخ هل يوجد عدد كبير منهم؟

قال إنه لا يعرف. لكنهم ليسوا بشراً مثلنا، قال. وقال إنهم كالتماثيل لأنهم إذا وقعوا عن حافة عالية تكسّروا. فإذا انكسروا ماتوا. وقال إن قلوبهم وأكبادهم ومعدهم ورئاتهم وطحالهم وكل الأعضاء الداخلية فيهم معمولة من الوحل. (حين وصف لي أشكالهم وجدتها متطابقة مع منامي. وحين وصف لي عباس الصياد «رجل وحل» حاول مرة تسلق الأسوار والتسلل إلى بيروت وجدته أيضاً يتطابق مع رجال الوحل في منامي، مع استثناء واحد: قال عباس أن رجل الوحل ـ الذي رآه بعينيه الاثنتين ـ كان بأصابع من حجارة. لم تكن كل أصابع يديه حجراً. كانت وحلاً أصابعه، لكن عِقَد الأصابع كانت متحجرة مثل الصدف! وهو ـ عباس ـ طرق «الرجل الوحل» على رأسه بصخرة فهوى من أعلى السور ووقع وغاب في الظلمة.).

تلك الليلة سألت المؤرخ مسعود (مع أن ذكرياتي تتشابك أحياناً، فأنا ـ على الأقل ـ متأكد أنني سألته هذا السؤال في تلك الليلة الأولى): هل كان يعرف إيليا الصياد، وماذا جرى له؟

ـ إيليا أخذه ناس الوحل.

سألته لماذا يقول هذا؟

قال إنه متأكد من هذا لسببين: أولاً أخبره به واحدٌ من «الصيّادين» لكنه لا يستطيع أن يذكر اسم هذا الصيّاد. وثانياً: هذه ليست أول مرة تخسر فيها بيروت صيّاداً حارساً يحرس المدينة من الأعداء.

وسكت العجوز لحظة ثم أضاف ـ وكأنه فكّر في هذا للتو ـ سبباً ثالثاً: «واحد يملك ما يملكه إيليا الصيّاد لا يختفي بإرادته».

عرفتُ أنه يقصد ياسمينة. وبقيتُ ساكتاً.

❊

حين قام ليغادر وهو يلفّ العباءة الخشنة عليه ويربطها بزنارٍ خشن انتبهت إلى ندبة على رقبته: تحت الأذن اليسرى. ندبة طويلة، حُمرتها معتقة داكنة. وقف وهو يودعني بتحية المساء المعهودة عندهم، ثم دفع يده تحت العباءة فجأة (كأنه يريد أن يحكّ موضعاً يزعجه) وأخرج قبضته مضمومة ثم فتحها، وقال باسماً بفرحٍ طفولي:

ـ لك، هدية!

نظرت، فرأيت بيضة! بيض دجاج!

❊

لا عملة نقدية «تحت» إلاّ الصَدَف البحري. منذ أقفلوا «باب البحر» صارت هذه الأصداف المحدودة العدد في البلد عملتهم النقدية الثابتة القيمة. السمكة الكبيرة مثلاً يشترونها من السوق بصدفة واحدة حمراء اللون. (هذه «الحمراء» تساوي عشر صدفات صفر. والصفراء تساوي عشر صدفات بيض. وهناك صدف أزرق ـ لكن هذا قليل ـ والصدفة الزرقاء تساوي عشر صدفات حمر.) المكيال من طحين السمك يشترونه بسبع صدفات صفر (سأعلم بعد شفائي أن «طحين السمك» يكون مخلوطاً بجذور معينة مطحونة، لونها يضرب إلى السُمرة، ورائحتها تشبه الكستناء). أذكر كل هذا الآن من أجل تلك البيضة: بيضة الدجاج «تحت» ثمنها خمس «حُمريات». (أي أن البيضة بسعر خمس سمكات كبيرة!) وسبب غلاء البيض عندهم أن الدجاج غير موجود إلاّ في حيّ واحد عند طرف المدينة الشرقي، ليس بعيداً عن «المناجم». ولا يُسمّون الحيّ

المذكور «حيّ الدجاج»، لكنهم يسمّونه «حيّ البيض». ولا أعرف لماذا لا يتكاثر الدجاج في بلدهم أكثر، مع أن طعام الدجاج وافر تحت: كل ذلك الدود الذي يسعى في جوف التراب!).

❊

«حيّ العميان». . . ذكره المؤرخ تلك الليلة ذكراً عابراً. ولم تكن المرة الأولى التي ورد فيها ذكره على ألسنة ضيوفي (أسمّيهم «ضيوفي» لأنهم منذ خرجت من غيبوبتي ـ أنا «الوافد» الذي قضيت موسم الأمطار بطوله نائماً كدبٍّ من الدبّبة ـ وهم يأتون لزيارتي والتسليم عليّ. وكلّما خرجت منهم جماعة ـ وقامت راحيل إلى مكنستها تكنس الأتربة التي حملتها نعالهم إلى البيت ـ دخلت جماعة أخرى جديدة لتُلقي نظرة عليّ.). في البدء لم أهتم لتكرار اسم هذا الحيّ. لكنني ـ بعد ذلك ـ بدأت ألاحظ أن الوجوه تبدو متوترة عند لفظ هذه العبارة: «حيّ العميان». في البدء فكرت أنه حيّ يسكنه العميان. وبعد ما ذكره المؤرخ عن ناس الوحل والطين الذين أقاموا في الحيّ قبل سنوات بعيدة، فكرت أن هذا هو سبب التوتر الذي أراه على الوجوه كُلّما ذُكر «حيّ العميان» خلال الحديث. في رأسي تشكلت سيرة الحيّ هكذا:

قبل دهرٍ كان يُسمى «حيّ النبلاء». حين هجره أهله ـ لسببٍ من الأسباب ـ بقي فارغاً مهجوراً. وبعد زمنٍ نزل فيه عجائز عميان بلا بيوت. فصار الحيّ يحمل صفة أهله.

بدا هذا منطقياً. لم أكن أعلم حتى تلك اللحظة كيف سينكسر قلبي (كيف ستغشى الظلمة عينيّ) حين أعرف سرّ ذلك الحيّ: حين أدخل إلى ساحة الحيّ، وأرى ـ بين وجوه العميان ـ ذلك الوجه الحبيب.

❊

لا أريد أن أقفز في قصتي. أريد أن أُخبر ما حدث لي، ما رأيتُ وسمعتُ وعرفتُ، بالتتالي الزمني البسيط الذي لا يُسبب حيرةً. قلتُ من قبل إنني أحبّ كل ما هو كلاسيكي مرتب. ولن أُبدل أقوالي الآن. ليس بعد هذه الأحزان كلّها. ليس بعد أن ابيضَّ شعر رأسي، وصرتُ كيساً من عظام.

*

انطفأت الأنوار ونام البيت. الشيخ إسحاق يشخر في الزاوية شخيره اللطيف (أذكر من طفولتي في الجبل زريبة البقر في فصل الشتاء. زريبة تبعد عن بيتنا مسافة قصيرة، كنتُ أذهب إليها مع أبي لشراء الحليب. بيت صاحب الزريبة يجاورها. أقف في مدخل البيت وأرى دلاء الحديد المصفوفة أسفل الحائط. من إحدى النوافذ أرى أن الدلاء الحديد الطويلة ذات الأغطية الحديد تملأ البيت كلّه: بين الفرشات والكراسي والكنبات الخشب العتيقة والطاولات، وأينما نظرت، ترى دلاء الحليب. لا يُسمح لي بدخول الزريبة حيث الأبقار. لكنني ذات مرة أدخل. لا أدري كيف سُمح لي بالدخول في تلك الظهيرة الشتوية بالذات، لكنني لا أنسى ذلك المنظر أبداً. إنها إحدى الذكريات القليلة في رأسي من ذلك الزمن البعيد. فُتح الباب القديم المنفوش بسبب الأمطار ودخلت. رأيت بقرتين ضخمتين. بقرة بيضاء عليها رقع بلون الفحم. وبقرة سوداء عليها رقع بلون الثلج. البقرتان تنظران إليّ حين أدخل. رائحة المكان رطبة دافئة، سكرية. في أحد جوانب الزريبة أرى خشباً محطماً يدخل منه النور الأبيض. المكان شبه مظلم، إلاّ هناك: حيث الفجوة. أذكر أيضاً المرأة ـ زوجة صاحب الأبقار ـ تقترب مني (أذكر اسمها: جوليا) والمنديل الأبيض الطويل يخفي شعرها ووجهها. تحمل دلو حليب على وجهه رغوة. وتغرف لي

بكوب معدن حليباً وتقول شيئاً: تريدني أن أشرب هذا الحليب الفاتر الذي خرج من ضرع البقرة للتو. وأنا أمدّ يدّي ـ مملوءاً بالسرور في هذا المكان الدافئ الحلو شبه المعتم، والبعيد من الأمطار والرياح ومنظر تلك الدلاء الكئيبة الموزعة في جميع أنحاء البيت الفقير ـ أمدّ يدّي وآخذ الكوب وأشربه كلّه. أشربه وصوت الهواء العاصف البعيد يمتزج في أذنيّ بصوت الخشب الذي يطرطق وبشخير ثور ـ لا أراه، الثور نائم وراء أكوام التبن ـ شخير منتظم خافت، شخير لطيف لا ينقطع.).

أنظر إلى الحائط الأبيض يلوح لي في الظلمة الكاملة. أقدر أن أحدد مكان القنديل على الرفّ الحجر. أنتظر ياسمينة قاعداً في السرير، أمرن رقبتي وذراعيّ، محاذراً أن أصدر صوتاً فأوقظ مضيفي، أو أوقظ راحيل النائمة في غرفتها، الغرفة الساكنة الآن، بلا طنين أو أزيز. (ليس طنيناً، وليس أزيزاً! يشبه خرير الماء. لكنه ليس خريراً أيضاً! ماذا يكون؟).

كنتُ واثقاً أنها ستأتي. هناك أحاسيس تسيطر علينا ونعرف أنها لا يمكن أن تكون خطأ. كنت أعلم أنها ستأتي هذه الليلة أيضاً. (أعلم ذلك كأنها ما زالت جنبي في الفراش، كالقطة البردانة تفرك جسمها عليّ لتدفأ). كنت أتخيلها تقطع الجسر على النهر الذي جفّ (أحد زُواري أخبرني عن الضفادع هناك، ونقيق الضفادع الخافت في الليل، فقلت له أن الضفادع في العالم البرّاني نقيقها قوي، ليس خافتاً أبداً!). أتخيل الضفادع تتقافز أمامها وتفرّ (لا يأكلون هذه الضفادع. ولونها ليس أخضر. بل رمادي ضارب إلى سواد. مخططة بالأصفر عند بطونها، ولحمها الطري يسبب اسهالاً غير قابل للشفاء). الدهاليز المظلمة تتفرع أمام قدميها، متاهة معتمة لا أدري كيف لا تضيع فيها، ولا أدري كيف تصل... لكنها مع

كل ذلك تصل. (لا أقدر الآن أن أتذكر بالضبط الأحاسيس المتناقضة التي اجتاحتني تلك الليلة وأنا أنتظرها. بلى، بالتأكيد، قلت في سرّي أنها لن تأتي أبداً. كانت مرة، ولن تتكرر. أخذتني إلى الجنّة مرة، من جهنم هذه حملتني إلى الجنّة. من الأرض إلى السماء رفعتني، وأنا لا أصلح لشيء، وهذا لن يحدث ثانية. هذا أمر لا يحدث، ولا أفهم كيف حدث، ولن أفهم. لماذا جاءت إليّ، من أنا؟ كنت أسأل نفسي، وكنت في تلك اللحظة أحسّ العرق يسيل على ظهري وأفكر: لا، لا لن تأتي مرة ثانية، ولعلها أمس أيضاً ما جاءت، ولعلني رأيتها في المنام! لكنها جاءت. وأنت تدري، وهذا الجسم النحيل ـ الذي هو جسمك أنت الآن ـ هذا الجسم يدري! كيف تنسى يديها على عظامك، على زندك، على كتفيك، على عمودك الفقري، تُحصي الفقرات فقرة فقرة بأصابعها الساخنة. لا، لا تنسى. لم تكن حلماً! لكن هل ترجع؟ إذا كانت أتت مرة، فهل تأتي مرة ثانية؟ ولماذا لا تأتي؟ كانت أناملها متمهلة على جسمي، بطيئة، تأخذ وقتها. لم تكن متعجلة. هل أرادت هذا مرةً يتيمةً؟ ستأتي. ولكن ماذا لو لم تأتِ؟ ماذا سأفعل؟ هل أحكي لراحيل؟ هل أسكت؟).

لا أقدر أن أتذكر أفكاري كلّها تلك الليلة، وأنا أنتظر ياسمينة، لأن تلك الليلة ستتكرر أكثر من مرة واحدة. حين تعيش تجربة واحدة مكرورة على مسافة أيام طويلة تختلط الذكريات في قلبك ورأسك. (وأنا أعرف هذا جيداً ـ ومنذ زمنٍ غامضٍ بعيدٍ ـ فكل حياتي تقريباً كانت هكذا. حتى أنني في أيام الدراسة الجامعية ـ أنا الحارس تخرجتُ من جامعة، بلى، الجامعة اللبنانية، «كلية الفنون الجميلة» على «الرملة البيضاء» ـ كتبتُ موضوعاً أثار إعجاب أستاذي عن حياتي بين 1983 و1990، وكيف أنها عبارة عن نهارٍ

واحد أُكرره في أدق تفاصيله يوماً بعد يوم. الأستاذ أراد أن ينشر الموضوع في إحدى الصحف، ما زلتُ أذكر هذا. وبعد هذا «الموضوع» صار يسألني ماذا أريد أن أفعل بعد الليسانس؟ وهل أنوي أن أدرس دراسات عليا؟ واكتشفت من أسئلته أنه يقدر أن يُدبر لي منحة إلى الخارج (إلى برّا)، إلى باريس أو ليون في فرنسا. لم تكن تلك المرة الأولى. قبل الجامعة اللبنانية درستُ وقتاً في الجامعة الأميركية. أبي أصرّ عليّ أن أدخلها. كان جرَّب قبل ذلك تعليم أخي في «الأميركية». حتى أنه باع «أرضنا» في الجبل من أجل ذلك. لكن أخي بدّد مال القسط من وراء ظهرنا. سأحكي عن هذا فيما بعد. لكنني أريد أن أصف هنا اليوم الواحد الذي كان حياتي منذ نزولنا إلى بيروت وحتى دخولي إلى الجامعة. لا أريد حتى أن أصف النهار كلّه ـ هذا غير ضروري ـ بل أريد أن أصف ذلك القسم الطويل منه الذي كان يُميزه ـ على نحوٍ ما ـ عن نهارات رفاقي ومعارفي. أريد أن أقول هذا لسببين: أولاً لأنه يهمّني كثيراً. ثانياً: لأنني تذكرته أثناء الليالي المعتمة «تحت»، ليالي الانتظار والترقب، قاعداً في الصمت والوحدة، أنظر إلى الحائط الأبيض الغارق في الظلام.).

*

من 1983 إلى 1990: تهجّرنا من الجبل فخسر أبي الأرض والبيت والحقل والسماء والعصافير وصياح الديك ونهيق الحمار. خسر أبي راحة البال، لكنني ربحت سماء أخرى، سماء لم أكن أعرفها، سماء مخفية تحت الأرض.

من 1983 إلى 1990 كانت هذه حياتي: الزمن زمن حروب تشتعل ثم تهمد، والمدارس في معظم الأوقات معطلة. المعارك

على المحاور، والقصف يسقط على بيوتنا بين حين وآخر. لكننا، مع ذلك، نخرج إلى الشوارع. الأولاد في الشوارع، وأنا لست معهم.

من 1983 إلى 1990 عشت القسم الأطول من نهاراتي تحت الأرض، في صالات السينما. أدفع ثمن تذكرة واحدة عند العاشرة صباحاً، وأهبط إلى سينما العروض المتواصلة. أُخفي تحت معطف أبي القديم الذي صرت أملؤه بجسمي، أُخفي زوادة النهار: سندويشات مرتديلا وجبنة، شوكولا، وبزر دوار الشمس. بعد وقت أبدأ بانزال سجائر أيضاً، وقنينة نبيذ، وأحياناً بيرة. البيرة تفتر سريعاً، لا تبقى طيبة. أفضل النبيذ الأحمر. أبقى «تحت» حتى نهاية العروض بعد الغروب. لا أنسى ذلك الدرج الطويل القديم، بالمخمل الذي تبقّع وتمزق، تفوح منه رائحة عطنة. أسدّ أنفي وأنا أنزل إلى الصالة. (الناس الطالعون من «تحت» يفتحون عيونهم ويغمضونها. نادراً ما ألتقي أحداً على الدرج. هذا يحدث فقط إذا تأخرت إلى الظهيرة قبل أن أجيء. نتجنب تبادل النظرات. ندخل ورؤوسنا في الأرض. ونغادر هكذا أيضاً. لا أحد يدخل - ويخرج - في جلبةٍ، إلاّ المسلحون. هؤلاء لا يُخفون شرابهم في ثيابهم. ولا يدفعون ثمن تذكرة.) المقاعد نصفها محطم. وبعضها أكلته النار، لونه أسود، ومرات ترى حديداً سال وتجمد. رؤوس قليلة تتباعد في العتمة، شبه خفية (هذه صالات سيئة السمعة، تعرض «قطشات بورنو» بين الأفلام). أحفظ كل ما أراه من أفلام فرنسية وأميركية وهندية مع أن نصفها يكون مقطوعاً أو فاسد الصورة أو بلا صوت. إحدى زوايا الشاشة مثقوبة، إذا مشى ممثل إلى هناك فقد رأسه. نظل نسمع صوته وهو بلا رأس. أحفظ المدن الأجنبية وأعبرها في مناماتي. أحفظ كل الصور التي أراها، مع أنني في

البدء أُصدم ـ أنا الجبلي ـ بمنظر الأعضاء التناسلية عارية هكذا، مفضوحةً، في نور الشاشة.).

أذكر القعود تحت، الظلام وعمود النور فوق الرؤوس تتراقص فيه ذرّات الغبار، والنوم تحت، والاستيقاظ ورؤية الصور ذاتها على الشاشة (الأفلام ذاتها يعرضونها يوماً بعد يوم بعد يوم. أفلام أحفظها صورة صورة، مشهداً مشهداً، تفصيلاً تفصيلاً. أتوقف عن متابعة الحوارات، أو ما يحدث، وأبدأ بإحصاء الورود في مزهرية في مشهد من المشاهد. أحصي سبع ورود ثم تختفي المزهرية وتظهر صورة أخرى. أنتظر أربع ساعات أو خمساً ـ ها نحن عند العصر؛ أعرف أنه العصر لأنني أحمل ساعة ـ فيُكررون عرض أفلام الصباح وتعبر المزهرية من جديد فأكمل إحصاء الورود. أصل إلى الرقم «تسعة» هذه المرة. غداً، سأتابع العدّ.) شُرب النبيذ يملأ عينيّ نعساً. شرب البيرة يدفعني إلى الحمام. أتجنب دخول الحمام، لا لأنه شديد الاتساخ، بل بسبب العجائز الذين أعثر عليهم واقفين هناك، أمام مغاسل التبول، رؤوسهم تكاد تسقط على الأرض وهم يفكّون أزراراً ويبكلون أزراراً. شعرهم مكلّل بالأبيض، ولا أدري لماذا يجيئون إلى هنا. أسمع لهاثهم أثناء عروض «البورنو»، فأُغير مكاني إلى حيث لا تصلني الأصوات. أعثر على زاوية تفحمت مقاعدها. وراء منطقة المقاعد المحروقة هذه أجد مقعداً في حالٍ معقولة، ظهره غير مكسور. أفرش عليه جريدة، وأجعله مقعدي. قربي حائط يرشح بين حين وآخر. لا علاقة لهذا الرشح بالمطر. مرات يرشح شتاءً، ومرات يرشح صيفاً. رشحه يتعلق بأنابيب داخلية. بين المقاعد المحترقة ـ أمامي مباشرة ـ مقعد رقمه 314 يلمع في نور الكبريتة كلما أشعلت سيكارة. لا أنسى هذا الرقم أبداً، لأنني ـ أنظرْ الحياة الغريبة! ـ

سأفقد أكثر إنسان أحببته في هذا العالم، في غرفة مستشفى تحمل الرقم نفسه: 314!

*

تلك الليلة، الليلة الأولى من الانتظار محدّقاً إلى الحائط الأبيض. . . كنت فقدتُ الأمل، وأخذت أنعس، وأنام قاعداً في الفراش حين سمعتُ النشيج البعيد. ظننتني أحلم. فتحت عينيّ فانقطع الصوت. ثم فجأة ارتفع. كان النشيج يقترب كما في الليلة الفائتة. ثم ساد السكون، ورأيت طيفاً أبيض ـ أصفر البياض مثل لبنٍ حامضٍ تُرك خارج البراد ـ ينفصل عن الحائط الأبيض. في الظّلام رأيتها وعرفتها. رأيت ثوبها يقع عن كتفيها وسمعت تنهيدة بينما أزيح الغطاء واستقبلها في سريري. كان الدمع يبلّها. وأبعدت القماشة عن رأسها، فسقط الشعر وغطى وجهي. كيف أنسى تلك الرائحة؟ وكيف أنسى تلك الأنامل الحارة في الظلام؟

*

ليلة بعد ليلة بعد ليلة. أنتظرها وأنتظرها وأنتظرها. وكل ليلة أقول: قد لا تأتي هذه الليلة. وكل ليلة تأتي. تنام معي ولا تتكلم أبداً. أهمس اسمها همساً، خائفاً أن أوقظ أهل البيت. وأريدها أن تهمس ـ في أذني ـ اسمي. لكنها تُسكتني. تُسكتني بأصابعها. ولا تتكلم. قبل أن يعلو شخير الشيخ إسحاق عند الفجر، تقوم.

كم ليلة عبرت هكذا، لا أدري! في الليلة السابعة (لعلها الخامسة أو التاسعة! هل أقدر أن أقول واثقاً أنها كانت السابعة؟)، في الليلة السابعة كانت أشدّ حرارة، كأن ناراً تتقد في جوفها. خفتُ قليلاً وهي تلتف على أعضائي بأعضائها. أحسستُ جسمي يتداخل بجسمها: عظامي تنزل فيها، وعظامها تنزل فيّ. خفتُ ثم

تلاشى الخوف، كغيوم صيفٍ بلون الحليب تتلاشى في سماء ساطعة زرقاء. تلاشى الخوف وملأني أمانٌ لا نهائي. كانت تعانقني، وكنتُ بلا ألمٍ. زال الوجع من بدني. عدتُ صحيحاً. كأنني لم أقع يوماً ولم انكسر.

وللمرة الأولى منذ بدأتْ زياراتها الليلية، سمعتُ صوتها:

ـ هل تأخذني معك، هل تأخذني معك إلى «برّا»؟

تُباغتني راحيل بتحذيرٍ هامسٍ، وهي تساعدني على تحميم رأسي بماء حارٍ:

ـ لا أحد يطلع منا إلى «برّا» يا بطرس، لأننا لا نقدر أن نحيا «برّا». عليك أن تتذكر هذا. هنا لا نرى نور الشمس. فإذا خرجنا إلى «برّا» في النهار أظلمت عيوننا. بعد ذلك لا نقدر أن نرى أبداً.

لا أدري ماذا أردّ عليها فأبقى ساكتاً. الماء حار على رأسي وأذنيّ ورقبتي، لكنه لا يضايقني. لا يضايقني لأن الجو يتبدل بمرور الأيام. موسم الجفاف ينتهي وموسم الأمطار على الباب. هذه نهاية الخريف «فوق». وعما قليل يبدأ الشتاء. (أذكر أبي واقفاً في مدلخ البناية في «عبد الوهاب الإنكليزي» يردّ على تحيات الخارجين والداخلين بينما جسمه يتضاءل في ثيابه، ينكمش أكثر فأكثر حتى يوشك على الإضمحلال. لقمة العيش اضطرته للعمل ناطوراً. هو الذي عاش حياته يزرع الحقول ويقطف المواسم صار يفتح باب كاراج البناية الباطون الشاهقة، ويُقفل الباب. يكنس البلاط حيث يلعب الأولاد. يتأكد من خطوط الكهرباء المعلقة كالأفاعي فوق غرفة المحرك الكبير، غرفة حديد سوداء تنفث سحابات مازوت أشد سواداً وتُسبب له سعالاً. أذكره واقفاً ينظر

إلى حوضٍ يبست فيه شتول عطر زرعها، اصفرّت مع أن يده خضراء، لا أحد يدري كيف اصفرّت وماتت. ينظر إليها نظرة تكسر القلب ويقول إن هذه المدينة بلا فصول، وليس فيها لا خريف ولا ربيع، بل فصل صيف حار رطب، وفصل شتاء بارد ماطر. ليس فيها فصول. أين الخريف ونسائم الخريف، أين الربيع وروائح الربيع! كان يحنّ إلى حياته القديمة في الشوف (الجبال الخضراء تجري فيها الينابيع، يقول إنها الجنّة، ولا يطيق ذكر «القوات اللبنانية»، هؤلاء «التيوس من الساحل»، يُسمّيهم، من قال لهم أن يأتوا ويدافعوا عن المسيحيين، ولماذا يدافعون عنا، ألم نكن نحيا حياة طيبة في بيوتنا والحقول؟).

أُنشّف شعري وأنا قاعد على حافة السرير. صرت أطوي جسمي وأقعد هكذا. لا أفعل هذا وحدي. يساعدني مضيفي الشيخ إسحاق، أو حتى ابنته راحيل. سهل أن تساعدني لأن وزني خفيف. (فوق، صيفاً شتاء، كنتُ ثقيلاً. كانت جاذبية الأرض تشدّ لحمي وشحمي نزولاً، نزولاً إلى أعماق الأرض. حين انتقلنا من بيت خالي أعلى «مونو» إلى بيتٍ آخر (الطابق السابع في بناية ثمانية طوابق) أسفل الشارع ذاته، تُجاور «فرن ميخائيل» وتطلّ نوافذ درجها الطويل على جسر فؤاد شهاب، حين انتقلنا إلى هذه الشقة الضيقة العالية فكرت أن عليّ منذ الآن أن أُخفف وزني. الكهرباء تظلّ مقطوعة، والمصعد لا يعمل. بينما أطلع الدرج في الصيف ينضح مني العرق كأنني أسبح. حين أصل إلى فوق أمكث لاهثاً أمام الباب قبل أن أفتحه. النفس كلّه خرج من صدري. أحتاج إلى هواء. كأنني أختنق. أقطع صحن الدرج إلى الجهة البعيدة عن باب بيتنا. أجاوز أبواباً كثيرة، أعرض من بابنا، بطلاءٍ لامع، عليها سلاسل حديد وأقفال ضخمة. أجاوزها حتى أبلغ المنور. من هنا

أرى الجسر المحطم الدرابزين لا تعبره سيارة واحدة. المعابر بين شطري العاصمة مقفلة. القصف يشتعل ثم يهمد. القنص يقتل كل عابر. ووراء الجسر أرى البنايات، مشلعة النوافذ، عالية، شبابيكها باردة مظلمة كعيون الغول تحدّق إليّ ولا تراني. بين البنايات تنتشر المستنقعات، وفي الليل يرتفع نباح الكلاب كأنها قطيع ذئاب، تعوي دفعة واحدة. من ذلك المنور لا ألمح قبّة سينما سيتي بالاس البيضاء. لكنني إذا صعدت إلى الطابق الثامن (المهجور والمقفل الأبواب بالسلاسل هو أيضاً) أستطيع أن أراها، وراء العمارات. المنور فوق تحطم زجاجه المحجّر. قبالة دائرة المنور تماماً، في الجدار الداخلي، تقشّر الطلاء البارق الزرقة. على الأرض شظايا صغيرة لم يلمّها أحد. حديد مهشم قاتم اللون.

لا يلمّ الشظايا أحد، لأن أحداً لا يطلع إلى هنا. وأنا لا أقدر أن ألمّها. لماذا أريدها أصلاً؟ ألهث وأنا أنزل الدرج أيضاً. الشحم طيّات على رئتي. يقول لي أبي أن أنتبه لغذائي، لكنه لا يلفظ هذه الكلمات إلاّ باسماً. «فرن ميخائيل» المجاور على بابه لافتة نحاس (لافتة معدن بلون النحاس) مكتوب عليها أنه تأسس سنة 1929. أمرّ عليه في الصباح على طريقي إلى المدرسة، إذا كانت المدرسة مفتوحة. أحبّ فطائر السلق والجبنة التي يعملها. يسألني عن أخي وأبي. أعلم أنه يرى أبي دائماً. لكنه لا يريد أن يسألني عن أخي ويسكت. صار أخي معروفاً في الحيّ. وصرنا مثله: يعرفوننا! في الليل، وأنا أتمدد في فراشي ـ وأقرأ على نور الشمعة ـ أكون في انتظار رجوعه. أقرأ، وأبي يمشي ذهاباً إياباً في الغرفة المجاورة. أسمع حفيف خطوته. أسمع القداحة حين يشعل سيجارة. أسمع النفس اللاهث في صدره («طرف ربو» بدأ يمنعه من النوم. عليه أن يكفّ عن التدخين، هكذا قال له جارنا الطبيب

الصامد في هذه البناية جنب جسر فؤاد شهاب الذي يُقصف كثيراً. «التدخين يعمل لك هذه النوبات»، قال الطبيب. وأبي الذي يُدخن منذ أول شبابه، كان يقول إن الدخان وحده يُدخل الهواء إلى صدره هنا، في هذه المدينة.) يتأخر أخي قبل أن يرجع. ومرات لا ينام في البيت. خلال جولات القصف العنيفة ننزل إلى أسفل البناية. تأتي عائلات من بناية أخرى مجاورة لا ملجأ فيها. هذه البناية ـ بنايتنا ـ صار مدخلها ملجأ: نُزِع الزجاج من بوابتها الحديد، ورُصف أمام البوابة صف من أكياس الرمل، وفوق الصف صف آخر. هذا الحائط من أكياس الرمل جعل الطريق أضيق. باتت العربات العسكرية إذا مرّت من هنا تُسقط بعض أكياسه. وفي كل مرة نبني الحائط من جديد. وبينما نبنيه أسمع لهاث أبي. العرق يتصبب من وجهه وكل الوقت يشتم «الكتائب». أرجوه أن يطلع إلى البيت ويرتاح. أخاف أن يسمعه أحد. يحبس الكلمات بين أسنانه. أسمع أسنانه. أسمع الصرير. وأسمع فوران الدم في عروقه. أخاف عليه، أخاف على قلبه. أرجوه أن يطلع إلى البيت. يهدأ حين ينتبه إلى رجفة صوتي. أعلم ما يؤسيه: هؤلاء الذين لا يطيقهم، «تيوس الساحل» الذين منذ رآهم في الجبل ـ يعبرون أمام البيت في «بيك ـ آب» مكشوف، وأمامهم تزحف بليدةً دبابة «ميركافا» ـ حدس بأيام سوداء آتية، هؤلاء الشباب الذين يقهقهون ويطرطقون بسلاحهم ويقفون على الحواجز وهم ينظرون إلى كل عابر، هؤلاء «التيوس» صار أخي تيساً منهم!).

تذهب راحيل إلى السوق ثم ترجع. أنتبه أنها تخفي الأغراض التي جلبتها، تخفيها عن بصري بجسمها. أتذكر حديثاً جرى بيننا قبل يومٍ عن الطعام، فأدور بوجهي إلى الاتجاه الآخر وأتابع رياضتي. اتساءل ما هو الطعام الذي ستفاجئني به هذه الظهيرة. من

دون انتباه شكوتُ أمس من أكل السمك كل يوم. لم يكن قصدي الشكوى. أردت فقط أن أعرف هل يأكلون أي طعام آخر! (يمكن القول أنهم «تحت» لا يملكون «فن طبخ». وسبب هذا يعود إلى نقص المواد الأساسية، لكن هذا ليس السبب الوحيد. أبي كان يقول دائماً حين نقعد إلى الطاولة لنأكل ـ أنا وهو وأخي في البيت ـ في بيروت، كان يقول إن هذا الطعام ذاته ـ طبخة بامية بالبندورة يعملها مع موزات بقر ونُسمّيها «يخنة»، أو بلا موزات، ونسمّيها «بالزيت»، مع أن أخي يضحك ويُسميها «يخنة بلا لحمة»؛ أو طبخة فاصوليا عريضة بالبندورة؛ أو طبخة مجدرة عدس أو مدردرة بشرائح البصل المقلية على وجهها ـ أبي كان يقول إن هذا الطعام الطيب الذي نأكله الآن في هذه الشقة يصير أطيب بدرجات إذا أكلناه في الهواء الطلق: الأكل بين الأشجار الخضراء، في المدى المفتوح المنير والهواء العَطِر الجبلي، ليس كالأكل بين حيطان الباطون، في هذا الهواء الخالي من الأوكسيجين، الذي يُسبب «الربو». أبي كان يقول هذا الكلام عند نهاية الأكل. لا يقوله في بداية الأكل لئلا يُفسد قابليتنا للطعام ويسدّ نفسنا. لم يكن يعلم أن شيئاً لا يسدّ نفسي، أنني أبلع الطعام بلعاً كأنني فارغ تماماً كل الوقت. ولم يكن يعلم أن أخي لا يهتم لكل هذا. كان أخي يردّ على أبي إنه الدخان ـ «الدخان اللفّ» ثم «السيدرز» الوطني ـ الذي ضربه بالربو، وليس هواء بيروت. أو لا يردّ ويبقى ساكتاً، مداراة لأبي ولي أحياناً، ولأنه لا يكون سمع ما قيل أصلاً في أحيانٍ أخرى. فهو أيضاً كان يُدخن كثيراً في تلك الفترة. وليس تبغاً فقط. وكنتُ كلّما ازددت سمنة أراه يزداد نحولاً. عيناه احمرتا، صارتا كعيني أرنب. وأنفاسه باتت غريبة الرائحة. أعرف علّته. ويعرف أنني أعرف. وعبثاً نحاول ـ معاً ـ ألاّ يعرف أبي شيئاً).

تدخل راحيل إلى الغرفة المجاورة. أُمرن ساقيّ وذراعيّ ورقبتي. على مقعد الحجر القريب عود «راوند». راحيل جلبته لي. منذ ليالٍ ألوك قطعة «راوند» صغيرة عند كل مساء. ألوك الراوند منتظراً قدوم ياسمينة. هذا نبات لن أنسى أسمه. حين أعطتني إياه راحيل وذكرت اسمه قلت إنني سمعت هذا الاسم من قبل، وأنه موجود في العالم البرّاني، لكنني لست متأكداً. سمعت اسمه مرة، أو قرأت عنه، لكنني لا أدري هل هو شتلة أم شجرة؟ لا أدري ما هو، لكنني أعرف اسمه، قلت لراحيل. ذُقته فوجدت طعمه حاداً مرّاً. ألوكه لأن رائحته تطغى على رائحة السمك. وبينما تلوكه يتبدل طعمه، يصير بارداً، كأنه قطعة ثلج تذوب على لسانك. المهم ألاّ تبلعه. راحيل تقول إنه يُسبب حريقاً في الحلق، وحكاكاً في الزلعوم. وإذا بلعته أصابك الإمساك ثلاثة أيام كاملة. لا أبلعه. ألوكه كل مساء لتذهب رائحة السمك من أنفاسي. أكون شديد الحذر بينما أمضغه؛ أخاف الإمساك. (قبل فترة أصابني، ولم أُشفَ إلاّ بنبات أتى به الجغرافي زكريا. هذا الرجل هو الأخ الأصغر لكبير العشّابين يوسف الذي لا أنساه، لأن ألم العظام المكسورة ليس ألماً يُنسى. الجغرافي زكريا التقى الشيخ إسحاق في المتاهة الحجر وسمع بمصابي. جلب لي نباتاً يغلونه ويشربونه حاراً، شديد الحرارة، فيشفي من الإمساك فوراً. يشبه ورق القصعين، لكنه أرق وأنعم، ولونه الأخضر يضرب إلى زرقة كأنها زرقة الخيار. هذا النبات لم أحفظ اسمه لأن اسمه غريب، ينتهي بـ «روتوس» أو «نوتوس»، أو شيء من هذا القبيل. ولعلها تسمية يونانية قديمة).

بعد وقتٍ من دخول راحيل غرفتها يرتفع ذلك الأزيز العجيب. كل مرة أريد أن أسأل عن الصوت، ثم أتردد وأسكت. لا أريد أن أبدو فضولياً. أستحي أن يكون الصوت الغامض صوتاً لا يجب أن

أسمعه. (كان أبي، إذا جاءته نوبة الربو، يطلع إلى الشرفة الضيقة خارج باب المطبخ ويقف بين الأغراض المكومة هناك ويحبس سعلته بيديه، لئلا يوقظنا).

بعد التحذير الذي باغتتني به راحيل (إذا خرج أحدنا إلى «برّا» أحرقت الشمس عينيه فوراً!) أجدني أسألها، عند خروجها من غرفتها، أسألها عن الصوت الذي أسمعه: هذا الأزيز. تبتسم ـ الآن أعلم كم أشتاق إلى ذلك الوجه البيضاوي الشاحب! ـ وتقول إنها لا تسمع أي صوت.

أقول ليس الآن، ولكن حين تكونين في الداخل.

ـ آه، هذا المغزل. غداً ستراه بعينيك. لا أقدر أن أجرّه إلى هنا. لأنه ثقيل.

❋

جلبوا لي كرسياً بعجلات حجر. أول رحلة من سريري كانت إلى مدخل الغرفة المجاورة. أرادتني راحيل أن أرى مغزلها. كان ـ مثل الكرسي ـ منقوراً من حجر. عجلة حجر كبيرة منحوتة بأسلوب مدهش، وذراع حجر في جانب العجلة، وقوائم حجر يرتفع عليها لوح حجر. وفوق اللوح، العجلة، تدور على محور حجر، وفي «مسلكها»، في الأخدود الرفيع، يجري الخيط الخشن الأبيض، ثم ينزل على الأرض، ويلتف على نفسه في دوائر بحركة يدٍ بارعة. حين أرى راحيل قاعدة إلى مغزلها في تلك المرة الأولى، والخيط بين أناملها، أُصاب بما يشبه اغماءة: كأن الدنيا غامت في عينيّ. الغرفة كلّها ترتج، كأنها تذوب، ولا أعود قادراً على تمييز حدود السرير أو الأغراض الأخرى. فقط أسمع ذلك الخرير، وأرى العجلة تدور في الفضاء، كأنها انفصلت عن محورها، تدور في

فضاء أزرق مائي، وتسبح كقرص من الفضة وتلمع. ثم أسمع صوتاً جنب أذنيّ وأرى أولاداً وأرى الجغرافي زكريا.

أعلم أن ما حدث لي كان ارتفاعاً أو هبوطاً في الضغط. وأعلم أن سبب ذلك كان قيامي أخيراً من السرير، وتحركي ـ ولو على كرسي ـ من نقطة إلى أخرى. إن هذه الرحلة القصيرة من الفراش إلى الباب (باب الغرفة المجاورة) تبدو لي (حين أذكرها الآن) رحلة من قارة إلى أخرى!.

*

ماذا أقول إذاً عن رحلتي الأخرى، من تلك النقطة أمام المغزل الذي تغزل عليه راحيل، إلى الباب الرئيسي: باب البيت المفضي إلى الطريق. الأولاد الذين ظهروا مع الجغرافي زكريا حين جاء يدفع الكرسي الثقيل قدّامه، كانوا يحومون حولي حاملين شموعاً في شمعدانات حجر. النور الخافق على الحائط الأبيض ملأ عينيّ ذهباً بينما الكرسي يتحرك بي ـ بطيئاً، بطيئاً ـ إلى الباب.

*

أصل الآن إلى ساعتي الأولى متجولاً في المدينة الأرضية. كم انتظرت هذه الساعة وأنا نائم في فراشي طيلة ذلك الوقت! كأنني نمت دهراً في الحبس وها أنا أخرج أخيراً إلى الهواء الطلق! كان شوقي إلى الخروج من بيت مضيفي جزءاً من شوقي إلى الطلوع إلى «فوق». لكن ـ وعليّ أن أقول هذا ـ جزءاً مني كان يطلب هذا وحسب أيضاً: يطلب السياحة والجولان في هذه المدينة الأرضية العجيبة، قبل الطلوع إلى «برّا». أريد أن أرى هذا العالم الذي كنت جاهلاً كل حياتي أنه موجود تحت بيروت. أريد أن أرى كل تلك الأماكن التي سمعت عنها وأنا مطروح في السرير. أريد أن أرى

النهر الذي جفّ. أريد أن أرى الجسر على النهر. أريد أن أرى «مزارع السمك». أريد أن أرى «معمل الشمع». أريد أن أرى قلب المدينة «والقصر الرئاسي» والقاعة والمطبخ في القصر. أريد أن أرى الحيطان المنقوشة في بيت الفلكي سلمان. أريد أن أرى «حيّ الأزرق» حيث بيت ياسمينة. أريد أن أرى ـ بعينيّ ـ سبيل الماء في حيّ العميان. أريد أن أرى كل البيوت والطرقات والأحياء. وأريد أن أرى الأسوار، والبوابات المقفلة في الأسوار. أريد أن أرى كل ما سمعت عنه!

*

قبل خروجي من الكهف (لماذا أسميه كهفاً، وهو بيت، وحيطانه مطروشة بالكلس الذي يستخرجونه من مقالع الكلس داخل الباب الشرقي الذي يسمّونه «باب المقالع»! لماذا أسميه كهفاً، وهو بيت، وفيه بقيت زمناً، وفيه أكرمني الشيخ إسحاق وأكرمتني ابنته راحيل وأكرمتني ـ من دون أن يعلما؟ ـ ياسمينة! لماذا أسميه كهفاً؟ بسبب المسلات الحجر المفتولة المصقولة المبرية التي تتدلى من سقفه؟ لا. أسميه كهفاً لسبب واحد فقط: لأنه تحت الأرض.)، قبل خروجي كنت تخيلت الشارع ـ خارج الباب ـ طويلاً يمتد في الجهتين، ضيقاً بين حائطين، ومسقوفاً أيضاً كما هذا الكهف، يمتد مستقيماً ثم يتفرع في شوارع متوازية. هكذا تخيلتُ المتاهة.

لكنني حين بلغت الباب فكّرت أنني أخطأت حين ظننت بيت الشيخ إسحاق قليل الغرف: كنت أظن أن هذا الباب هو باب البيت. لكنه ليس باب البيت. هذا باب غرفة أخرى. غير غرفتي (التي هي أصلاً غرفة مضيفي الذي منحني سريره) وغير غرفة راحيل (حيث المغزل الذي يطنّ) هناك غرفة ثالثة أيضاً: هذه الغرفة الخالية

من الأثاث، العارية الحيطان يتراقص عليها الآن نور شموع الأولاد معي.

وفي الجانب الآخر أرى باباً يفضي إلى ظلام الشارع، إلى ظلام الطريق التي أتخيلها طويلة، ولعل سقفها يكون أعلى من هذا السقف الذي تتدلى منه المسلات كعناقيد عنب منقورة بالصخر. ما هي إلاّ دفعة أو دفعتان وتصل بي الكرسي إلى الباب. فلماذا كفّ الجغرافي زكريا عن دفع الكرسي؟ (ولماذا تخلو هذه الغرفة من الأثاث؟ ولماذا أرضها وسخة؟).

حين أدرك أنني في الشارع الآن، وأنني «لست في غرفة ثالثة» داخل بيت مضيفي، أصاب مرةً أخرى بما يشبه الإغماءة.

*

الحياة هكذا. ما تتوقعه، ما تتخيله، لا يتطابق تماماً مع الحقيقة. وأحياناً لا يتطابق أبداً. كنتُ في الطريق، وكانت الطريق غرفة تفضي إلى غرفة تفضي إلى غرفة... بعد غرفٍ كثيرة بلغنا غرفة طويلة، أحد حيطانها يستدير قليلاً وفيه أكثر من فجوة، أكثر من باب، بلا باب: فقط مداخل جانبية. ثم وصلنا ـ وقد فقدت الأمل في الوصول إلى مكان فسيح قليلاً ـ وصلنا إلى طريق: مسقوفة، صحيح، وتُحاصرها الحيطان، بلى، لكنها ـ على الأقل ـ طويلة!

*

رويداً رويداً ارتفع سقف الطريق أعلى فأعلى. الأولاد رفعوا الشمعدانات عالياً فوق رؤوسهم، ومع ذلك لم أعد قادراً على رؤية المسلات وشبكات الحفائر المصقولة المتقاطعة. كل تلك الأشكال الحجرية العجيبة التي يصنعها الوقت (قطرة الماء، وتبدل الحرارة،

ومرور القرون) غابت في الظلمات العالية. حتى من دون أن أحدّق إلى أعلى كنت أعلم أن السقف صار شاهق العلو، لا يُرى. حتى ولو كنتُ ما زلت أحمل مصباحي، مصباح الـ SAMSUNG القوي ببطارياته الكبيرة الأربع، حتى مع نور ذلك المصباح الكاشف لن أستطيع الآن رؤية السقف. أعلم أنني في كهفٍ هائل الفضاء من هذا البرد الذي يصفع وجهي، من غياب الركود في الهواء، ومن الصدى الذي أسمعه كلّما قال أحد الأولاد شيئاً. (حين تذكرتُ مصباحي الذي ضاع مني في تلك السقطة اللانهائية من الطابق السفلي لسينما سيتي بالاس إلى هذا العالم، حين تذكرتُ مصباحي تذكرتُ أيضاً ـ وللمرة التي لا أعرف رقمها ـ كيسي الذي تركته على الكرسي البلاستيك الأبيض: كثيراً ما تذكرت كيسي «تحت»: كيسي النايلون الأسود الذي كان مملوءاً بالطعام. وكلّما تذكرت سندويشات الفلافل مع البندورة والبقدونس ومخلل اللفت والطرطور، فاض ريقي!).

*

كنتُ أرى نوافذ تتلامع داخلها أنوار الشمع. لكننا، من بيت الشيخ إسحاق، وحتى بلوغنا ذلك الفضاء الرحب الذي انشرح له صدري انشراحاً لا أنساه، لم نلتقِ مخلوقاً واحداً. وسمعت الجغرافي زكريا يقول:

ـ هنا تنتهي حارة شيخ محمد، انظرْ!

كان أخذ شمعداناً من أحد الأولاد، والآن رفعه قدّامي، عالياً، ودلّني إلى بنيان دائري، عليه قبّة تغطيها طحالب قاتمة اللون، بنيان غريب بلا مداخل (على الأقل أنا لم أرَ أي مدخل عندئذٍ، وبعد ذلك تأكدت أنه بلا مداخل فعلاً)، بنيان أشعرني

بانقباض غير مفهوم. وقال زكريا:

ـ هذا قبر الشيخ محمد. لا يوجد قبور في بيروت إلاّ هذا القبر، وقبر آخر عند «باب البحر». منذ أيام أجدادنا لا ندفن ميتاً أبداً. بسبب الأمراض والأوبئة، أنت تعلم، والحشرات والقوارض والزواحف.

قلت له لا، أنا لا أعلم، كيف لا يدفنون الموتى، إذا كانوا يخافون من انتشار الرائحة والأمراض كما يقول، فماذا يصنعون بالموتى؟ لا بدَّ أن الناس يموتون هنا أيضاً!

قال إنهم قبل زمنٍ بعيد كانوا يذهبون إلى حفرة النار، القريبة من «المناجم»، ويُلقون الجثث هناك، بعد غسلها، فتحترق. لكن تلك النار انطفأت. وقال إن الأجداد كانوا في حقبة أخرى يرمون الجثث في النهر، والنهر الهادر التيار يأخذها معه، ويسقط في الهوّة تحت السور عند «باب البحر»، ويُخرجها من البلد. لكن النهر صار الآن ساقية رفيعة لا تحمل جرذاً إلى البحر، فكيف تحمل إنساناً؟

وقال زكريا إنه ما زال يذكر من طفولته دفن الجثث في النهر (فكّرت أنه من عمري أو أصغر مني بقليل، ولعله من عمر راحيل، وكنت أعلم أنه لا يحمل لقبه ـ أي «الجغرافي» ـ بسبب تميزه في الجغرافيا، ولكن لأن أباه قضى باكراً بينما يستكشف إحدى المغاور العميقة العذراء، فورِث عنه اللقب.) قال إنه شهد دفن أحد عجائز «حي زوفا»: صعدوا بالجثمان إلى سقف أحد البيوت ثم طوّحوا بالجثة في النهر! والنهر حمل الجثة إلى الهوّة. والهوة ابتلعت الجثة إلى الأبد. (ليس إلى الأبد، قلت له، لا بدَّ أنها ظهرت بعد ذلك على شاطئ «الرملة البيضاء»، أو على «الروشة»! فطالما قرأت في الجرايد عن جثث مجهولة تظهر على الشط.)

قال زكريا إنهم حتى قبل أن تغور مياه النهر وتفرغ الهوّة تحت «باب البحر» من الماء، فتتحول وادياً عميقاً موحلاً نتن الرائحة، حتى قبل ذلك، كفّوا عن دفن الموتى في الماء، لأن الجثث كانت تعلق مرّات بالصخور في قعر النهر، ثم ترتفع حين يرتفع منسوب الماء في موسم الأمطار ـ عند نهاية موسم الأمطار حين تهتز المدينة كلّها بالرعد المكتوم المتفجر «برّا» ـ وأحياناً يقذفها لسان النهر على نوافذ البيوت. قال زكريا إن النهر قذف مرة جثة على رجلٍ يعبر الجسر فسقط الرجل مع الجثة من الجانب الآخر للجسر وقضى نحبه.

كنت أنظر إلى قبر الشيخ محمد بقبّته التي تغطيها الطحالب القاتمة (لا تخضر الطحالب «تحت»، لأن نور الشمس لا يصل إليها)، وأسمع كلام زكريا، وأنتظر لأعرف ماذا يفعلون بالموتى، حين قطع أحد الأولاد حديث «الجغرافي» بجوابٍ مختصرٍ:

ـ نحرقهم بالأفران!

*

أريد الآن، وقد قطعت في قصتي كل هذه المسافة ولم أعد أسير سريري في بيت الشيخ إسحاق، أريد الآن أن أقول شيئاً عن شكوكٍ مَرَضية ساورتني وأنا مطروح على الفراش أرى كل تلك الوجوه البيضاوية والمثلثة، تدخل عليّ بعيونها المتسعة البارقة الغريبة، وتغمرني بكل تلك الأخبار التي لا يتصورها عقلٌ. الوسواس الذي نخر دماغي، وأنا على ظهري، والدم لا يكاد يجري في أعضائي، أستطيع الآن أن أُصرِّح به: كنتُ أظن ـ وهم يخبرونني عن مدينتهم ـ أنهم يضحكون عليّ! كنتُ أظن أنني وقعت ضحية كابوس خارج عن حدود الفهم. كنتُ أظن أنني إذا بلغت

مدخل الكهف (ولو استطعت لزحفت زحفاً إلى فوهة الكهف) لن أرى إلاّ العالم الذي أعرفه: بيروت مدينتي التي، مع كل بناياتها الباطون العالية المملوءة شققاً سمّاها أبي «علب سردين»، تظلّ مدينتي الحبيبة التي أحيا تحت سمائها الزرقاء، وأعرف شوارعها، وحدائقها الصغيرة، وما يحوم فوق سطوحها من عصافير وأسراب حمام.

❊

لم يكن خيالاً! خرجتُ من الكهف فرأيتُ المتاهة. عبرنا المسالك في نور الشموع حتى بلغنا نهاية الحارة. بينما ندور سمعت صوتاً غريباً وعلا صوت الأولاد: في نور شمعدان يقع أرضاً رأيتُ سرب فئران بيضاء صغيرة، أصغر من عصافير الدوري. عدد لا يُحصى من الفئران، رأيته يقطع الدهليز ويختفي في أحد المداخل الجانبية: صوت الفئران الغريب، تلك الصأصأة القاسية، مثل مئات من الأسنان تقضم عظمة، استمر يتردد في الفضاء المظلم حتى بعد غيابها عن أنظارنا. وضحك أحد الأولاد خائفاً:

ـ ظننتهم ناس الوحل!

❊

لم أتعدَّ في ذلك الخروج الأول حدود الحيّ. وأثناء رجوعنا إلى بيت الشيخ إسحاق سمعت الأولاد يتهامسون خلفي. ثم يتخلون عنا ـ أنا «والجغرافي» زكريا ـ ويختفون واحداً بعد واحد في مداخل بيوتٍ نعبر جنبها. فكرتُ أنه وقت الغذاء. الولد الأخير لمس كتفي وقال شيئاً قبل أن يختفي هو أيضاً في إحدى الثغرات. حين وصلنا أخيراً إلى البيت (فكرتُ ونحن نخرج من دهليزٍ وندخل في آخر أن «الجغرافي» قد أضاع الدرب. وزاد خوفي حين ارتفع لهاثه. ثم

تبيّن أنه يلهث تعباً. ليس بسبب وزني. ولكن لثقل الكرسي الحجر وعجلاته الحجر.) حين وصلنا أخيراً إلى البيت وجدتُ زائراً في انتظاري: عباس الصياد.

*

الحارس الذي طالما سمعت عنه من راحيل والفلكي والمؤرخ وقف الآن أمام عينيّ. كان ذلك اللقاء الأول بيننا (لم ألبث، حين تكلم، ان اكتشفت أنه أتى وزارني وأنا ساقطٌ في غيبوبتي. وفي حديثٍ آخر تبيّن لي أنه ـ حتى ـ رآني قبل ذلك: كان واحداً من الذين حملوني من «بيت الخُضر» إلى هنا!) وجدته مختلفاً عما توقعت: كان قصيراً مثل الباقين، وأنا كنت أتوقعه ـ لسببٍ غامضٍ ـ أطول منهم بقليل. لكنه في المقابل كان أعرض، أقسى عضلاً (وهذا توقعته)، أثخن عنقاً، يلفظ الراء غيناً (وكيف لي أن أتوقع مثل هذا التفصيل؟)، ويبدو متعب الصدر دائماً (ما ذكرني بأبي).

كانت المائدة قد وُضِعت، وقد جلس إليها متقابلين مُضيفي وابنته، أما هو ـ عباس الصياد ـ فكان عند دخولي (وزكريا يدفعني على مهل) واقفاً يتأمل الساعة المعطلة على الحائط كأنه يتفحص الأرقام الرومانية الغامضة التي أوشكت أن تمّحي. لم أعرف إلى ماذا أنظر: إلى الرجل المربوع القامة الذي لا يغطي شعر رأسه كما يفعلون هنا، أم إلى المائدة ـ التي منذ وصولي إلى هذا البيت الفقير ـ لم أرَها يوماً عامرة كما رأيتها عندئذٍ! رأيت سمكاً مشوياً في صحن بيضاوي، ورأيت بيضتين مسلوقتين ومقشرتين، ورأيت سلّاً مملوءاً بالخبز، ورأيت طنجرة حساء، ورأيت أكواباً مملوءة شراباً لونه ضارب إلى حمرة النبيذ. كانت هذه وليمة لا تُرى إلاّ في «القصر الرئاسي»!

الجغرافي زكريا جاوزني مسرعاً وعانق الصياد وقبَّل كتفيه. كان واضحاً أنه يكنّ له عاطفة جياشة واحتراماً عميقاً (فيما بعد سأعلم أن والد زكريا كان صيّاداً حارساً قبل أن يتحول إلى «الجغرافي». والمؤرخ مسعود سيخبرني أن البعض يقول إن «الجغرافي الكبير» ـ والد زكريا الذي يسمّونه أيضاً «الجغرافي الصغير» ـ استطاع عبور الأسوار والخروج إلى «أقاليم الظلمات» ثم الرجوع من حيث لم يرجع أحد!)

راحيل قامت في هذه الأثناء ورتبت لنا أماكن جلوسنا إلى المائدة (أن أقعد مع هذه المجموعة الكبيرة، وأن نأكل كل هذه الأطباق! كنت قد قلتُ لراحيل مرة ـ وأنا أحسبُ أنني أكشف لها أمراً لا تعرفه ـ أن السمك المشوي أطيب بكثير من السمك المسلوق. وهي قالت، في خجلٍ، إنها تعلم ذلك لكن السمك المشوي لا يُشبع البيت. السمكةُ المشوية يأكلها الواحد وحده ويبقى جائعاً، أما السمكة المسلوقة فيأكلها اثنان ويشبعان تماماً: يُشبعهما الماء! ينفخهما الحساء!)

الصياد عباس صافحني من دون أن يُضطر إلى الإنحناء مع أنني قاعد في الكرسي المتحرك (إلى هذه الدرجة كان قصيراً!). وسألني كيف وجدت كرسي الرئيس، هل وجدته مريحاً؟ لم أفهم ماذا يقصد، فشرحوا لي أن هذا الكرسي من «القصر الرئاسي» ولا يوجد كرسي آخر مثله في بيروت.

ـ وهو كرسي الرئاسة؟

ـ لا، إنه كرسي قديم. لكنه محفوظ في القصر.

قلت عندئذٍ إنه حجر، ومثل كل كرسي حجر، لا بدَّ أن يؤلم المؤخرة قليلاً.

ضحكنا ونحن نأكل. الشيخ إسحاق بدا على غير عادة منشرح الصدر. (فهمت بعد ذلك السبب: كان ذلك يومي ما قبل الأخير ضيفاً على بيته. والوليمة ـ التي أتى عباس الصياد بأسماكها، وأرسل كبير العشابين يوسف خمرتها الحلوة المذاق ـ كانت وليمة وداعية!)

❊

أقول كل هذا مع أنني لست متأكداً من بعض التفاصيل: لأنني أذكر أيضاً (هل قلت هذا قبل الآن؟) أن هذا الرجل اللاهث الأنفاس عباس جاء ليزورني للمرة الأولى وأنا ما زلت في السرير، وقبل أن يصير بمقدوري القيام إلى الكرسي المتحرك. لا أدري لماذا يختلط عليّ الأمر الآن، ربما بسبب الأسماك المشوية. فأنا أذكر ـ بغموض ـ راحيل تبتسم مرتبكة وهي تتلقى منه سلّاً مملوءاً سمكاً. كما أتذكر السمكات تُبلعط في السلّ. لكن الذاكرة مخادعة. ولعلني أجمع صوراً مختلفة وذكريات مختلفة من دون أن أدري. الوقت يمرّ، والأشياء تتمازج. أريد أن أكون دقيقاً، لكن هذا صعب أحياناً. هل تعرف أنت مثلاً ماذا أكلت في مثل هذا اليوم، قبل أسبوع؟ طيب، هذا كلّه حدث لي قبل ذلك بكثير.

❊

أعرف سبباً آخر يدفعني إلى ارتكاب بعض الأخطاء البسيطة وأنا أحاول أن أتذكر كل لقاءاتي تلك بكل هؤلاء الناس تحت الأرض: خلال فترة وجيزة تعرفت على عدد كبير منهم. (أنا ـ فوق الأرض ـ لم أتعرف أبداً في مثل هذه الفترة الوجيزة على مثل هذا العدد الكبير من الناس. حتى حين دخلت الجامعة الأميركية، وسكنت وقتاً قصيراً في بناية الداخلي Penrose، لم أتعرف على مثل هذا العدد من الناس!)

حين تتعرف في مدة قصيرة على وجوهٍ كثيرة، تتشابك الذكريات في رأسك. أنت أيضاً ـ لا بدَّ ـ عشت تجربة مثل هذه ذات يوم: ربما حين دخلت الجامعة أيضاً؛ لا أدري! وكيف لي أن أعلم؟ لكن البشر ـ على نحوٍ ما ـ يتشابهون. (هل أشبه أنا أخي الكبير؟ كان خالي روفايل يقول إن نزار صاحب عين فارغة. كنت أعتقد أنه يقول ذلك بسبب عينه «البيضاء» فطالما اشتكى جيراننا في «مونو» من تحرشه بالبنات. يرى الفتاة آتية من بعيد فيقطع الرصيف إلى جهتها مبحلقاً فيها، ثم قاطعاً عليها الدرب ـ إذا كانت الدرب خالية. مرة، أمام «مكتبة طرزي»، ضربته إحدى الفتيات بقنينة ماء «صحة» في يدها، فقال إنه لا يحبّ المياه المعدنية كثيراً، وظلّ يطاردها حتى باب الجامعة اليسوعية، يوماً بعد يوم بعد يوم، إلى أن صارت تكلمه ويكلمها. كان يقول إن جنس البنات كلّه هكذا، في الأول يمانع ثم يركض وراء كلمة حلوة. لكنه ـ مع هذا ـ تعرض للصدّ عدداً لا يُحصى من المرات. إحدى نساء الحيّ ذهبت إلى أبي حيث يعمل ناطوراً، وقالت له أن يربي ابنه وإلاّ قالت لـ «الأحرار» أن يربوه. كانت تسكن قريباً من «مركز الأحرار»، في الشارع المجاور. وكاد الأمر أن يتطور إلى اشتباك مسلح بين «الأحرار» وعناصر «الكتائب» الذين يصادقهم أخي في شارع كلية مار يوسف القريب من بيتنا. لم تكن تلك مرة يتيمة. أواخر 1987، بعد أيام قليلة من بلوغه التاسعة عشرة (اعتدنا أن نعمل له كل سنة عيداً، مع قالب كاتوه يخبزه أبي ونغرز فيه شموعاً، ومع وعاء من حلوى «الجالوه» على نكهة الفريز ـ التي يحبّها كثيراً ـ مع قطع موز وتفاح، وكان حين تنقطع الكهرباء وتذوب الحلوى في الثلاجة يشربها شرباً ويقول: «عصير فريز»! لكننا في تلك السنة لم نعمل له عيداً: كنا حزانى بعد خطف ابن خالتي إبراهيم، وكان أبي

يتكلم مرة أخرى عن الهجرة: إلى مونتريال، كندا، هذه المرة، حيث ذهب أخيراً زوج عمتي وعائلته.) بعد أيام قليلة على بلوغه التاسعة عشرة، اعترض أخي نزار مع بعض أصحابه (وكان الآن يحمل سلاحاً كلّما خرج من البيت، وحين ألتقيه في الشارع صدفة أسمع رفاقه ينادونه Garo: «غارو»!)، اعترضوا طريق امرأة ذاهبة إلى بيتها في شارع يوسف صادر، وشتموها حين لم تقبل أن يحملوا لها أغراضها. كانت تحمل أكياس معلبات وخضر، ورموا أكياسها على الزفت، وشتموها. أبي العائد إلى البيت في تلك اللحظة بالذات رأى المشهد من بعيد ولم يعرف أنه ينظر إلى ابنه. احتار لا يدري ماذا يفعل: إذا اقترب من المسلحين قد يتعرض للإهانة. وإذا لم يقترب. . . كيف لا يقترب ـ هو الجبلي ـ والمرأة تُهان أمام عينيه؟ ظنّ أبي أنه تعرّف على واحدٍ من المسلحين. بدا له هذا المسلح بالذات أليف الوجه. ثم أن أبي عرف أين رأى هذا «الكتائبي التيس»: كان هذا أحد أصحاب أخي، طالما أكل في بيتنا طعاماً طبخه أبي. مشى أبي نحو المسلحين. لم يعدْ خائفاً. هؤلاء أصدقاء ابنه. سيقول لهم عيب عليكم. وهم سيتركون المرأة وحدها. بينما يقترب اكتشف أن واحداً منهم يشير إليه ويضحك. المسلحون تركوا المرأة عندئذٍ تلّم الفواكه الساقطة عن الأرض، واستداروا نحو أبي. وأبي المريض بالربو أصابته نوبة سعال حين رأى وجه ابنه نزار بين الوجوه الضاحكة.)

*

ما زال نزار يروي ـ كلّما حانت فرصة ـ خبر ذلك اليوم الربيعي من آذار (مارس) 1983، حين عثر على 13 جثة عارية تحت الجسر، أول قريتنا. كان وحده. كان في الخامسة عشرة، وكان يحمل بارودة «باريتا» 12ملم، ويتصيد عصافير هناك، حيث

جلول الزيتون والسمّاق. أبي كان يوصيه ألا يبتعد عن البيت. كان الوقت وقت حرب. وكانت الهجومات والهجومات المضادة دائرة بين قرى الجبل، وكذلك القصف المدفعي على المحاور. نزار خرج يصيد طيوراً خلال فترة وقف إطلاق نار. أصاب شحروراً فسقط الشحرور عند طرف الجلول، حيث تنحدر البساتين نحو الطريق النازلة إلى قرى الوادي. هناك، في الأسفل، جسر تجري تحته قناة ماء شتوية. لم يجد نزار الشحرور الفاحم السواد، بالخطوط الملونة على ريش الرقبة. وجد 13 جثة عارية خُطَّت على ظهورها صلبان.

*

في ساعتي الأولى متجولاً في المدينة تحت الأرض، والجغرافي زكريا يخبرني عن النهر الذي يقذف الموتى على نوافذ البيوت تذكرت قصة أخي نزار. لم أكن أفهم لماذا يظلّ يرويها، ولا لماذا كلّما انتهى من تكرار تلك القصة (كم مرة سمعتها من فمه؟ لا أقدر أن أحصي عدد المرات!)، بدت عيناه فارغتين تماماً، كأن نوراً أبيض ـ ميتاً، صاعق البرودة ـ ينبعث من هاتين العينين. كان يبدو فجأة وكأنه تجوف، وصار خالياً من الحياة. يُنهي الكلام وينظر إليك، كأنه ينتظر أن تقول له شيئاً يردّ إلى جسمه الحياة. كأنه ينتظر أن تنقذه من مياهٍ يغرق فيها، يغرق ويغرق ويغرق، يتخبط بلا أمل تحت التيار العارم، وينتظر أن يصل مخلوقٌ مجهولٌ ويرمي إليه ـ إلى نهر الدم الذي يفور بالجثث العارية ـ خشبة النجاة! (بعد انتهاء الحرب دبّر له أبي وظيفة في «مصلحة سكك الحديد والنقل المشترك»، فصار أخي سائقاً على باصات الدولة، يقود الباص رقم 5 على خط الدورة ـ برج حمود ـ الأشرفية ـ بشارة الخوري ـ البسطة ـ الحمرا. حين يرجع إلى البيت عند التاسعة مساء، ويقف

متمغطاً في الباب، ويقول إن ظهره صار كالخشب، أسمع مفاصله تفرقع فعلاً. ينال منه الصدأ جالساً طوال النهار وراء المقود. وتنتابني شفقةٌ عليه. أنسى عندئذٍ أن هذا الرجل نفسه قاد ذات يوم فرقة «شياطين سود» على محور السوديكو ـ بشارة الخوري، حيث يقف بباصه الأبيض الكبير كل يوم الآن، منتظراً أن يُشير الدركي للسيارات المزدحمة بالحركة، قبل أن يضغط بقدمه على دعسة المازوت فيهدر الباص قافزاً إلى أمام، ويتساقط ركابه إلى خلف دفعة واحدة. في طريق العودة إلى الأشرفية، حين يكون آتياً من الحمرا، يدعس الفرامل في «نزلة الحصّ»، ينظر إلى ركابٍ يتمسكون بالماسورة العالية، ويبتسم لهم في المرآة المغبرة. يقول لزوجته وهو يلقي ربطة خبز اشتراها من «الغربية»، من «أفران الكبوشية» أو «فرن العائلات»، أنه أكل نصف الربطة الحارة الأرغفة على الطريق لأن معبر الوطن، معبر «الشرقية»، اشتد ازدحامه هذا المساء: يقول إنهم يُزفتون «بشارة الخوري» وإن الباص علق بين شاحنتين، فتركه هناك. ثم ينظر إليّ أستعد للخروج ويقول:

ـ ماذا أفعل؟ دولة زفت، والباص للدولة.

أقول أي شيء وأخرج. لا نتحدث كثيراً أنا وأخي. ماذا أقول له؟ أنظر إليه يشرب العرق ويأكل لبنة بالثوم وبندورة وخياراً وفستقاً قاعداً على الشرفة في قميص فانلة أبيض، وذراعاه تغطيهما الندوب وآثار الجروح والقطب الداكنة، ولا أعرف كيف صار أخي الذي كان يطارد الأغنام وراء بيتنا في الجبل، كيف صار أخي هذا الرجل! قبل «حرب الإلغاء» واندلاع المعارك الدموية بين الجنرال عون و«القوات اللبنانية» تعارك مع أبي لأنه لا يدعني أتدرب مع «القوات». تلك الليلة، بعد خروجه إلى «مركز الكتائب ـ إقليم الصيفي»، أقنعت أبي أن يسمح لي بالصعود إلى حصرون

والمشاركة في الدورة العسكرية. قلت له هكذا نأمن شر نزار، ثم إن التمرين على حمل السلاح لا يعني أبداً أنني سأشارك في القتال. أذكر وجهه الحزين وأنا أتكلم، وأذكر أصابع يده على عنقه، كأنه يداري نوبة ربو آتية، كأنه برؤوس الأنامل يحاول أن يحافظ على إتساع الزلعوم ومجاري الهواء.

لا أنسى خوفي عليه وأنا في الشمال، بعيداً من بيروت. كنا نتمرن في وادي قاديشا بالذخيرة الحيّة، وانعكست رشقة رصاص على الصخور وهشمت رأس شاب يندفع إلى يميني. أذكر الشاب الأبيض الوجه يسقط إلى خلف، ثم أذكره يميل على جنبه، وأسنانه تعضّ التراب. تسلقنا الوادي إلى مقبرة عالية، عند طرف قرية يسمّونها «بزعون». أذكر أشجار سنديان عملاقة. وأذكر بساتين إجاص تلف المقبرة. كانت عناقيد الإجاص تتدلى بين الورق الأخضر. قلت لأبي حين رجعت إلى بيروت أنني في حياتي كلّها لم أرَ شجرات إجاص مثقلة بالثمار كما رأيتها «فوق»، حول المقبرة على كتف وادي قاديشا. قلت إن الثمار كانت ضخمة، خضراء قاسية حامضة لم تنضج بعد، ولم تُلوحها الشمس. قلت إنني جلست في ظلّ سنديانة، جنب سبيل ماء تعلوه «رخامة» نُقشت عليها كلمات أذكرها ولا أذكرها الآن، لعلها «على راحة نفس الخوري حنا بشارة الخوري»، لست متأكداً من الاسم الأول، لكنني حفظت بقية الاسم، أولاً لأنه اسم الرئيس الأول للجمهورية اللبنانية، وثانياً لأن بشارة الخوري اسم الشارع القريب من بيتنا، وثالثاً لأنه خط التماس بين «الشرقية» و«الغربية»، ورابعاً لأن أخي ـ حين لا يكون في «المرفأ» ـ يكون هناك. قلت لأبي أنني فكّرت فيه وأنا قاعد «فوق»، وقد خلعت جزمتي لأفحص التقرحات في قدميّ. قلت له إنني غسلت وجهي، وصعدت إلى حافة المقبرة

حيث قبر حجر لعائلة مجاعص حوله شرفة مبلطة وحول الشرفة درابزين. قلت إنني ملت على ذلك الدرابزين، وكانت السحالي تزحف بين العشب اليابس ثم تختفي في التراب. ملت على الدرابزين ونظرت إلى بساتين الإجاص بخضرتها الكثيفة التي تحجب تراب الجلول، وهي تنحدر كجدار نحو قعر الوادي. من تحت كان يطلع صوت الرصاص، وصراخ المدربين، وما يشبه البخار. كانت الشمس قاسية، ورأيت غيوماً تلقي ظلالاً على جبال المكمل القاحلة، ورأيت أديرة منقورة في الصخر، ورأيت مغاور مظلمة تلج المخدرات، وتخترق جوف الجبال إلى حيث لا يعلم أحد. قلت لأبي إنني تذكرته وأنا أقضم إجاصة، وأمسح العرق عن رموشي، لأنني تذكرت يوم أخذنا مع أمي ـ كم كان عمري في ذلك الزمن؟ خمس سنوات؟ أكثر؟ أقل؟ ـ إلى تلك المغارة التي نسيتُ اسمها، وكيف أننا حين صرنا في الظلمة، وصار الهواء بارداً كالثلج، خافت أمي وقالت إنها لا تحبّ المغاور ولا تحبّ الظلام! «هل تذكر يا أبي؟» كنت أسأله، وكان أبي ينظر من باب مطبخنا الضيق في بيروت إلى سرب حمام يحوم فوق سطح بعيدٍ، فوق «برج المرّ»، وكان لا يجيب على السؤال. ذلك أن أبي كان يفضل ألاّ نحدّثه عن أمي.) هذا بعض ما تذكرته ـ ذكريات خاطفة، تعبر الدماغ وتبرق، ثم تضمحل كالغربان وتختفي ـ بينما الجغرافي زكريا يذكر خبر جثة طارت من النهر وأوقعت عن الجسر رجلاً، فمات.

*

نأكل السمك الشهيّ ونشرب الخمرة الحلوة المذاق. هذا السمك ليس السمك الذي يأكلونه هنا. أولاً هذا لم يُسلق سلقاً. ثانياً هذا سمك لحمه أطرى، وحسكه أقل. ليس السمك الأعمى

الذي آكله منذ نزلت إلى تحت الأرض. هذا السمك لم يُربَ في «مزارع السمك»، فمن أين أتى به عباس الصياد؟ وهذه الخمرة كيف صنعها يوسف العشّاب؟ (أحياناً يصيبني ذُعرٌ: ماذا لو حبسوني هنا؟)

يتحدث الصياد بينما يُعري فرخ السمك (الذي نضج حتى تقشّر وبانت لمعة بياضه) عن صاحبه القديم «الجغرافي» والد زكريا. يقول إنهم كانوا يلقبونه «الجيك»، وإنه كان صاحب حَوَل خفيف، لا يلبس إلاّ الدشداشة، ويلفّ على خصره طوال الوقت حبلاً طويلاً، لأن «الحبل دائماً ينفع». كان «الجيك» من جيلٍ أقدم، وكان أسمر البشرة. ليس أسمر تماماً، ليس كهؤلاء الذين يمكن رؤيتهم في «حي السُمر» أو «حيّ العميان»، لكن في بياضه قتامة مع هذا. ومما يزيد سمرته ـ بالتضاد ـ البياض الشديد لشعر رأسه وحاجبيه. (كان عباس ينقل بصره بيني وبين زكريا، وكانت راحيل تنظر إلى طبق السمك المشوي من دون أن تمدّ يدها، أما الشيخ إسحاق فكان يرشف حساءه ويقضم قضمات صغيرة من الخبز.)

قال عباس إن الرجل الذي يعرف كل أخبار الجغرافي الجيك هو المؤرخ مسعود لأن المؤرخ كان يذهب إليه في قاربه ـ ذلك أن الجيك اعتاد النوم في القارب ـ ويقعد معه ويسمع أخباره. في ذلك الزمن كان النهر ما زال يجري. لم تكن تلك الرغوة البيضاء السامة قد تسربت بعد من سقوف الينابيع في «حيّ الأزرق»، داخل الباب الجنوبي. (سأرى لاحقاً خريطة لبيروت التحتا عند الفلكي سلمان وخريطة أخرى لبيروت الفوقا أيضاً ـ لا أدري كيف وصلت إليه لكنه يروي أن ذلك كان في «الوقت الأسود»، والواحد عليه ألا يثق كثيراً في التواريخ التي يسوقها الفلكي بين حكاية وأخرى، فهو مرة أخبرني عن واحدٍ من بلاد الفرنسيس أو الإنكليز ملون

العينين هبط هنا دائخاً لا يعرف يده من ساقه، يلبس لباس العساكر ويحمل بارودة بحربة، فلم يتحمل العيش «تحت» ولم يعثر في الوقت نفسه على مخرج فمات اختناقاً، وهذا جرى في بدء زمن «المجاعة البرّانية» قال الفلكي، وهذا فيه خطأ على الأرجح لأن بلادنا آنذاك كان يحكمها الأتراك لا الفرنسيس ولا الإنكليز!

ـ وعند المطابقة بين الخريطتين التحتانية والفوقانية يبيّن أن الباب الجنوبي المذكور يقع تحت «مقبرة الباشورة» جنوب «وسط بيروت التجاري». لكننا إذا وضعنا في الحسبان أن دقة خريطة بيروت التحتا هي في الأغلب ناقصة ـ إذ كيف للفلكي أن يقيس طول المسافات بدقة في متاهة سوداء مظلمة تخلو من دروب مستقيمة غير مسدودة؟ إذا أخذنا في الحسبان هذا الاحتمال فإن الباب الجنوبي قد يكون على مسافة أبعد، ولكن في الاتجاه ذاته، أي جنوباً. ولعله يكون عندئذٍ تحت «مستديرة شاتيلا» أو تحت «مكب العمروسية للنفايات» أو تحت «مطار بيروت الدولي». خطر في بالي كل هذا بسبب حديثهم عن انفجارات ومواد سامة نزلت مع مياه النهر قبل أن يسكن هديره وينقطع، وبسبب حديث راحيل عن الوقت الذي جرى فيه هذا الأمر. ماذا خطر في بالي؟ عند نهايات الحرب وقعت صواريخ على مكب العمروسية للنفايات. وبعد نهاية الحرب جرت أعمال توسيع للشوارع القريبة منه، كما جرت أعمال توسيع لمطار بيروت الدولي، وحُفِرت أنفاق تحت مستديرة شاتيلا، وظهرت جسور ضخمة جديدة على كل المسافة التي تصل بيروت بمحافظة جنوب لبنان كما بمحافظة جبل لبنان أيضاً. هل يوجد رابط بين هذه الأعمال «فوق»، وبين جفاف النهر «تحت»؟ لا أستطيع أن أجزم. لكن الاحتمال وارد. في المقابل أنا شبه متأكد أن «الباب الطيب» وهو من الأبواب الغربية لبيروت التحتا

يقع تحت «القصر الحكومي»، أو تحت «السفارة اليابانية» المجاورة للقصر المذكور، أو تحت المرآب السفلي للفيلات ولنادي الرياضة الفخم الواقع أعلى وادي أبو جميل. أقول هذا لأن «الصيادين» اعتادوا أن يخرجوا قبل زمن بعيد من فجوة تهوئة في السور عند «الباب الطيب» فيجدوا نفسهم في باحة مملوءة بالكراسي الخشب وعلى الحيطان نقوش حفظوها ورسموها للعارفين «تحت» فأيقنوا أنها حروف عبرانية! وهذا معناه أنهم صعدوا إلى كنيس اليهود في وادي أبو جميل. فهو المكان الوحيد في بيروت الفوقا الذي نعثر فيه على رموز من هذا النوع. وهم وصلوا في رحلة أخرى إلى بناية مهجورة تسلقوها حتى بلغوا الطبقة العلوية فيها، وكان رقم هذا الطابق 33 أو 34 أو 35! وكانت البناية عارية من الأثاث تماماً، وبدا واضحاً أنها لم تُسكن أبداً، وهذا الوصف ينطبق على «برج المرّ» المشهور الذي كان أبي يسمّيه برج بابل لأنه بُنِيَ شاهق العلو قبيل الحرب ولم يسكنه أحد. هذا مع أن القنّاصين سكنوه أثناء الحرب. وأخي نزار عنده قصة عن قنّاص كان يقنص من فوق وهو عارٍ من الثياب تماماً، ثم قنصوه من الجانب المقابل فسقط أبيض الجسم مثقوب الرأس ووقع على تقاطع الطرق محطماً. ولعل الباب الشرقي الذي يسمّونه «باب المقالع»، يقع تحت ساحة الشهداء، أو تحت منطقة الصيفي، أو حتى تحت محطة مار مخايل أو تحت شركة الكهرباء. فقد كان يوجد في أزمنة سابقة مخارج عند «باب المقالع» يطلع منها الصيادون إلى خزانات مظلمة تحت الأرض ـ وهذه على الأرجح مكاتب جباة فواتير الكهرباء اليوم تحت «شركة الكهرباء» ـ وكانوا في أحيان أخرى يجدون نفسهم بين قاطرات حديد، وهذه على الأرجح القطارات في محطة مار مخايل التي لم تعد تُستعمل منذ عقود فنال منها الصدأ. ولعل

الباب الشرقي هذا على مسافة أبعد، فثمة مخرج آخر عند السور هناك، يُزود حيّاً كاملاً «تحت» بالهواء الضروري للعيش. لكن الهواء في تلك الناحية صار فاسداً فجأة، وسبباً لإختناق 11 طفلاً. وقد ترك السكان البيوت هناك ونزحوا إلى بيوت أخرى. وقد يكون ذلك المخرج عند «مكب برج حمود»، وهو الساحل الذي تحول مكباً ثم جبلاً للنفايات أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، بسبب إقفال المعابر، فأين تذهب نفايات «بيروت الشرقية» إذا كان يستحيل الوصول إلى المكبّات وراء «بيروت الغربية»؟ وقد يكون المخرج عند «المسلخ» أو الكرنتينا.

لكن هذه المطابقات ليست دقيقة تماماً. فالباب الآخر الغربي في السور كانت أحد مخارجه تفضي إلى قرى من تنك وخيم قماش. فما هو هذا المكان؟ أين تجد في بيروت قرى صفيح؟ هل هي الأحياء الفقيرة تحت موقف الكولا للسيارات؟ أحد الصيادين ـ وهذا مدون عند المؤرخ مسعود ـ يروي أنه خرج ذات ليلة حاملاً شمعة فوجد نفسه بين بلاطات رخام وأشجار سوداء يابسة. قرأ أسماء على البلاطات وأرقاماً. وسرق عن حبالٍ منشورة بين الشجر ثياباً ملونة: أين كان هذا الصياد؟ في مقابر صبرا وشاتيلا؟ إنني أذكر هذا الاحتمال لسببٍ شخصي، وأعلم أنه غير دقيق إطلاقاً: ذات مرة زرت تلك المقبرة مع أصدقاء من الجامعة الأميركية. لم أنسَ أبداً الثياب المنشورة بين شواهد القبور، والشمع السائل على الشواهد، وامرأة تقعد في مدخل خيمة، تصنع شاياً بيدٍ، وتغسل طفلتها في إناء بلاستيك أصفر باليد الأخرى!

وكانت هناك مخارج ـ قبل زمن ـ يطلع منها الصيادون إلى صالات السينما الواقعة تحت مستوى الشارع في الحمرا والكومودور وبلس والصيفي وساسين وبرج حمود. ويُقال إنهم

فزعوا حين شاهدوا الصور على الشاشة الكبيرة لأنهم خافوا من النور أن يُعمي عيونهم في الظلام. وكانوا يعثرون في رحلاتهم على مخازن تحت الأرض مملوءة طعاماً وقماشاً وشراباً، فيسحبونها في أنفاق إلى تحت الأرض وتكون مناسبة لإقامة ولائم تستمر أياماً وليالي على ضفاف النهر.

وكان عندهم مخرج إلى مرسى عين المريسة، والجغرافي الجيك هو الذي قام بالرحلة الشهيرة التي سجلها المؤرخ مسعود إلى هناك، فرجع بشبكة «أم عيون» فتحاتها كبيرة مملوءة بالسمك «اللقز» الكبير.

وكان هناك مخرج إلى أكواخ الصيادين المنخفضة الحجر تحت الشاطئ مقابل أوتيل ريفييرا، ومخرج آخر إلى النفق تحت كورنيش المنارة، وهو النفق الذي يربط حرم الجامعة الأميركية بالمسبح وبالمنارة التي تحمل أجهزة الرصد الجوي. وكان هناك مخرج آخر يطلع إلى قاعات كلية الهندسة وكلية الزراعة في الجامعة ذاتها، وهي القاعات الكائنة تحت الأرض. وكان هناك نفق يفضي إلى سينما «الدورادو» لكنهم أقفلوه بعد وقوع ولد فيه. وآخر يفضي إلى سينما «كومودور»، وثالث إلى «أورلي»، ورابع إلى «أديسون»، وخامس إلى «الكونكورد» وسادس إلى «مارينيان».

والمخرج المفضي إلى قبو مهجور موصد أسفل إحدى البنايات في «ساقية الجنزير» سدّوه بعد أن صار القبو مزدحماً بالبشر أثناء القصف المدفعي سنة 1982. أما المخرج المفضي إلى الطابق السرّي تحت جريدة «الحياة» فما زال مفتوحاً. وكذلك المخرج في كاراج أوتيل فينيسيا.

وكان هناك مخرج يعبّر تحت مطبعة إحدى الصحف في منطقة

الحمرا. وهذا أيضاً أقفلوه بسبب الهدير الذي ينبعث منه طوال الليل، فيمنع الأطفال من النوم. وكذلك المعبر تحت سينما برج حمود القديمة سدّوه.

والنفق الذي يُفضي إلى القبو تحت مدرسة الحضانة Les Citronniers في شارع أيوب ثابت الساكن الطويل جنب الجامعة اليسوعية تهدَّم وحده بعد أن حفرت فيه الأرانب أوكاراً. ولو لم يتهدم كانوا أيضاً سدّوه لإبعاد الثعابين.

والنفق تحت تمثال رياض الصلح على ساحة رياض الصلح في الوسط التجاري ما زال كما هو. والنفق تحت مجلس النواب يسمّونه نفق «دندن» لأنه يخترق قناطر وأقبية علم العارفون أنها كانت مُلك عائلة من بيروت الفوقا تحمل هذا الاسم. وأنا عبرت هذا النفق ورأيت أن أقبية العقد ما زالت كما هي، وفيها أجران حجر، وعجلات حجر، هي على الأرجح معاصر زيت، زيت زيتون أو زيت سمسم. لكن الناس «تحت» لا تقرب هذه الأقبية، لأنها ليست عميقة، بل قريبة من سطح الأرض، ودائمة الارتجاج. التراب يقع من سقوفها وتبدو على وشك السقوط. وهذه الأقبية تمتد من مجلس النواب ـ تحته ـ إلى «ساعة العبد» إلى مطعم الأيتوال إلى كنيسة مار إلياس. وهي مملوءة بالقوارض. ويكافحونها بجذور سامة. ولا تنفع فيها المكافحة. لهذا يحاصرونها بالكلس. وسألتهم لماذا لا يسدّونها؟ فهزّوا أكتافهم ولم يردّوا!

وأما «باب البحر» فعجزت عن تحديد مكانه بدقة. لكنه ـ كما يظهر من اسمه ـ على البحر.)

كنّا نأكل إذاً، وكان عباس الصياد يحكي عن الجيك الذي كان

يحيا على قاربه أيام كان النهر نهراً. وزكريا الجغرافي الصغير طلب من الرجل أن يخبره عن رحلات أبيه الجغرافي الكبير إلى وراء السور.

وعباس أجابه أن هذه الرحلات من باب الأساطير. وضحك وقال إن المؤرخ مسعود أشطر في هذا المجال.

وراحيل التي مدّت يدها أخيراً إلى السمك المشوي قالت:

ـ وناس الوحل؟

وأبوها حدجها مرة أخرى بتلك النظرة غير المفهومة، كأنه يزعل من تكرار هذه السيرة.

وعباس الصياد أخذ يحكي عن «المناجم» وعن نزول «الجيك» فيها إلى نواة الأرض: إلى الجحيم.

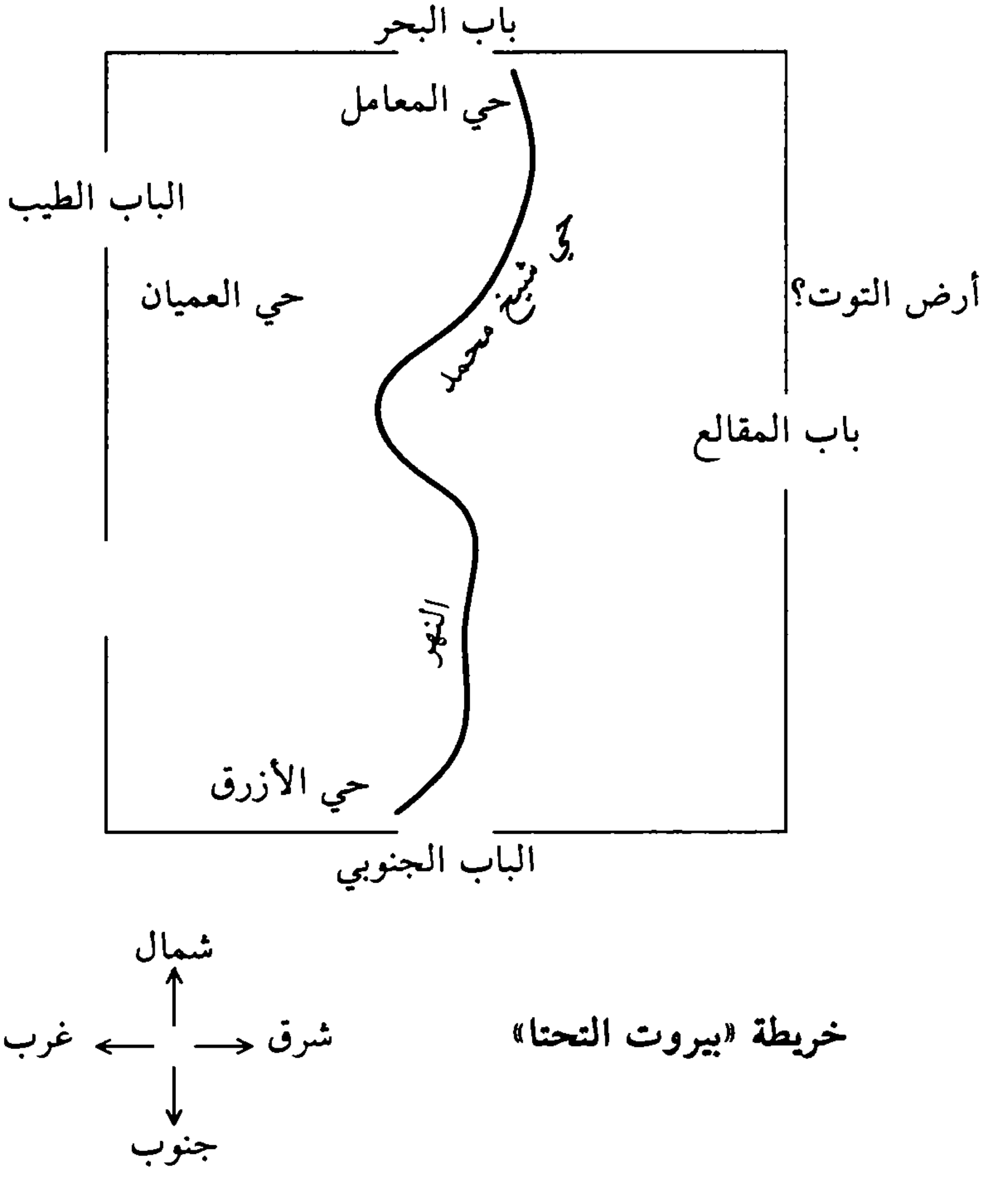
*

يسمّونها «المناجم» وهي منجم واحد فقط، عبارة عن كهف عميق الانحدار يحفرون فيه نزولاً ويستخرجون منه الفحم الحجري. وهذا الفحم الحجري من أساسات الحياة تحت الأرض. فمن دونه لا أفران ولا طاقة ولا وقود لبرد الشتاء. وأفرانهم ليست للطعام وصناعة الشمع فقط، ولكنها أيضاً لحرق الجثث ومنع انتشار الأوبئة.

وبعد حرق الجثث يحفظون رمادها في قوارير حجر أو قوارير فخار. وهذه القوارير لا تُدفن تحت التراب بل تُحفظ في النواويس الحجر داخل البيوت. والعادة عندهم أن الناووس يوضع جنب الفراش الذي يحتله ربّ الأسرة، جنب رأسه تماماً. وهكذا لا ينسى ربّ الأسرة موتاه، من أهلٍ وأزواجٍ وأطفال. وراحيل فتحت الناووس في الغرفة حيث بقيتُ أنام زمناً ـ وأنا لا أدري أنني أنام

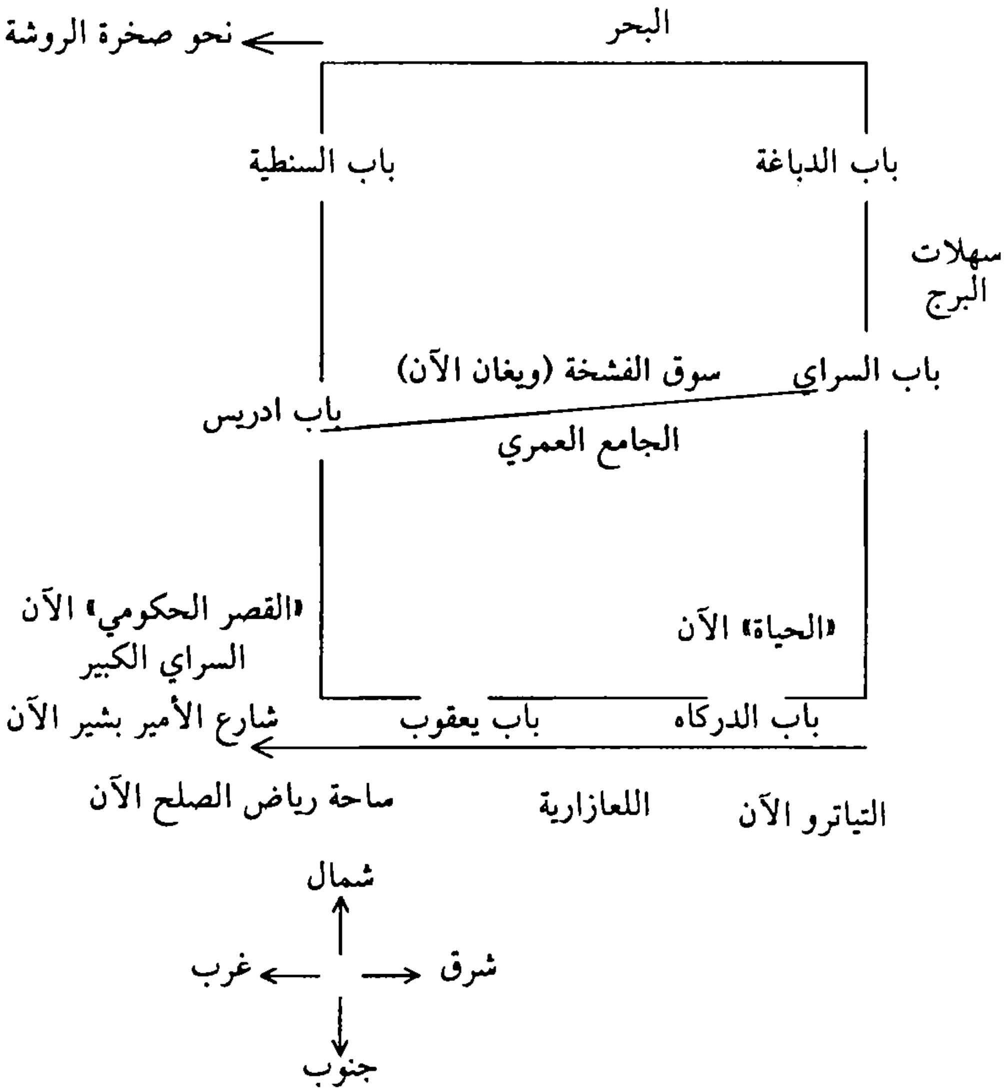
مع رماد أمها ورماد أهل أبيها جميعاً ـ وأخرجت من قعره سبع قوارير فخار مسدودة، فحملت إحداها إلى صدرها وضمَّتها ثم قبّلت الغطاء.

فعرفتُ أنها تحضن أمها التي ماتت اختناقاً.



خريطة «بيروت التحتا»

خريطة الفلكي سلمان عنده، تحت الأرض، ولا تفيدنا كثيراً، بسبب خطوطها المتشابكة المتقاطعة، التي لا يفك أحدٌ غيره ألغازها العويصة. عليك أن تتذكر أن المدينة «تحت» هي متاهة مطمورة أيضاً، فكيف ترسم لهاخريطة؟ لكنني أنا ـ بعد أن رأيت في رواياتك خرائط لبيروت القديمة ذات الأسوار (بيروت ما قبل 1840) ـ وجدت أن أفضل تصوير لبيروت التي تحت الأرض هو مستطيل يشبه «بيروت فوق الأرض ـ العتيقة». مع فارق وحيد، وهو طريقة توزع الأبواب وعددها. هذه خريطة «بيروت الفوقا» القديمة:



أما في خريطة «بيروت التحتا» ـ الباقية كما هي ـ فلا توجد «سوق فشخة» تقطع البلد عرضياً. ولكن يوجد نهر غاضت مياهه ويقطعها طولياً، فيخرج من ينابيع حيّ الأزرق، ويجري عبر أراضيها الواطئة، إلى أن يصبّ في الهوّة داخل «باب البحر». وأود ـ قبل أن أتابع قصتي ـ أن أذكر بعض الملاحظات: بحسب خريطة الفلكي سلمان فإن شكل بيروت التحتا ليس مستطيلاً! شكلها دائري. إنها متاهة دائرية. وبحسب الخريطة ذاتها يبدو النهر الذي يقطعها أشد تعرجاً؛ ثم إنه يجعل «باب البحر» أقرب إلى «باب المقالع» منه إلى «الباب الطيب». وإن لم أكن مخطئاً، وإن لم تخدعني ذاكرتي، فإن حيّ العميان» عنده يقع على حافة النهر المتلوي وليس بعيداً من النهر. هذا مع أنني في رحلتي إلى حيّ العميان قطعت مسافة بعيدة جداً عن النهر، مسافة تزيد عن ثلاث شمعات. لكن مرة أخرى فهذا ليس دليلاً على بعد المسافة: فقد أكون سلكت طريقاً طويلة في المتاهة الحجر. أما الفلكي فلعله سلك طرقاً مختصرة، وهو الخبير في هذه الطرق، والعائش فيها.

ملاحظة أخرى تتعلق بموقع «الباب الطيب»: أنا متأكد أنه في السور الغربي، لكنني لست متأكداً أي باب هو، الباب الأقرب إلى البحر أم الباب الأبعد؟ لك أن تختار ما تشاء.

الملاحظة الأخيرة تتعلق باسم «حيّ الأزرق»: لا يحمل الحيّ هذا الاسم بسبب الينابيع فيه، ولكن بسبب صخوره. فمنها يستخرجون حجر النيل الأزرق الذي يُستعمل في صبغ القماش. وكان هذا قبل نزولي إلى بلدهم. أما عند نزولي فكانوا بلغوا طبقة رمادية في الصخر خالية تماماً من حجر النيل الأزرق. ومع هذا بقي الاسم لاصقاً بالحارة، حارة ياسمينة.

*

ألوك الراوند المرّ ـ اللاذع كعود قرفة ـ وأنتظر قدوم ياسمينة. انطفأت الأنوار ونام البيت. الشيخ إسحاق يشخر في الزاوية. شخيره هذه الليلة ألطف من العادة. الهواء راكد لا يرتجف. وفي الجو برودة. البرودة تأتي بسرعة تحت الأرض. بين ليلة وضحاها تبدل الطقس. قدماي دافئتان في جورب صوف خاطته لي راحيل. من فراشي لا أسمع أنفاسها وهي ـ لا بدَّ ـ نائمة في الغرفة الأخرى. لكنني أسمع صفرة ريح في شبكة التهوئة. والصفرة الطويلة تُذكرني بأبي. أنسى أبي، لا أريد أن أتذكره، وأنا أنظر إلى بياض الحائط في الظلام، وأنتظر قدوم ياسمينة. مهم جداً أن تأتي إليّ هذه الليلة. فغداً سأنتقل من هنا إلى بيتٍ آخر. هذه ليلتي الآخيرة عند الشيخ إسحاق. وغداً أنام في بيتٍ آخر.

من بعيد سمعت صوت النشيج. الصوت الأليف الذي اعتدته في هذه الليالي التي تتكرر. كان البكاء يقترب. ثم سكت. قلت إنها الآن في باب البيت. خفق قلبي. لكن شيئاً في الظلام لم يتحرك. أين هي؟ لماذا لا تدخل؟ لو أستطيع النهوض وحدي من هذا الفراش لأستقبلها في الباب مرة واحدة!

يسكت البكاء ولا يدخل عليّ أحد. أنا وحدي. البرد يقوى. أبصق الراوند في كفي وأنتظر. البرد في فمي أيضاً. البرد في حلقي. البرد في بطني. البرد في قلبي. أين هي؟ أحسّ البرد شديداً أسفل ظهري. البرد، البرد، البرد. أين أنتِ يا ياسمينة؟

أنتظرها في الظلام، أقول لا بدَّ أن تجيء. على المائدة كان عباس الصياد يقول إن الجيك (الجغرافي الكبير) أخذه هو وإيليا مرة إلى المغارة المجاورة للمناجم: المغارة الضيقة التي لا يدخلها أحد. قال إن الجيك أعلمهما ـ بعد أن دخلا المغارة، حيث رائحة الهواء تشبه رائحة الفطر ـ بوجود طيور عمياء في هذه المغارة تشبه

الوطاويط لكنها ليست وطاويط، لأنها أكبر حجماً من الوطاويط ولأنها لا تتعلق بشعور البشر بل بأعضائهم التناسلية! قال عباس هذا على الطاولة وضحك. والشيخ إسحاق ضحك ضحكة خفيضة. وراحيل تورد وجهها وقامت لتأتي بإبريق الماء. بعد الطعام غادر الصياد مع زكريا. وبعد أن غسلت راحيل الصحون خرجت هي أيضاً. ولم ترجع إلاّ بعد وقتٍ طويل. دخلت وألقت عليّ وعلى أبيها تحية المساء المعهودة (كان الشيخ قد فرش فراشه وحده واستعد للنوم. لكنه، بينما ننتظر رجوع راحيل، فتح الناووس الحجر وأخرج الناي ونفخ فيه. كان ينفخ في الناي وقد ترك الناووس مفتوحاً وكان يحدّق إلى الناووس). وقفتْ لحظة هكذا عند باب غرفتها كأنها تريد أن تقول أمراً، ولا تعرف كيف تقوله. تلكأت دقيقة ثم ألقت تحية المساء مرة أخرى:

ـ ليكن نومك عميقاً وتفتح عينيك مرتاح البال!

ثم اختفت في الداخل.

الشيخ نائم. وراحيل نائمة. وأنا أنتظر. ما هذا الصوت الذي أسمعه؟ موسيقى؟ ضحكات؟ لكنهم لا يصدرون ضجة في الليل هنا! ثم ان هذه الموسيقى لا تُعزف أبداً تحت الأرض. لا يوجد عندهم إلاّ الناي. الناي والربابة. آلات نفخ. لا يوجد غيرها. من أين يأتي هذا العزف إذاً؟ أصختُ السمع. حين أدركتُ أنني أسمع الأصوات من أعلى، من عالمي، شعرت بحاجة إلى البكاء. لم أبكِ. لكن صدري ارتجف.

وسألت نفسي لماذا لا أبكي؟

كانوا، فوق، يسهرون ويضحكون ويعجقون المطاعم والمقاهي. يسمعون الأغاني ويرقصون ويتكلمون. وكنت وحدي.

تحتهم بأمتار. تحت الزفت والتراب. في جوف الأرض حيث تحيا الفئران والسلاحف والجرذان والأفاعي والحشرات. وسألت نفسي متى أطلع إلى فوق من جديد؟ تذكرت ليالي لا تحصى من الحراسة، وأنا أقف أمام إحدى البنايات، أو أقعد على كرسي بلاستيك، آكل سندويشة جبنة قشقوان بقر «حاجي بهار» في خبز أفرنجي مع خيار، وأنظر إلى سرب فتيات في تنانير قصيرة إلى فوق الركبة ينحدر في شارع المعرض بين الكراسي والطاولات العامرة بأصناف طعام وشراب. الوقت ليل، والشارع يغرق في أنوار المصابيح الكهرباء، والتياترو الكبير في الأعلى تلفه شبكة خضراء واسقالات خشب، والأنوار البرتقالية تتسلقه من أسفل كأنها تغمره بأمواج الماء. أرى علامات الـ X على بلكوناته العالية الباطون تشبه علامات الـ X التي ترسمها ماكينة المصرف حين أحاول إخراج مال بالبطاقة الإلكترونية ثم أضجر من محاولاتي (أظل أنسى رقمي السرّي) فأدخل إلى المصرف وأسحب مالاً بعد أن أشرح للموظف ما حدث. وسألت نفسي ـ وأنا في الكهف «تحت» ـ هل أدخل ذلك المصرف مرة أخرى وأرى كل تلك الوجوه التي أعرفها ولا أعرفها، التي أعرفها تماماً كما أعرف علامات الـ X على شرفات التياترو الكبير الذي لم ينتهِ ترميمه بعد.

الضجة تعلو «فوق». ثم تتلاشى. هل انتهى الليل؟ هل تقفل المطاعم أبوابها الآن؟ هل يغادر الناس، ونصفهم يترنح، ويطلعون إلى مواقف السيارات وراء «شارع الأمير بشير»، وراء التياترو ووراء اللعازارية ووراء تمثال رياض الصلح، يطلعون في سيارات فخمة فارهة، سيارات ألمانية ويابانية وأميركية وسويدية، ثم ينطلقون في الظلام الرطب المضاء بأعمدة الكهرباء، ينطلقون على شوارع الإسفلت العريضة إلى بيوتهم وفنادقهم وقصورهم، أو يعبرون

الجسور والأنفاق إلى النوادي الليلية في الأشرفية وجونيه والمعاملتين. حرستُ مرة مجمعاً تجارياً في الكسليك، وكنت أرى الليل يستمر هناك صاخباً بالضحكات والنساء الروسيات العابثات حتى تلوح نجمة الصباح وتظهر العيون حمراء ـ خالية من الطاقة ـ ناعسة، لا تطلب إلاّ النوم ونعمة النسيان.

وسألتُ نفسي وأنا «تحت» هل أرى تلك العيون الأرنبية مرة أخرى «فوق»؟

الأصوات تتبدد والبرد يضاعف لسعته. إلى متى أنتظر؟ ألن تأتي ياسمينة هذه الليلة؟ ولماذا لا تأتي؟

أحدق إلى الحائط الأبيض وأرى ـ أو أتوهم أنني أرى ـ حدود الساعة المدوّرة وشبح القنديل الذي لا يُضاء أبداً. بياض الحائط يملأ عينيّ بنقط لونها كالذهب. النقط تتراقص أمامي في الظلام. الظلمة الدامسة، الصمت، الشخير اللطيف الذي يتواصل، كل هذا يضعني في مسرح غامض، فأضيع معلقاً في فراغ الكهف البارد، أضيع معلقاً في الفضاء، ولا أعود أدري أين أنا. ومع جسمي الذي صار نحيلاً، هذا البدن الذي ما عادت جاذبية الأرض تجذبه إلى الأعماق، ينتابني الإحساس أنني لست أنا. أنا لست أنا. أين أنا؟ أضيع ولا أعود أعلم مكاني. ولا أعود أعرف من أكون. ماذا أنتظر؟

كأنني في تلك الصالات المظلمة أُبدد نهاراتي كلّها بالتحديق إلى صورٍ تتلاحق على شاشة بيضاء تمزقت قماشتها واحترقت زواياها وبانت فيها الثقوب: أسمع الأصوات ولا أفهم اللغة التي يتحدثون بها لكنني أحبّ رنين الكلمات في الفضاء المظلم. أفلام البورنو يونانية أو تركية أو إيطالية، تملأ الفضاء بأجسام عارية بيضاء. أنعس قاعداً «تحت»، وأنسى أين أنا.

أذكر حين رأيت من منور البناية سرب حمام يحلّق أعلى «برج المرّ» ثم يدور في قوس واسع، تحت سماء رمادية، ونور الشمس يظهر من بطانة السحاب، وينعكس على أجنحة الحمام. الحمامات تظهر وتغيب، تُحلق فوق برج المرّ ثم فوق مجمع اللعازارية (أبي أخبرني أن هذا المجمع كان ديراً، وأن الناس كانت تقول عن كل محتال أنه مثل «بناديق اللعازارية»، وهؤلاء هم الأيتام والأطفال الذين لا يُعرف أصلهم ويُتركون في سلال على باب الدير، فتُربيهم الراهبات اللعازاريات، لكن لماذا يطلعون بلا تربية؟) ثم فوق ساحة رياض الصلح (أعرف مكانها لكنني لا أراها من هنا، تحجبها البنايات التي احترقت طبقاتها) ثم فوق ساحة الشهداء. وأرى ـ من منور البناية، من الطابق العلوي ـ أرى سرب الحمام يحطّ على سطح إحدى البنايات، بين ساحة الدباس وساحة البرج، عند الطرف القريب من «الصيفي»، ليس بعيداً عن «مبنى الشرطة». ثم أرى مذهولاً قماشة حمراء ترتفع على سطح البناية المحروقة، وأرى الحمام يطير. بعد ذلك أبدأ رؤية الغسيل المنشور في نوافذ البنايات المتداعية. ثم أرى، على وجه المستنقعات التي يحجب بعضها «جسر فؤاد شهاب»، مراكب بيضاء من الكرتون، ومراكب صفراء، ومراكب رمادية. وأرى أولاداً يركضون بين سيارات احترقت وتفحمت. وأرى مطرات ماء بلاستيك ملونة بين متاريس عالية تمزقت أكياسها وتجمدت الرمال فيها. ثم أرى امرأة في ثوب أخضر تعبر بين أكوام خشب وحديد، تعبر بين متاجر تشلعت أبوابها ونبت على رصيفها الشوك والعشب والطيون. أراها تعبر في الدمار، تخترق الأرض المحروقة، حاملة سلال الخضر (بقدونس ونعناع يبرق خضرة في عينيّ الغائمتين)، وعلى رأسها صندوق قصب أو خيزران تتطاير فيه الدجاجات والريش الأبيض يتطاير، يعلو الريش

ويعلو، ثم يضيع وراء أعمدة دخان فحمية السواد تتصاعد من نيران لم تهمد بعد، أو من نيران تشتعل للتو. تختفي المرأة عن نظري، لكنني أظل أرى الأولاد يخوضون في المستنقعات، وبين خنادق الوحل، ثم يركضون. وأرى عربات وباعة كعك بزعتر وسماق وباعة سمسمية وغزل البنات! متى جاؤوا إلى هنا؟ متى سكنوا هذه البنايات؟ لم أرَهم يأتون. والمتاريس والشاحنات المحروقة المقلوبة على جنبها تحت الجسر، أسفل «مونو» المنحدر، تسدّ الطريق إلى ساحات وسط البلد! كيف عبروا المتاريس والحواجز وجبال الإسمنت والحديد والرمل والسيارات المحطمة؟ هل جاؤوا من الجانب الآخر؟ من «بيروت الغربية»؟ وكيف لم يقتلهم القصف المدفعي؟ وكيف لم يقتلهم رصاص القنص؟ أنظر إلى عائلات قاعدة في الساحة، بين تماثيل تساقطت وتحطمت أطرافها، وأراهم يأكلون ويشربون. يشوون لحماً ويرشفون عرقاً مبرداً بالثلج، ويغنون. أرى سيارات بيجو ومرسيدس مفتوحة الأبواب، وعلى مقاعدها يقعد بشر أحياء ويتكلمون. ماذا أتوا يفعلون في هذه الساحات المدمرة؟ الموسيقى تعلو من راديو أسود ضخم على سطح إحدى السيارات، محمد عبد الوهاب يغني، وامرأة ترقص. ما هذا؟ وأرى سرب الحمام يحلق مرة أخرى، والسماء تتباعد غيومها، ومبنى الشرطة (لا أراه كلّه، أرى جانباً منه) يغرق في الضوء. «الأرزة» لم تسقط عن سطحه بعد. وقناطر شرفاته تحتفظ بالأباجور الخشب ولو مخلعاً. ثم أرى رؤوساً تطلّ من الداخل. وأسمع نداءات. لا أحد يراني. أنا بعيد. أنا هنا. في «الشرقية». وراء الجسر. لكنني أراهم. بعد أيام سأعبر المتاريس والدهاليز بين المتاريس. أتسلق مرتفعات وأهبط في أخاديد. تحت الجسر الإسمنت العملاق أرى بركاً موحلة. الشمس لا تصل إلى هنا. الخز (الطحلب) يغطي الأرض

بخضرته. على الدرج الطالع إلى أعلى أرى عظاماً آدمية (بعد الحرب، حين رمّموا الجسر، أزالوا الدرج.)رائحة العفن تطغى على هذه الأخاديد. أزحف تحت الدرابزين الضخم فيتسخ بنطلوني. أقف وأمسح الوسخ عنه. أرى أمامي مستنقعات خضراء تطفو على وجهها أكياس النايلون كأنها قناديل البحر. وراء المستنقعات أرى بيانو كبيراً مفتوحاً، لكنني لا أرى أصابعه البيضاء والسوداء. غطاء البيانو خشب لامع تنعكس فيه قبب كنيسة الأرمن بقرميدها المحروق. البيانو يجذب جسمي إليه جذباً. أعبر المستنقعات وأنا أرى بطرف عينيّ أولاداً يطلّون من بين البنايات السوداء والبيضاء. أهبط ثم أطلع. الأرض غير مستوية. الشظايا في كل مكان. والزجاج المحطم. والأثاث المحروق. لماذا يُخرجون الأثاث المحروق من البنايات؟ إنه لا ينفع! إنه محروق! حتى خشبه تفحم!

أذكر هذه الساحات مستوية بلا أخاديد. أذكرها قبل الحرب. وأنا مع أبي نقطع بين البشر والمتاجر والسيارات القديمة، نقطع متاهة مزدحمة بالأصوات والألوان والروائح والمشاهد العجيبة إلى الجانب الآخر. أذكر الرجل الذي يلف سندويشات الفلافل. أذكر الأرغفة وراء حاجز الزجاج على الرخامة المعرقة البيضاء. عدد لا يحصى من الأرغفة المفتوحة. يدلق وعاء الفلافل في كومة فوق الأرغفة ثم يوزعها مسرعاً، ثلاثة أقراص في كل رغيف، ويكبسها بأصابع محمرة كأنها احترقت بالزيت. لا أنظر إلى أقراص الفلافل في الصاج الكبير تتقافز فوق زيت يغلي. أنظر إلى أصابعه تهرس الأقراص على الأرغفة المفتوحة، ثم تفرم حبّات البندورة الحمراء. لا أصدق عينيّ. أنا الذي كنت أحسب أبي ماهراً في فرم البندورة وتقطيع الخضار أرى اليدين تتحركان كأنني أرى مشهداً من عالم آخر. حين يفرم حبّات الفجل الصغيرة (يحمل الحبّة بين أصابع

يمناه، والسكين الحاد بين أصابع يسراه، ويرفع يديه فوق الرغيف، ويبدأ!)، أرى شرائح الفجل تتساقط بيضاء ـ زهرية، رفيعة، دقيقة، أنيقة، فوق شرائح البندورة الجبلية الدموية الحمرة، ويفرح قلبي. حين يكمش البقدونس المفروم من علبة البلاستيك الزرقاء ويرش البقدونس رشاً فوق البندورة والفجل أرى أقراص الفلافل المهروسة تختفي. تختفي بقشرتها البنية الذهب المحمرة وببطنها الأصفر المشبع بالبخار. لا ينتهي الأمر عندئذٍ. أراه يرفع إبريقاً زجاجاً مملوءاً بالطرطور ثم يسقي الأرغفة سقياً. الطرطور الكثيف يسيل فوق السندويشات المفتوحة ورائحة الطحينة تفوح وفمي يملأه اللعاب. الناس يحتشدون حولي، ويدي تعرق في يد أبي، ولا أترك يده إلاّ لأتلقى السندويشة الدافئة، ملفوفة بورقة سمراء.

أسواق الوسط التجاري احترقت في حرب السنتين (1975 ـ 1976). أصحابها تركوها وسافروا أو هاجروا أو انتقلوا بتجاراتهم إلى أماكن أخرى من المدينة. المنطقة تحولت بعد نهبها واحتراقها إلى خط التماس بين شطري العاصمة. أنت تعلم كل هذا. وتعلم أن فقراء ومهجرين من الجبل والشمال والجنوب، ومن مناطق أخرى في بيروت، جاؤوا وسكنوا في بنايات الوسط المحروقة المهجورة الفارغة، جاؤوا وسكنوا فيها وظلّوا فيها طوال الحرب، ولم يخرجوا منها بانتهاء الحرب. ظلّوا فيها حتى أتت الجرافات وجرفتها. حين جاءت الجرافات، وجاء المهندسون يحملون المتفجرات، تهجّر أهالي الوسط التجاري إلى أماكن أخرى.

أنا لم أكن أعلم أن منطقة الدمار تلك مسكونة، حتى رأيت الأولاد على ضفاف المستنقع تحت جسر فؤاد شهاب. دلّني إلى الأولاد ذلك السرب من الطيور. لولا الحمامات ما رأيت الأولاد في ذلك النهار. (مع أنني كنت أسمع من أخي نزار قصصاً عن عبور

رفاقه المتاريس إلى حارة الغلغول المجاورة للعازارية، وإلى سينما التياترو الكبير حيث تُعرض أفلام بورنو للمسلحين والمحششين والمهجرين ومن يشاء).

أذكر البنايات المنخورة بالشظايا والرصاص. مداخلها تغطيها أتربة ونفايات، وعلى العتبات تنبت جبوب الصعتر والشوك والطيّون. أذكر القمصان الملونة الرطبة، والثياب الداخلية البيضاء والسوداء، تخفق في النسيم على الشرفات التي تشلّع درابزينها أو سُرق حديدها. أذكر قطة سوداء سمينة، وقططاً صغيرة كالفئران ترضع أثداءها البشعة الحمرة على البلاطة الحجر أسفل تماثيل الشهداء. أذكر أعشاش الطيور في الطابق الثالث من سينما ريفولي التي تحجب البحر. أذكر مبنى سقط نصفه وبقي نصفه، فصعدتُ على الدرج في النصف الباقي وجلست على سجادة تغطيها الحجارة وقرأت جريدة متروكة هناك من تسع أو عشر سنوات. جريدة صفراء، متجعدة، رطبة، لكن كلماتها مقروءة.

لا أذكر الآن ما قرأت. لكنني أذكر قعودي نصف ساعة، أو حتى ساعة كاملة، فوق. (من شق في حائط كنت أرى زرقة السماء!) تحتي، معلقة في الفراغ، بانت خزانة خشب تساقطت منها الثياب ثم اختفت. لم تختفِ كل الثياب. رأيت ثوباً أصفر عالقاً بقضبان حديد، تتطاير أكمامه المهلهلة في الهواء.

أذكر عنكبوتاً ينسج بيتاً في سقف البيت. أذكر حشيشاً نابتاً بين البلاطات. أذكر نافذة بقي من زجاجها بعض القطع المحطمة، ناتئة من الحائط في مثلثات ومربعات ومستطيلات. لمست حافة الزجاج بإصبعي: كان مترباً، لم يكن حاداً! ورأيت ـ بين المستنقعات في الأسفل ـ حماراً يرعى العشب، ويرعى تلّة قاتمةويلتفت برأس كسولة إلى هنا، ثم إلى هناك.

دخلت باحة اللعازارية. كانت أرضها مملوءة بالحفر، والوحل يغطي مداخل المتاجر التي احترقت وسُرِقت فلم يبقَ منها إلاّ الأسود على الحيطان، وحديد الأبواب المشلعة المنفوخة كالبالونات بضغط الإنفجارات. على درج يصعد إلى أعلى رأيت ذباباً يطنّ، كومة من الذبّان.

كان نزار يخبرني عن مطعم ينزل إليه مع رفاقه في تلك المنطقة. مطعم اختصاصه البيض، يعمل بيضاً «كوزمو» بالبندورة والحرّ، وبيضاً بالكمون مع نقارة كوسى، وبيضاً عجة مع شمّار، وبيضاً مسلوقاً مع مايونيز. أنا قرأت ما كتبته أنت في «الحياة» عن مطعم البيض في حارة الغلغول وعن شهرته بين أهل الوسط أثناء أزمنة الخراب. وتذكرت حكاية أخي. لكنني حين سألته عن «مطعم البيض» مرة أخرى قال لي إن المطعم لم يكن يُقدم أطباق البيض فقط، ولكن البيض كان تميزه. وهو ـ نزار ـ أكل عنده سندويشات نقانق مع بطاطا مقلية، وكبيس خيار، وحامض ليمون، مسخنة على سخان الكهرباء، وقال إنها أطيب سندويشة مقانق أكلها في حياته. أنت كتبت أن صاحب المطعم كان بعلبكياً، لكن نزار يقول إنه كان من البسطة (بيروت الغربية). وأنت كتبت أن الكراسي في مطعمه كانت من المخمل الفخم ومسروقة من «القصر الحكومي». ولكن نزار يقول إن كراسيه كانت خشباً عادياً وخيزراناً مثل كراسي الخشب في المقهى المجاور للمطعم. أنت لا تذكر هذا المقهى أبداً (مقهى الشرقاوي). لكنك ذكرت فرن المناقيش (محل «بيت السلمون» الآن) وصاحبه الجنوبي، ونزار قال إنه يعرف الفرن وأكل عنده لحمة بعجين.

بعد تلك الرحلة الأولى إلى الوسط التجاري الذي امتلأ رويداً رويداً بالمهجرين الآتين من أنحاء البلاد، اعتدت كلّما حدث وقف

إطلاق نار، وكفّت القنابل عن التطاير فوق الجسر وفوق البناية وفوق الساحات، أن أنزل إلى «تحت»، عابراً متاهة المتاريس والأنفاق، ثم عابراً المستنقع الذي يتحول خندق وحل خلال الصيف. . . أقطع الركام، أرى الفئران والكلاب والقطط يطارد بعضها بعضاً، ثم أدخل إحدى الصالات الكثيرة وأغرق في كرسي في الظلام (سينما سيتي بالاس لم تكن تعرض أفلاماً: كنت أرى عائلات تخرج وتدخل، وسيارات لا أدري عددها تتوقف تحت أعمدتها السوداء. باتت السينما المحروقة مجمعاً سكنياً عندئذٍ!)

أبقى زمناً لا أدري طوله، غارقاً في العتمة، أنتظر أن يشتعل نورٌ على شاشة بيضاء. أدخن سجائر «سيدرز»، أشرب نبيذاً أسبانياً رخيصاً، وأنعس. في الشتاء أجيء لابساً معطفي الجديد أو معطف أبي القديم. المكان بارد في الشتاء.

أنتظر وأنتظر وأنتظر. وياسمينة لا تجيء.

*

أعلم أنها ليلتي الأخيرة في بيت الشيخ إسحاق وفي «حي شيخ محمد». عرفت هذا ونحن على المائدة، بينما ننتهي من تناول الطعام. أعلم أنها ليلتي الأخيرة في هذا الفراش الذي اعتاد عليه جسمي. ومع أن الليل تقدم كثيراً ـ وحتى في الأعلى ساد السكون ـ فما زلت أنتظر ياسمينة. أنتظرها وعيناي ثقيلتان. أغفو قاعداً في الفراش هكذا، راجفاً أحياناً من البرد. في نومي يُخيل إليّ أنني سمعت أنفاسها. وحين أفتح عينيّ لا أرى إلاّ الظلام وخيال الحائط الأبيض.

ذات لحظة، وأنا نائم هكذا، أحسّ نفساً حاراً على أنفي وخدي. هل أنا واهم؟ هل هو منام؟ لا أدري، لكنني تعبان،

شبعان تعباً، ولا أستطيع أن أقاوم هذا النعاس الثقيل. لا أفتح عينيّ، وأحسّ النفس الحار على عينيّ أيضاً. أفكّر أنني واهم (هذا كلّه يجري في وقتٍ قصيرٍ جداً) فلو أنها هي، لو أنها ياسمينة، لسمعتُ صوت نشيجها أولاً. لكنني لا ألبث أن أدرك أنني لا أرى مناماً. لأن الوجه الحار يلمسني، واللحم الطري الساخن يتمرغ على وجهي. جاءت!

من دون أن أفتح عينيّ غمرتها وسحبتها إلى فراشي. لم أفهم لماذا لم تخلع ثوبها كالعادة.

بنيما أُقبّل رموشها الطويلة لم أذقْ دمعاً مالحاً اعتدت مذاقه وحرارته بعد طعم «الراوند» المرّ البارد! عندئذٍ فقط فتحت عينيّ.

لم تكن ياسمينة! في الظلام الدامس عرفت أنها ليست هي. هل عرفت بعينيّ الناعستين أنها ليست ياسمينة؟ بلى، عرفت بعينيّ، ولكنني عرفتُ أيضاً حين غمرتني تلك الرائحة، رائحة حيوان مفعم عاطفة، رائحة راحيل التي لم أفهم كيف صار جسمها حارقاً هكذا، لا ولا فهمت لماذا تجيء ـ بعد كل هذا الوقت الذي انقضى ـ إلى فراشي!

*

تملصت راحيل من ذراعيّ. رأت حركتي تهمد، فتملصت من ذراعيّ. قامت عن حافة السرير ووقفت جنب المقعد الحجر.

ـ لا تنتظرها. لن تأتي. الليلة لن تأتي.

لم أعرف كيف عرفت هذا.

ـ هي قالت لي إنها لن تأتي. أنا ذهبتُ إليها وراء النهر وأخبرتها أنك غداً لن تكون هنا. وقلتُ لها إن أبي لا يريدها أن تدخل بيتنا، على الأقل ليس هذه الليلة.

بقيتُ صامتاً لا أدري ماذا أقول. تابعتْ هامسة:

ـ أبي لم يقل شيئاً. أنا قلت هذا لها لأنني لم أعدْ أريدها أن تأتي إلى فراشك كل ليلة. تأخرت في هذا، أعلم أنني تأخرت. لكنني حين عرفت أنك غداً لن تكون هنا، أنك ستذهب إلى «حيّ المعامل» أردت أن أحكي معك. أن أحكي أنا وأنت وحدنا.

كان همسها راجفاً، والشيخ يتابع الشخير، وقالت:

ـ أبي لا يعرف شيئاً. لا تشغل بالك. يعمل كالثور كل النهار. حين ينام لا يفتح عيناً حتى أهزّه هزّاً. لم أرَ ثوراً في حياتي. وُلدت هنا، تحت الأرض، وهنا عشت كل حياتي. هناك ثور مرسوم بالأبيض على الحائط عند طرف السوق، عند مدخله الآخر. أنتم تربطون الثور ليجر سكاكين فتحرث الأرض التي تزرعونها. أعرف شكله والقرون في رأسه. هل تعرف ماذا أريد؟

هززتُ رأسي في الظلام أن لا، لا أعرف. سكتت لحظة ثم قالت:

ـ أريد أن أرى كل تلك الأشياء. هل تأخذني معك إلى برّا؟

*

ماذا أقول؟ أبقى ساكتاً وطعم الراوند على لساني وعلى سقف حلقي. راحيل تقعد على حافة السرير. تتابع الكلام حين لا أتكلم. لا أدري كم يطول حديثها. في الظلام أرى بياض وجهها وأرى لمعة عينيها. أرى أيضاً القماشة البيضاء الباهتة الزرقة على شعرها. أسمعها تحكي، تهمس في الليل، وأفكر أنني علقت إلى الأبد في هذه الليلة. لن أخرج من هذا الكلام الذي يسيل متدفقاً. سأغرق فيه ولن أنجو. تحكي وتحكي وتحكي. وأنا أسمع. كيف لا أسمع؟ كل هذا الوقت كنت مطروحاً في الفراش وهي تغسلني

وتطعمني وتكلمني وتعتني بي، كأنني ابنها أو زوجها. كيف لا أسمعها الآن؟ هي تحكي وأنا أسمع.

قالت راحيل إن ياسمينة أختها. قالت إن ياسمينة مثل أختها، وأنهما في الطفولة كانتا تسكنان بيتين متلاصقين. قالت إنها لا تحبّ في هذه المدينة كلّها مخلوقاً مثلما تحبّ ياسمينة. بلى، بالتأكيد، تحبّ أباها أيضاً، لكنها لا تحبّه مقدار ما تحبّ ياسمينة.

ـ صرت تعرف أبي. أبي يحيا مع. . .

سكتت. قطعت جملتها، لكن رأسها مال إلى جهة أبيها النائم، وإلى الناووس. هل كانت تدلّني إلى الشيخ أم إلى قوارير الرماد في الناووس؟

قالت راحيل إنها تعلم أنني أريد أن آخذ معي ياسمينة، أن آخذها إلى «برّا». تعلم هذا وقالت لياسمينة أنها تعلمه وحذرتها هي أيضاً مثلما حذرتني: إذا صعد أحدنا إلى «فوق» يعمى. لا يعود يرى. يحرق شعاع الشمس شبكية العين فتفقد البصر ولا تسترده أبداً. قالت راحيل أنها حذّرت ياسمينة، لكن ياسمينة لم تعدْ كاملة العقل منذ رحل إيليا.

أردت عندئذٍ أن أتكلم. لكني لم أتكلم. وظلّت تحكي.

قالت راحيل إنها تعرف ناساً جاوزوا الأسوار (قالت «الأسوار». لم تقل «الحيطان» كما تفعل دائماً.) تعرف ناساً جاوزوا الأسوار، وحين رجعوا لم يعرفوا بيوتهم ولم يعرفوا أهلهم! (فكرتُ عندئذٍ أنها لا تعرف أحداً من هؤلاء. لكنها سمعت قصصاً. ولعلها سمعت القصص من المؤرخ أو الفلكي أو حتى عباس الصياد، كيف أعلم؟). قالت راحيل إن الواحد منهم كان يصل إلى أمام بيته وهو يطرطق بعكازه فلا يعرف أن هذا بيته. مع أنهم لم

يكونوا جميعاً فاقدي البصر. قالت راحيل إن الواحد إذا ترك بلده أُصيب بالخبل.

ـ مثل ياسمينة حين صارت بلا زوجها، قالت.

أردتُ أن أتكلم. لم تدعني. قالت إنها لا تشتُم ياسمينة، ولا تريدني أن أدافع عنها، لأنها تحبّ ياسمينة. وإذا قالت هذا عنها تقوله حزناً. وقالت أن قلبها انكسر حين تزوجت ياسمينة، لأنها لم تكن تريد أن تفترق يوماً عنها. إلى هذا الحد تحبّها، قالت.

كنت أريد أن أسمع كل كلامها. لكن صوتاً كالطنين انطلق في رأسي. كانت تحكي عن فراق ياسمينة وأنا أتذكر ابن خالتي الذي خطفوه سنة 1987. لا أذكر إبراهيم إلاّ ضاحكاً، ولا أذكره يحكي إلاّ مرتفع النبرة. صوته قوي، كأنه ابن جبل، مع أنه لم يربَ في الجبل، بل في بيروت. بيت خالتي كان في الجانب الآخر من المدينة، في «الغربية». كلّما فُتحت «المعابر» في فترات الهدنة أذهب إليه، أو يأتي إليّ. آخذه معي إلى «سينما بافيون» لنشاهد أفلام بروس لي ونتمشى في «الحمرا» ونشرب بيرة ونأكل كاجو وفستقاً حلبياً (في جيوبه مال كثير دائماً) أو نذهب إلى «سينما سالومي» ونجول في «برج حمود» ونأكل فولاً مدمساً وفتّة باللبن والحمص عند «الديماسي». الفتّة باللبن أكلته المفضلة. يطلب من الرجل أن «يبحبح» الصنوبر المحمر بالسمن، وأن «يبحبح» اللبن. يقول إن الفتّة بلا لبنٍ يغمر الجاط ليست فتّة. أينما ذهبنا يتكلم مع الناس كأنه يعرفهم منذ زمنٍ بعيد. أنا أتراجع إلى خلف خطوة وأتفرج عليه كأنني أشاهد فيلماً. حين جلب زوج خالتي من الكويت جهاز فيديو صرنا نستأجر أفلام جاكي شان ونقلّد الحركات فيها. قفز مرة عن حافة سطح، قريباً من «جنينة الصنائع»، فلوى كاحله وظلّ يعرج ثلاثة أسابيع. استغل الفرصة فاشترى عصا وكان

يرفع العصا ويرقص ونحن عائدين إلى البيت في الليل، بعد أن قضينا السهرة نمشي على الكورنيش وننظر إلى البحر ونتبادل الأخبار ونضحك. ينتهي من «الترمس» فيهرع إلى عربة أخرى ويبتاع كستناء مشوية، أو ذرّة مسلوقة، أو «كلاوي يا فول». يضحك مع الباعة، واقفاً في نور لوكس الكاز الأصفر المشع، يطلب من الرجل أن «يبحبح» الكمون والحامض على الفول، لأن الفول بلا قطع الحامض وبلا كمون ليس «كلاوي يا فول»! لا أذكر في حياتي مخلوقاً كثير الضحك مثله. حين فتحوا نادي كاراتيه في جوار البناية تسجَّل على الفور. خالتي كانت تقف على الشرفة، تتحدث مع الجارات، فتراه خارجاً من النادي ـ في الأسفل ـ وهو يتضارب مع رفاقه ضاحكاً، في بذلة الكاراتيه. حين يراها تتأمله من فوق يشدّ الرباط الأسود على خصره، ويبتسم عن أسنان ناصعة البياض. أكون معه مرات، وحين يجمد هكذا، وقد كفّ عن الضحك ومصارعة أقرانه، وأرسل إلى أمه على الشرفة تلك الإبتسامة الثابتة، يبدو شبيهاً بأبي. لا أعلم كيف، لعله لا يبدو حقاً شبيهاً بأبي، لكنني على الأقل كنت أشعر هكذا عندئذٍ. لا يأتي زوج خالتي من الخليج مرة إلاّ ويغمرني بالهدايا كما يغمره. خالتي تقول لي إنني مثل ابنها. حين تُقبلني على رأسي لا أتذكر أمي. أنا ـ مثل أبي ـ لا أحبّ الكلام عن أمي ولا التفكير فيها. (مع أنني أعلم أن أبي كان دائم التفكير فيها. التفكير، لا الكلام.) زوج خالتي لا يأتي إلى البلد كثيراً. أذكر الدشداشات والساعات التي كان يجلبها معه. أذكر قصصه عن قرى على البحر وعن صيادي السمك و«الغوّاصين على اللؤلؤ»، يغطسون عراة ويطلعون بسلال مملوءة محاراً. خالتي تتفنن في إعداد أطباق اللحم حين يأتي إلى البيت. تُرسلني مع «برهوم» إلى الملحمة جنب «التعاونية». صاحب الملحمة ضخم

الجثة، ذقنه بيضاء، يُعلق على الحائط صورة الإمام موسى الصدر. أولاده يشبهونه، كلّهم ضخام، كلّهم في نادي الكاراتيه، وكلّهم أصحاب إبراهيم. نراهم يقطعون اللحم، عابرين بين الذبائح المعلقة، ويتكلمون. يضحكون مع إبراهيم، وأنا قاعد في الزاوية، حيث الكراسي القليلة، أنظر إلى رجلٍ يمزج لحماً مفروماً ببقدونس وبصل، ويرش على الخلطة بهاراً وملحاً. حين نخرج حاملين لفّات الورق (الجرائد القديمة فيها اللحم الملفوف بالنايلون الشفاف) يخبرني إبراهيم أن كبير الأخوة الخمسة «كان قائد قطاع برج البراجنة، ثم ترك»!

راحيل تهمس في الظلام وأنا أريد النوم. إذا كانت ياسمينة لن تأتي الليلة، فهذا ما أريده الآن. لا أريد أن أتذكر قصصاً لم تعد تعني شيئاً. ولا أريد أن أسمع كلام راحيل. تعبان. أريد أن أنام.

*

أغمض عينيّ لكن راحيل لا تسكت. لعلها لا ترى وجهي في الظلمة. لعني أستطيع النوم وهي تواصل الكلام؟ لكنها تسكت. تسكت وأسمع حركة جسمها، وحفيف ثوبها الخشن، كأنها تنحني. أفتح عينيّ فأراها ترفع شيئاً عن الأرض ثم أدرك أنه الإبريق. تريد أن تشرب! بعد؟ بعد؟ لم ينتهِ الهمس بعد؟ (لا بدَّ أنها حكت في تلك الليلة أكثر مما حكت في حياتها كلّها! كأنها حكت في تلك الليلة الواحدة كل الحياة!)

الكلمات تغمر رأسي. وحين تسكت راحيل بعد وقتٍ طويلٍ (شخير الشيخ يرتفع، لا بدَّ أنه الفجر!) أسقط إلى أعماق النوم.

*

وأنا أنام أتذكر كلماتها الأخيرة:

ـ . . . لكنني لا أقدر. هو أبي. وليس له غيري. لا. لا أقدر. لا أقدر أن أتركه. عليّ البقاء معه. صار عجوزاً. من يعتني به إذا تركته؟ من يطبخ له؟ من يُرتب فراشه؟ لا أقدر أن أذهب. لا، لن أذهب. عليك أن تفهم. ليس له غيري.

أغفو ـ بعد أن تدخل غرفتها ـ فأرى «ناس الوحل». بينما أراهم يرفعون أجساماً متعبة عن الأسرة المعلقة بين الأشجار، أتذكر أن راحيل كانت تخبرني عنهم قبل قليل. ثم أنتبه أنني لا أرى شجراً، بل أعمدة، أو لعلها مسلات حجرية. ناس الوحل ينظرون إليّ. أبتعد إلى ساحة دائرية مبلّطة بالصدف البحري. فأرى نفسي أمام سرير وحيد، سرير من الخشب، بلا فراش، وعلى السرير يتمدد «رجل وحل». أسمع شخيراً حزيناً مديداً. الهواء يصفر في أذنيّ، وهو ينقلب على جنبه، ثم يرفع رأسه على كفّه ويسألني متى استيقظت؟ أريد أن أقول شيئاً. لكن الظلمة تهبط على الساحة وتغمر الفضاء. أسير في الظلمة بين بنايات تميل عن الجانبين. لا أراها، لكنني أشعر بوجودها. وأشعر بها تميل. فأبدأ بالركض لئلا تسقط عليّ.

هكذا مرّت عليّ سنة كاملة وأنا تحت التراب. لا تعتقد أنني حين أقول لك هذه الكلمات ألفظها بسهولة. هل تسمع هذا الصوت الضعيف الذي يطلع خافتاً من حنجرتي؟ هذا ليس صوتي. كان صوتي قوياً قبل أن أنزل إلى «تحت». أبناء الجبل، حتى ولو تهجّروا إلى المدن الضيقة وهم صغار، يظل صوتهم عالياً: هكذا تعودوا أن يتكلموا في الفلوات! كنا ننادي على أبي من هضبة إلى أخرى. وكان أبي ينادي على أبناء القرى البعيدة في القاطع المقابل ليأخذ دور «السقاية» من مياه «قناة المير». كيف أنسى؟

لكنني الآن لا أريد أن أحكي عن أبي. سنة عبرت، والأرض دارت دورة كاملة حول الشمس، وأنا في جوف الأرض. موسم الأمطار الأول قضيته فاقد الوعي في بيت الشيخ إسحاق، وموسم الأمطار الثاني قضيته على الكرسي الحجر المتحرك أتجول في المتاهة المطمورة التي يسمّونها «بيروت».

قبل أن أغادر بيت مضيفي في «حي الشيخ محمد» أخرجتُ ألف ليرة من جيبي وأعطيتها لراحيل. المال تحت بلا قيمة. ولا أحمل صَدَفاً بحرياً في جيوبي. أعطيتها الورقة النقدية لأنها ذات مرة رأتها تقع من بنطلوني فأثارت فضولها. أحبّت الرسوم عليها. شرحتُ لها أن هذا الرسم هو خريطة بلادنا ـ فوق ـ وقلت انظري،

لا يكتبون على الخريطة إلاّ اسم العاصمة: «بيروت». وقلبت الورقة الزرقاء، وقلت لها انظري، هذا هو المصرف الذي يطبعون فيه هذه الأوراق، وانظري هنا، هل ترين هذه الأعمدة العالية، هذه أعمدة بعلبك، باقية ـ مثل مدينتكم هذه ـ من أيام الرومان. وكنتُ أحمل أيضاً قطعاً حجراً نقدية من فئة الـ 500 ليرة عليها نقش «الأرزة»، وهذه أودعتها يد الشيخ إسحاق. (كنتُ رأيته قبل ليالٍ يحصي ما بقي من «صدفاته» فيفرغها من يدٍ إلى يد ثم يودعها كيس قماش أخضر اللون ويخفي الكيس في بيت مخدته. وكنت بينما ألمحه يفعل هذا بطرف عيني أتذكر وجهه كل ظهيرة حين نقعد إلى الطعام.)

بعد سنة أولى تحت التراب تهجّرت من «حيّ شيخ محمد» إلى الحدود بين «حي المعامل» و«حي المناجم». أقمت زمناً في بيت الفلكي سلمان، ثم انتقلت إلى مكانٍ يشبه الفندق يقابل بيت يوسف العشّاب. وفي وقتٍ لاحق صرت صياداً من «الصيادين»، وقطعت المدينة من شمالها إلى جنوبها فسكنت مع «الصيادين» عند حافة النهر. وطيلة هذا الوقت لم تفقدني ياسمينة. ظلّت تعثر عليّ.

لكنني لا أريد أن أقفز في هذه القصة قفزاً. أنا الذي صرت صياداً لم أصر فجأة صياداً. صرت صياداً رويداً رويداً. الناس كانوا يرونني مع عباس الصياد أينما ذهب فظنوا أنني صياد. قبل ذلك حسبوا أنني ابن الفلكي. وحين كنتُ أدور مع المؤرخ مسعود في «حيّ السمُر» لنجمع القصص وندوّنها ظنّوا أنني «المؤرخ الصغير».

من هو «الصياد»؟ إذا كان الصياد هو الرجل الذي يقعد بلا شغل داخل «الباب الطيب» أو على أبراج الأسوار، يشرب شرابه الساخن، وينظر إلى الناس، ويقول إنه يحرسهم من «ناس الوحل»

الذين لا يراهم أحد، فأنا كنتُ دوماً حارساً صيّاداً. من هو «المؤرخ»؟ إذا كان المؤرخ رجلاً قوي القلب يقعد أمام ناسٍ انكسرت قلوبهم فيسمع ما عندهم من حكايات ثم يكتبها في لوح محفوظ فأنا كنت مؤرخاً. من هو «الفلكي»؟ إذا كان الفلكي رجلاً يسلك متاهة المدينة ويقيس طول الشوارع ويحصي البيوت والمتاجر ـ والبشر في البيوت والمتاجر ـ فأنا كنت فلكياً. لماذا يسمّونه الفلكي وليس الجغرافي، لا أدري، هذا اسمه تحت. ربما سمّوه «الفلكي» لولعه بالسماء. ليس السماء ذات النجوم الزاهرة فقط، بل أيضاً سماء بيروت التحتا: عالمنا هذا، العالم البرّاني. ومن هو الجغرافي؟ الجغرافي الكبير الجيك ترك حكايات خيالية عن أقاليم الظلمات. والمؤرخ مسعود نقل حكايات الجيك إليّ. وها أنا أنقلها إليك. فهل أنا الجغرافي؟

إذا كنت تظن قصتي غريبة فانتظر حتى تسمع قصص «الجغرافي الكبير» أو تلك القصص الحزينة التي سمعتها في «حيّ العميان». وراء الأسوار، حيث ناس الوحل، يحيا طائرٌ شفاف الأجنحة، يشبه الفراشة، لكنه أسود اللون لا يُرى في الظلام. وهذا الطائر يخافه كل البشر لأنه إذا ولج فم إنسان نزل في حلقه واستقر في جوفه وبنى في جوف الآدمي عشاً ثم باض في العش بيضاً ورقد على البيض حتى يفقس البيض. فإذا فقست بيوضه بعد عام خرجت منها عشرات الطيور: كلّها مثله، لكنها أصغر حجماً! وهذا الطائر يسمّونه «قلمون». ونهمه لا يعرف حدّاً، خصوصاً حين خروجه من البيض. هل أكمل حكايتي؟ يأكل الطير معدة الآدمي، ثم يأكل مصرانه، ثم يأكل رئتيه. (وأنا أسمع هذه القصة للمرة الأولى انتابني إحساسٌ غامض أنني سمعتها من قبل. ولم أنتبه إلى سبب ذلك إلاّ بعد وقت: أمي!)

هل أُخبرك عن السمك الذي يطير على وجه الماء وراء الأسوار؟ وهل أخبرك عن النهر المحيط الذي يلف المدينة وعن الجزر المسحورة المتباعدة في «البحيرة» وراء الباب الجنوبي؟ ليست جزراً من تراب وحجارة، بل هي جزر من فخار (تحت يشوون الفخار في الأفران ويعملون منه أباريق وصحوناً وأكواباً). وعلى جزر الفخار ينبت شجر الفخار. وهذا الشجر يتنفس كالناس ويُحرك أغصانه وهم يسمّونه «قورش». وأول موسم الأمطار تبرعم هذه الأشجار، فإذا ازهرت دارت أقراص الزهر ـ التي تشبه عباد الشمس ـ وواجهت بعيونها جزيرة مقابلة تزدحم على وجهها أبراج زجاج. وفي هذه الأبراج حوريات سمينات عاريات لا يراهن رجل إلاّ ينسى اسمه وينسى أهله وينسى بيته. فإذا اقترب الرجل منهن، حملوه إلى أعلى الأبراج، ثم رموه من فوق.

هل أخبرك عن «الرسّام»؟ أقعدني في نور الشموع ودعاني إلى شرابٍ حلو المذاق، وأخبرني عن سمك السلمون الذي كان يقفز من النهر قبل أن يجفّ النهر. قال كان يراه من النافذة، يظهر من تحت الماء، لونه برتقالي منقط بالفضة، يسمّونه «السلمون المرقط»، وحين يرتفع عالياً ينعكس عليه الضوء ـ من المشاعل على الجسر ـ فيتبدل لونه إلى الأصفر، وحين ينقلب في الهواء يلمع بلون أزرق، وذيله يصير كالذهب وهو يرقص. هل أخبرك عن مشغل الرسّام وعن لوحاته التي لا تُعد؟ رفع الشمعدان عالياً ودلّني إلى الجرن الحجر حيث يدقّ الحجارة والأتربة ثم يمزجها ويعمل ألوانه. دلّني إلى جذورٍ يطحنها ويهرسها ويستخرج منها الزيت. ثم دلّني إلى لوحاته؟ أحصيت 33 لوحة ثم توقفت عن العدّ. لماذا أحصيها؟ لا يرسم إلاّ رسماً واحداً: سمكة سلمون مرقطة! يقول إنه لا يعرف كيف يرسم شيئاً آخر، ويقول إنه لا يريد. لوحة واحدة

تكفي، يقول، وهذه غير تلك.

أقول إنها متطابقة.

يقول لا.

أقول تبدو لي متطابقة تماماً.

يقول لا، هذه رسمتها قبل أن يجفّ النهر، وهذه رسمتها بينما يجفّ، وهذه رسمتها بعد أن جفّ.

أقول إن الأخيرة تبدو الأقل جمالاً.

يقول هذه ليست الأخيرة، هذه الأولى، هذه رسمتها حين كان النهر مملوءاً بالسمك.

كلما تكلمت أكثر عرفتُ كم نسيت. كيف أخبرك كل ما جرى لي تحت التراب؟ كيف أنقل إليك كل تلك الأحياء والدهاليز والبرك والأودية والوجوه والجذور والمسلات والجبال؟ أستيقظ مرّات في نصف الليل على نقيق ضفادع وأعلم أنني كنت «تحت»، على ضفة النهر الذي جفّ وأوحل وخرجت من قعره رؤوس الخلد! كيف أخبر كل ما رأيت؟ كيف أوجز كل ما سمعت؟ أخذوني إلى «الأفران» وكان موسم الأمطار في عزّه. أنا سقطت من قعر سينما سيتي بالاس إلى عالمهم والرعد يقصف والمطر ينهمر. لكنني في تلك الشهور الأولى بقيت نائماً، تحت الأغطية، مخدر الجسم، لا أشعر بالبرد. لكن حين بدأتُ سنتي الثانية تحت الأرض عرفت ماذا يعني موسم الأمطار. كان البرد قارصاً فتاكاً، والأنفاس تتجمد ما إن تخرج من فتحات الوجه. قالوا لي إن المتاهة في جهة «حي شيخ محمد» لا تظل سالكة في مثل هذا الطقس. قالوا يسدّ الجليد كل المخارج، كل المداخل، النوافذ والأبواب، فينقرون الجليد بالفؤوس، وكل ساعة يتكوم الجليد ويغزو الأبواب كأنهم لم

ينقروه. قالوا إن هذا يستمر حتى تتفجر رعود نهاية الموسم وتجري الجداول السرّية في السقوف. عندئذٍ تذوب مسلات الجليد.

أخذوني إلى «الأفران». وكنت أرى على الطريق جليداً يغطي بيوتاً، ثم دفعوني - وأنا على الكرسي - فوق ممر لامع ضيق، وبعد أن قطعناه قالوا إننا قطعنا جسراً من جليد ظهر أمس فقط فوق هذا الوادي. قطعنا مناطق لا يجرؤ فيها الواحد أن يفتح فمه خوفاً من أن يجتاح أمعاءه الثلج. وحين أخذ الجليد يقطر ويسيل من حولي عرفت أننا وصلنا إلى «حي الأفران». ثم رأيت ذلك المنظر: تلك الأفواه الضخمة المفتوحة تشتعل في جوفها النار. يرمون الفحم الحجري بالسطول، ويتحركون عراة الصدور، ويتكلمون بالإشارات.

كان الفلكي سلمان معنا، وقال إننا الآن تحت شارع الترامواي، أو شارع بلس (حيث كان خط الترامواي قديماً). وأشار بيده إلى صف الأفران الطويل وقال إنه يمتد تحت طلعة جاندارك، إلى أن يبلغ الشارع الذي يتقاطع معه، ما اسمه؟ الحمرا. وأنا قلت للفلكي إن جاندارك شارع بارد في الشتاء، وهذا يعني أن هذه الحرارة لا تبلغ الطبقات العليا. والفلكي ضحك وسألني كيف «جاندارك» صيفاً؟ وأنا قلت إنه شديد الحرّ. وهو قال لي: بالضبط!

بعد «الأفران» مررنا على قلب المدينة وتأملنا القصر الرئاسي. لم أرَ قصراً. رأيتُ بيتاً مستطيلاً واطئاً تعلوه غرفة ضيقة مربعة قالوا إنها مقر الرئيس. وحين سألتهم هل يقدر الرئيس أن ينظر إلينا من نافذته (لأنني رأيت نافذة تتحرك ستائرها)، أجابوا إن الرئيس ينام فصل الشتاء. ودخلنا القاعة الرومانية وتأملنا النقوش والرسوم والتحف المحفوظة على الرفوف.

كنت ألبس ثياباً فوق ثيابٍ وأظل أشعر بالبرد. وحين سألني المؤرخ مسعود ألا نعرف الجليد فوق، في مدينتي، قلت له إن شتاء بيروت أمطار ووحل، وحل كثير بسبب الغبار الكثير، لكن البَرَد ـ حبّات البَرَد الجامدة البيضاء ـ نادراً ما يتساقط البَرَد في بيروت. وقلت له إنني أنا ـ في المقابل ـ أعرف البرد وأعرف الثلوج وأعرف تراكم الثلوج. هم يعرفون الجليد، ويعرفون القطرة التي تنقط من مسلات السقوف ثم تتجمد ويزداد طولها الزجاجي الشفاف إلى أن تبلغ أرض البيوت، لكن أنا أعرف الثلوج التي تهبط من سماء الغيوم السوداء، تنزل متهادية كندف القطن، تنزل كالرقع وتغطي الجل وراء نافذة بيتنا القديم في الجبل، وتغطي صخرة ضخمة منحدرة، تشبه بلاطة، إذا تسلقناها بلغنا «حقل أم فارس» العالي، وإذا تزحلقنا عليها من أعلى سمعنا أمي تنده علينا أن ننتبه. لم أحكِ للمؤرخ عن ألعابنا على البلاطة لكنني حكيت عن الثلوج. وكيف تغمر الثلوج الأرض. وإذا دامت عواصف الشمال، كيف تتراكم الطبقات، صفحة بيضاء فوق صفحة بيضاء فوق صفحة بيضاء إلى أن تغطي سيارة أبي «الأوبل».

والمؤرخ قال إنه قرأ في نقوش الحيطان عن الثلوج، وأنا أخبرته أن عجائز الناصرة وعبد الوهاب الإنكليزي يتذكرون ثلوجاً تساقطت على بيروت في طفولتهم البعيدة، على أيام الفرنسيين، فغطت بالأبيض قرميد البيوت، وغطت الرمال على الشط، وتكومت في زوارق الصيادين وأغرقتها. والمؤرخ مسعود تذكر لا أعرف لماذا ثمار التوت عندئذٍ (كان دائماً يعود إلى سيرة التوت) وسألني أما زالت هذه الأشجار الشهية الثمار موجودة على وجه الأرض.

وأنا شرحت له أنها موجودة في الجبل، أما في بيروت فيندر وجودها، قُطعت كلّها لبناء البيوت في جلولها، لكنني أعرف توتة

تنبت ثمر الهزّاز الأبيض، هكذا نسمّيه قلت، توتة هزّاز في بورة مهملة تحت «جادة الرئيس إلياس سركيس»، جنب بيت باقٍ من زمن الحرب، تساقط قرميده بين الأشواك، ووقع الدرابزين الخشب المنقوش من شرفته الطويلة. وقلت للمؤرخ أنني أعرف أيضاً توتة تنبت التوت الشامي الأسود العسل، أطيب توت في العالم، عصيره إذا قطر على قميصك «جلده» ببقعة حمراء لا تزول، وهذه التوتة فوق «خط الخارجية»، قبل سينما الأمبير، وجنبها تينة، طالما ظهر العمال السوريون والمصريون الفقراء معلقين بين أغصانها العالية، تبيّن وجوههم الضاحكة بين ورقها العريض الذي حال لونه من الأخضر إلى الرمادي، ومنه صار أسود بسبب الغبار ودخان العوادم.

وسألني المؤرخ مسعود هل العمال فقط، هؤلاء الفقراء، هم الذين يأكلون التوت والتين في مدينتي؟ فشرحت له أن الناس تشتري هذه الفاكهة من السوق، فتجار السوق يستجلبونها من الجبال العالية، أو حتى من وراء البحر.

وأخبرته عن التوتة المجاورة لـ «زهرة الإحسان» والتوتة في «شارع يارد»، القريب من «اليسوعية»، تظهر من فوق حائط بيت قديم، وجنبها نخلة، وجنب النخلة شجرة ليمون «بو صفير»، كل ذلك الورق الأخضر يلمع في صحراء المدينة الباطون، بعيداً من الأيادي والعيون، وراء الحائط الذي تقشر ووقعت بعض حجارته، وراء الحائط ووراء الباب الحديد المقفل بسلسلة حديد. باب كاللوح لا قضبان فيه، لكنه مثقوب في أسفله، وإذا تمددت على بطنك على الرصيف ونظرت من الثقب، رأيت الواحة السرّية الخضراء، ورأيت سلاحف، ورأيت بركة دائرية يغطي ورقٌ يابس أصفر الماء الذي يفيض عن جوانبها.

أخبرته عن هذه العجائب الخضراء تلوح كالسراب بين حيطان مدينتك العالية، ولا يراها إلاّ من أراد أن يراها، ولا يريد أن يراها إلاّ الجبلي المهجّر الذي رأى الشجر الأخضر من قبل. وأخبرني هو أن الجغرافي الجيك أخبره مرة ـ والقارب يتهادى على صفحة النيل (المؤرخ فقط يُسمي النهر تحت بيروت بهذا الاسم. قرأ «الإسم» في نقشٍ على جدار تزينه رسوم نساء بذقون طويلة أنيقة عليها رسوم، وأنا أخبرته حين دلّني على هذي النساء أنهن ملكات، وهنّ من أرض مصر، واسمهن «الفراعنة») ـ أخبره الجيك عن جزيرة في البحيرة المظلمة وراء «الباب الجنوبي» تنبت في أرضها الخصبة ـ الحمراء التربة ـ أشجار ذات خشب لامع، ثمرها برتقالي اللون لا ينضج إلاّ بعد مضي المواسم (وصفها لي المؤرخ فوجدتها شبيهة بـ «الخُرمة»، أو الكاكي، وهي التي تنضج بعد انتهاء الصيف، وفي أواخر الخريف). وعلى تلك الجزيرة أشجار ثمرها كالتفاح الأسطوري، لكنه أكبر حجماً، ولا يؤكل إلاّ مقشراً، وإذا أكلته قبل أن ينضج جيداً أوجع أضراسك، والأفضل أن يؤكل مع ملح (وهذا ـ إن لم أكن مخطئاً ـ هو ثمر السفرجل. وهم تحت يعرفون الملح في صنفين: صنف قديم لم يعد موجوداً على موائدهم وهو الملح الذي كان الأجداد يستخرجونه من مياه المتوسط قبل إقفال «باب البحر». وصنف ما زال مستعملاً وهو الملح الحجري الذي يأخذونه من السقف في شمال «حيّ المعامل»).

❋

بعد «الأفران» و«القاعة الرئاسية» و«معمل الشمع» و«مزارع السمك» أخذوني عبر المتاهة الحجر إلى الجسر على النهر. (كنت في أيام مرضي ثم نقاهتي، الأيام التي قضيتها في الكهف ترعاني راحيل، أتخيل المتاهة بحيطان رمادية وسوداء. فلما خرجت رأيت

أن حيطانها صفراء وبيضاء، والقليل منها أسود، وبعضها ملون، ساطع الألوان، وحين يزيد عدد الشموع أو يقل يتبدل لون الحيطان، فمرة أراها صفراء ومرة أراها برتقالية ومرة أراها حمراء حمرة البندورة في عزّ الصيف). وكان الفلكي معنا في هذه الرحلة، ووجدتني ـ مرة أخرى ـ أكتشف مقدار جهلي: قبل خروجنا من بيته دلني إلى المواقع التي سنزورها على الخريطة. قال هذا بيتي هنا، وهذا مجرى النهر هنا، سنذهب إلى مجرى النهر، ثم نتبعه حتى نبلغ الجسر، عند «حي الأزرق». وأنا نظرت إلى علامة البيت حيث نجلس، ونظرت إلى علامة مجرى النهر، فرأيت أن العلامتين شبه متلاصقتين. وحسبت أن المسافة قريبة. هل تعرف كم دامت رحلتنا من بيته إلى مجرى النهر الملاصق للبيت؟ (وهو حقاً ملاصق للبيت، وليس على الخريطة فقط، وفي الليل كنت أسمع خريره، وأنا نائم مع ياسمينة، وأسمع الضفادع تتزاوج في قعره، ونقيقها الهامس يخترق الظلام والحيطان كررك كرررررك كرررك).

دامت رحلتنا من البيت إلى النهر الذي يقع وراء جدار البيت شمعة ونصف الشمعة. أي نحو الساعتين أو ثلاث ساعات، ولعلها أربع ساعات! هل تصدق؟ النهر وراء الحائط حيث أسند ظهري لكن للوصول إليه عليك أن تسلك طرقات متعرجة (لا مدخل في حيطان المتاهة هنا) وتدور زمناً في دهاليز تفضي إلى دهاليز، وكل هذا الدوران الطويل لتصل إلى الجانب الآخر من جدار بيتك! (وعندهم قصص كثيرة عن هذه المفارقات: فيحكون عن رجل طالما أيقظه بكاء جارته في الليل، وكان في البدء يطرق الحائط بقبضته ويطلب منها الصمت حتى يقدر أن ينام، ثم صار بمرور الوقت يألف هذا البكاء الليلي. وعبرت المواسم فإذا به واقع في حب جارته التي لم يرَ وجهها أبداً ولم ترَ وجهه. وتحدثا عبر

الحائط فتحابا على السمع. وقال لها إنه يريدها في فراشه ويريدها في بيته: يريدها زوجة! قالت: «تعال واطلبني من أبي». فخرج الرجل من بيته ودار ودار ودار في المتاهة يطلب مدخل بيتها ولا يعثر عليه. وما زال ضائعاً في المدينة منذ ذلك الحين!)

أذكر نظرتي الأولى إلى النهر في نور المشاعل. كنت أتخيله شبيهاً بالقناة الشتوية في قريتنا في الجبل، فإذا به أخدود عميق غائر في الأرض، كأن الأرض انشقت ها هنا عن هاوية. ولم أفهم كيف كان الجيك يبحر في نهر عميق بحيطان تحاصره. لكنني حين بدأنا رحلتنا صعوداً نحو منابعه رأيت مجراه يتبدل، يصير أعرض، ويطلع إلى السطح، ولو موحلاً، والماء فيه رفيع مثل ماء يسقي ثلم كوسى وقرع. (ومع أنه صار عريضاً، وقريباً من الضفاف، ونور الشموع ينير قعره، فإنني ظللت أفكّر في تلك المطارح العميقة فيه، وأسأل نفسي كيف كان الجغرافي الكبير يجرؤ على عبورها؟ فأنا طالما استغربت هؤلاء الناس الذين يذهبون إلى مناطق خطرة عذراء لم يسبقهم إليها إنسان آخر. وأقدم ذكريات طفولتي ـ إلى جانب ذلك النفق الذي علقت فيه تحت الطريق العام ـ نزهة عائلية إلى كتف الوادي حيث عمل أبي شواء على نار الحطب، ومزجت أمي التبولة التي فرم أبي خضرتها رفيعة في البيت. لم يكن الوادي وحده ما أدهشني، بكل تلك القرى في القاطع المقابل، تلك القرى التي لم أمشِ فيها أبداً! ما أدهشني أيضاً كان حكايات رواها أبي لأمي بعد الأكل، بينما أنا وأخي نتسلق شجرة البلوط. كنت بين الفروع الخضر، وأخي يقذفني بالبلوط الأخضر، وأنا أضحك وأخفي نفسي وراء الأغصان. ثم كفّ أخي عن قذفي البلوط، تعب ونزل إلى الأرض ونام على العشب. بقيتُ وحدي مع صوت الهواء في الورق الخشن، ومع الهدير العميق للنهر الذي يعبر الوادي منحدراً

بين هضاب وأحراج إلى أن يبلغ البحر غير المرئي من هنا. وفي تلك السكينة، في تلك الجنّة الأرضية، كان صوت أبي يأتي إليّ وهو يحكي لأمي حكاياته. هذه الذكرى تمتزج بذكرى أخرى: نجلس على المصطبة وأبي يضعني في حضنه ويفتح أمامي كتباً من «سلسلة ليدي برد» برسوم ملونة. يخبرني قصص «الهرّ أبو الجزمة»، و«الجميلة النائمة»، و«بياض الثلج والأقزام السبعة»، و«جعيدان»، و«هانزل وغريتل»، كل قصة في كتاب مستقل، وكلما أنهى قصة وأراد الانتقال إلى أخرى جديدة، طلبت منه أن يكرر الأولى قبل ذلك، لأنني أحببتها!).

على الطريق إلى أعالي النهر اختفى النهر. كان علينا أن نبتعد عن مجراه مجبرين، لأن دروب المتاهة اضطرتنا إلى ذلك. ومررنا في حيّ كئيب ساكن سكون الموت، منازله مطروشة بالأبيض تعلوها تماثيل طيور تشبه الكنارات، وسألت المؤرخ من يعيش هنا فقال لا أحد. فقلت لكنها منازل مرتبة، فقال إن الهواء فيها صار فاسداً قبل مواسم بعيدة، وإن أهلها ماتوا، والذي نجا منهم نزح إلى أحياء مجاورة.

ولم يكن أول حيّ نمر فيه وأجده مهجوراً. وكانت هناك أحياء تركها أهلها بسبب الماء الملوث الأسود كالزفت ـ الذي ينزّ من سقوفها ويقطر في صحونهم ـ والفلكي سلمان أظهر لي على الخريطة أنها «تحت مكب نفايات». (وليس عندهم في الأسفل نفايات. فحضارتهم، بعكس حضارتنا، لا تنتج نفايات. ذلك أنهم «يلبسون الخشن ويأكلون الدون» ولا يملكون رفاهية البلاستيك أو الشوكولا المغلف بالنايلون أو العطور الفرنسية ذات القوارير الزجاج المنحوتة.)

وعبرنا في وادٍ تُنبت فيه الصخور أشكالاً غريبة، ورأيت ما

يشبه جبوب اللقطين، وحبات اللقطين الكبيرة، ورأيت ما يشبه شتلة الفليفلة الحلوة وقضبان البامية الرفيعة العالية. وكلّها حجر أبيض ضارب إلى صفرة الشمام الماوردي. وفي هذا الوادي أصابنا الجوع. فجلسنا في نور الشموع وفتحنا زوادتنا وأكلنا خبز السمك الأسود وشربنا ماء من أباريق نحملها. وكنا نسمع خرير النهر ولا نراه لأن حائطاً من حيطان المتاهة كان بيننا. وحين ظهر لنا النهر من جديد ظهر فجأة. خرجنا من ثغرة في حائط فإذا النهر أمامي، والشموع تنعكس فيه، وهو على بعد خطوة. حتى أنني جفلت متراجعاً، خوفاً من الوقوع في الماء!

بعد أن زال خوفي انتبهت إلى جمال المكان: كان النهر هنا عريضاً، والماء يغطي مجراه. صحيح أن المياه بدت راكدة، لكنها على الأقل كانت تغطي قاع النهر. لم أرَ وحلاً. ولا أخاديد وشقوقاً ولا حجارة ولا بقايا أسماك ولا أصداف سلاحف (بيوت سلاحف محطمة). كانت المياه المنبسطة تتهادى في نور الشموع والمشاعل، وقد طفت عليها نباتات الظلام: أصناف من السرخسيات القاتمة اللون. ورأيت ضفدعاً أخضر يقفز من بقعة سرخسيات إلى الماء، وسمعت صوت سقوطه في الماء: طق! ولم أكن حتى تلك الساعة رأيت ضفادع خضراء تحت. (ليس عندهم إلاّ ضفادع الطين الرمادية اللون، البشعة العيون. والأخضر من الضفادع نادر عندهم، ويعتبرونه بشارة وفألاً حسناً.) وقال الفلكي إننا نقترب من المضيق. وبقيت واقفاً أنظر إلى الماء، وهم يقولون لي علينا أن نتابع الطريق قبل سيلان الشموع. فتابعنا السير.

إني أحكي كل ذلك حكياً، وأنا رأيت ما رأيت، وسمعت ما سمعت، فكيف أنقل هذا كلّه إليك؟ هل أستطيع؟ هل تقدر أن تتخيل تلك الظلمة الباردة، تلك الرطوبة، رائحة جوف الأرض،

والصدى الذي يُكرر همساتنا، يُكررها إلى ما لا نهاية مع خرير الماء!

والمؤرخ مسعود كان يتبارى مع الجغرافي زكريا (مع فارق السن والمعرفة بين الاثنين) كانا يتباريان في إرشادي إلى الجذور التي تظهر هنا وهناك، من السقف أو حيطان المتاهة، وحتى من الأرض. وكنت مرّات أتعثر بالجذور وأوشك أن أسقط على الفلكي الذي يسير أمامي ناظراً في خريطته. وكان الفلكي يتلكأ وراء القافلة مرّات، فنخشى أن نضيع عنه، ونقف في انتظاره لئلا نفقد طريقنا إلى الأبد في المتاهة الحجر. وكان هو يداعبنا فيخفي نفسه في إحدى الثغرات ونظل نبحث عنه حتى تدلّنا إليه ضحكته المكتومة.

ودلّني الجغرافي زكريا إلى جذور تسبب الهلوسة وأخرى سامة، سمّها أسرع من عقصة الأفعى. وقال المؤرخ إن بعض هذه الجذور يسبب تخيلات كابوسية مخيفة حتى من دون أن تذوقه: يكفي أن تشم رائحته. وأضاف الجغرافي زكريا: أو أن تلمسه! وبالغ المؤرخ قليلاً فقال: أو أن تراه! وكنت أحسّ أنه يبالغ لكنه قال ذلك بوجه جامد ونبرة خالية من المزاح. فأشحت بوجهي بعيداً من الجذور المذكورة.

ودلّني الجغرافي إلى جذر أصفر عالٍ ـ بالكاد استطعت أن أراه، فنور المشاعل لا يصل قوياً إلى هناك ـ لولبي الشكل، يشبه النابض، وقال إنه شديد الحلاوة كعسل النحل ويسمّونه «قرص عني». وأنا استغربت الاسم وقلت له إن في الجبل نباتاً يحمل هذا الاسم، والناس يجمعون هذا النبات البرّي ويعملون أوراقه سلطة مع حامض وملح وبصل وزيت زيتون. وأخبرتهم أنه في «الوقت الأسود» اعتاد الناس الخروج إلى البراري و«تسليق» النبات لصناعة طعامهم. وذلك بسبب الغلاء ونقص المواد الغذائية في المتاجر.

وحذرنا الفلكي مرة أخرى أننا نقترب من المضيق. ووجدت أحد الرجال يخرج من ثيابه حبلاً طويلاً ويعطيني طرف الحبل. وتبيّن لي أن علينا الآن أن نمشي في صف طويل، واحداً وراء واحد، وكل واحد يقبض بيده على الحبل. وكان المؤرخ يتكلم عندئذٍ عن النحل الذي كانوا يربونه تحت الأرض في زمن الأسلاف فيعمل لهم عسلاً بارق اللون، عسلاً ذهباً إذا أكلت منه ملعقة بقيت الحلاوة في فمك ولو شربت بعده إبريق ماء.

وعبرنا المضيق وكان ضيقاً كما يدلّ اسمه. وفكّرت أنني أعبره! حقاً أعبره! (لا أدري إذا كنت ذكرت هذا لكنني في هذه الفترة كنت بدأت أمشي بلا الكرسي، أتوكأ إلى عصا، أو إلى أحد الماشين جنبي، وحين أتعب أقعد على الأرض وأرتاح.) وصار المضيق يكبسنا من الجانبين. وقلت في نفسي إن النحول يفيد. مع بدانتي القديمة كنت سأعلق «تحت» في ذلك المضيق. لكن نحولي أنقذني.

وبعد المضيق دخلنا حارة مكتظة بالناس، نسبة إلى الحارات الأخرى. وكنا نلقي التحية على الرجال والنساء الواقفين في مداخل البيوت أو القاعدين على العتبات، وكانوا يردون التحية بأحسن منها، ويدعوننا للتفضل والقعود والأكل والشراب. لكن المؤرخ كان يهز برأسه أن لا. ونحن كنا نتبعه. وأنا أردت أن نقبل الدعوة لأن وركي بدأ يؤلمني. وفخذي أيضاً. وكذلك ركبتي. (ولعل بعض تعبي يعود إلى سهري الطويل مع ياسمينة في الفراش.)

لكن المؤرخ جذبني من ذراعي (كنا تخلصنا من ذلك الحبل الذي ابتل بعرق الأيادي) وقال لي تحرك، وأنا تحركت. وحين أشار لي أن أنظر، رأيته ينظر إلى أسفل السيقان. ورأيت ـ في نور الشموع ـ أن سيقان الناس العارية عند الكواحل كلها متورمة،

منتفخة بالورم، ثم لاحظت أنهم مصابون بأورام في الحلق أيضاً. وانتظر المؤرخ حتى خرجنا من حارتهم. ثم شرح لي أنهم هكذا بسبب الماء الذي يشربون، ماء أخضر اللون غني بسلفات الحديد، لكنه ملوث أيضاً. وسألته لماذا يشربون هذا الماء إذاً ولا يستقون من بئر أخرى! فلم يجبني. وقلت لعل المسافة بعيدة في هذه المتاهة بحيث لا يصلون أبداً إلى بئر عذبة الماء، غير ملوثة، كيف أدري!

وعبرنا أرض الصوان. ومنها يقطعون الحجارة لإشعال الشرارة وإيقاد النار. ثم مررنا بأرض النمل الطيّار. وليس فيها نمل طيار، ولا نمل زاحف عادي. لكنهم يسمّونها هكذا بسبب الثقوب في أرضها، وما يشبه التلال الصغيرة وبيوت النمل. ولعل النمل بنى هنا أوكاراً قبل زمن بعيد. وإذا سألتني عن أغرب أمر حدث لي في عالمهم أقول هذا: طيلة الزمن الذي قضيته تحت الأرض لم أرَ نملة واحدة! هل تصدق؟ ولا نملة واحدة!

وعبرنا بين مسلات تشبه مراوح الكهرباء ثم بين أعمدة نحتها الوقت والماء والهواء على صورة أشجار النخيل. وكانت عذوق التمر الحجرية تتدلى منها. ورأيت طيراً حجراً يشبه الحجل عند أسفل الشجرة الحجر. وسألت نفسي هل كانت هذه الأشكال العجيبة شجراً حيّاً قبل قرون ثم تحجرت هكذا بعد أن طمرتها الزلازل بالتراب؟

ودلّوني إلى مغارة فوق النهر، عند السفوح، ينبعث منها نور شديد الوهج. وقالوا هذه مغارة الذهب. وفيها عرْق ذهب نقي، بلا شوائب أبداً. لكن الوصول إليها مستحيل. ثم ما حاجتهم إلى الذهب؟ (عندهم حلي للنساء يتوارثونها عبر الأجيال. ومنها الذهب. وينحتون من حجارة مختلفة أساور وحلقاً. ورأيت مرة امرأة تضع عقداً من الحجارة الصفراء، فكان رأسها يميل إلى أمام

من ثقل العقد!). وبقيت المغارة تلمع وتنير دربنا إلى أن بلغنا «وادي الجنّ». وقال المؤرخ إن الأجداد حاولوا مرة استخراج الذهب من المغارة، مع أن عبور النهر ثم تسلق السفوح إليها كان بالغ الصعوبة. لكن الأجداد دائماً أشد شجاعة وأقسى بنياناً من الأحفاد. وحين بلغوا المغارة هاجمتهم مخلوقات غير مرئية وحملتهم إلى هذا الوادي وتركتهم هنا. وقال الجغرافي الصغير إن تلك المخلوقات كانت شبيهة بالبشر، لكن الواحد منها بعين واحدة وأذن واحدة وذراع واحدة وساق واحدة. لكن الفلكي ضحك من كل هذا، وذَكَّر زكريا هازئاً أنها كانت غير مرئية، فلا أحد يعرف كم عيناً لها! وردّ الجغرافي الصغير أن الأجداد اكتشفوا صفاتها عبر تلمسها بالأيدي وهي تحملهم من المغارة إلى هنا.

وبان النهر مرة أخرى عن يميني. فناديت على الفلكي كي ندخل الثغرة. وهو قال لي لا، هذه طريق إلى النهر، لكنها بعد ذلك مسدودة، ويضيع الوقت منا، ولا نصل.

وحين صرنا على ضفة النهر من جديد، رأيت ما يشبه خيوطاً من فضة تتعلق من السقف. ثم انتبهت أنهم جميعاً وقفوا يحدقون إلى الخيوط النحيلة الواهنة. وأنا العائش تحت الأرض منذ زمنٍ بعيد، لم أعلم عندئذٍ أنني أنظر إلى نورٍ يتسرب من «العالم البرّاني»، أنظر إلى نور الشمس!

ولحظة قالوا لي «هذا ضوء الشمس»، أحسستُ إبرة تنغرز في قلبي.

*

قالوا إن هذا النور كان يدخل في أعمدة ثخينة قبل دهور. كان النور يسقط قوياً، مملوءاً بذرات الغبار، ويصنع دوائر من النور

الراعش وجزراً بيضاء وصفراء على صفحة النهر. وكان النهر يختفي تحت الأرض ثم يظهر من جديد في أماكن أخرى، يجري قوياً، وحيث يقوى التيار يرتفع النهر ويخرج من فتحات مفاجئة. وهنا، حيث تقع خيوط الشمس، كان النهر يسطع سطوعاً. قالوا إن هذا كان قبل زمن بعيد. أما الآن فها هو النهر أنحل من ساقية. وأعمدة الشمس الإسطوانية تلاشت حتى قبل أن ينشف النهر.

وكانوا في ذلك العهد القديم، إذا أرادوا النظر إلى النور المتساقط من فوق، وضعوا على عيونهم قماشاً شاشاً رقيقاً لئلا يعميهم ضوء الشمس.

*

أثناء رحلتي في المدينة الأرضية، هذه الرحلة الطويلة إلى منابع النهر التي أحاول الآن أن أصفها لك ولا أنجح تماماً (أنت الآن في نور الشمس، لست تحت الأرض!)، اكتشفت أثناء تلك الرحلة مع الفلكي والمؤرخ والجغرافي الصغير ورفاقهم، مقدار تدهور الأحوال في بلدهم الذي ـ مثلنا ـ يسمّونه «بيروت». كل تلك الأحياء المملوءة بالفقراء! كل تلك البيوت التي تبدو على وشك السقوط! وكل تلك النظرات الحزينة! صحيح أن وجوهم البيضاوية الشاحبة البياض كانت جذابة لعينيّ (لم نعدْ نُبصر بياضاً فوق الأرض. أنت تعرف هوس النساء والصبايا والفتيات اليوم بالسمرة واللون المحروق!). وصحيح أن العيون السود المتسعة موصوفة ببهائها وفتنتها ـ وهي «تحت» أشدّ فتنة ـ لكن مع كل هذا كنت أراهم حزانى. أو لعلني لم أرهم حزانى تماماً حينئذٍ، أما الآن ـ وأنا أتذكر تلك الوجوه ـ فأرى الحزن يسيل على خدودهم كالشمع! كأنهم يذوبون واقفين في مداخل بيوتهم. (رأيت ما يشبه هذا أكثر

من مرة فوق الأرض. في الجامعة كُلِفت أنا وبعض الزملاء بزيارة المخيمات. ذهبنا إلى نهر البارد في الشمال، ذهبنا إلى «مخيم البصّ» في صور في الجنوب، وذهبنا إلى مخيمات بيروت الصفيح مخيماً بعد مخيم. أذكر أننا ضعنا في متاهة «البَصّ» الباطون! ضعنا وكانت أزقة الباطون خالية وقت الظهيرة، والشمس تملأ الحيطان بالنار، ولا أحد يظهر في النوافذ. كانت النوافذ ـ لا أدري لماذا ـ موصدة. والنوافذ المفتوحة كانت مفتوحة على الظلام الجوّاني المهجور. أين أهل المخيم؟ لم نكن نعلم أنهم خرجوا في تظاهرة. هل كانت تظاهرة؟ لعلها كانت جنازة، لا أدري! وأنا ـ أنا ابن «الشرقية»، الأخ الأصغر للقواتي «الرفيع» غارو ـ كنت أسير في تلك الطرقات المغمورة بالشمس وأذوب كالشمع حرّاً وتغرّباً. ليس أنني أكره أهل المخيم. ليس هذا. لا. ولكن لأن الدماء الجارية في عروقي هي الدماء الباردة ذاتها التي تجري في عروق أخي! ألم تلدنا أمي من بطنٍ واحدة؟ ولو بفارق أربع سنوات! أليس أخي من لحمي ودمي؟ كلما ذكرت تلك الليلة، والرعد يهدر في الخارج، والمطر يسوط الزجاج، وهو يخبرني عن «مذبحة الخندق»، التي سمّاها رفاقه «معركة الخيمة»، و«معركة الشادر»، كلّما تذكرت تلك الليلة العاصفة تجمد الدم في عروقي! لكنني لن أحكي عن هذا. لا أريد. ليس الآن.

إذا كنت لم تذهب إلى المخيمات، أو إلى الأزقة الجانبية لفقراء أرمن برج حمود، إذا كنت لا تحب الجولان بعيداً عن خط سيْرك من بيتك إلى الوسط التجاري فأنا أدلّك على طريق: ادخلْ وراء البنايات المتداعية في الشارع الطالع من «ساحة الشهداء» إلى السوديكو. أول الطلعة ادخلْ على اليمين. هذه البنايات المصدعة لم تُهدم بعد. ما زالت واقفة من أيام الحرب، وما زالت مسكونة

بالمهجّرين. أبوابها خشب وتنك، وترى الناس قاعدين على العتبات، وعلى الطريق، بين خضرٍ يغسلونها في أواني البلاستيك وبين طيور دجاج تنقر الزفت والتراب والوحل. على بعد خطوة من «الوسط التجاري» الذي يعجّ بالمطاعم والمقاهي والسواح. ليس بعيداً! هل تعرف الزواريب فوق «كورنيش النهر»؟ اذهبْ إلى أي ضاحية من ضواحي المدينة وتجول في الدروب. لا تذهب بالسيارة أو بالباص. عليك أن تمشي. الواحد لا يرى شيئاً وهو راكب في سيارة. عليك أن تسير. البلاد التي تعرفها سماعاً وبقراءة المجلات ليست البلاد ذاتها حين تزورها. أنا، حين كنت مطروحاً في بيت راحيل وأبيها، كنت أسمع كلامها وأتخيل صوراً للشوارع والبيوت. . . لكني حين خرجت إلى المتاهة وجدت الحقيقة مختلفة عما تخيلت. وجدتها أحسن مرّات، ووجدتها أسوأ مرات. هذا غير مهم. المهم أنها مختلفة.)

بعد تلك الحارة صعدت المتاهة بنا في طلعة قوية. (أقوى من «طلعة السراي»، وأنا أعرف كم هي صعبة تلك الطلعة، لأنني حرستُ شهرين الحديقة الصغيرة بين كنيسة الأميركان ومبنى الكونسرفتوار. في ذلك الوقت لم تكن الحديقة حديقة بعد. كانوا يُعدّونها لتصير حديقة، وكانت مملوءة حجارة وأحواض زرع وأدوات. كنت أجلس مع العمال في ظل حائط الكنيسة القريب، أو تحت شرفات البناية المقابلة الضخمة والمحترقة كلّها. البناية التي أذكرها لك هُدِمت وجُرفت قبل سنوات قليلة ـ في مكانها الآن حديقة أزهار ـ فصار القصر الحكومي يواجه كنيسة الأميركان.) وبعد الطلعة القوية انحدرت الدهاليز بنا إلى وادٍ عميق، وادٍ يسمّونه «وادي جهنم».

حين نظرت عرفت السبب. ألم أقل قبل قليل إن تلك

المنحوتات الحجر الطبيعية بدت لي شجراً ونباتاً تجمد بعد أن غطاه تراب؟ بلى، قلت. والآن، في قعر «وادي جهنم»، ماذا رأيت؟ رأيت صخوراً تشبه الآدميين! كأنني أنظر إلى بشرٍ غطّاهم رماد البراكين وهم يأكلون ويشربون وينامون ويركضون ويتكلمون ويعرقون، غطّاهم رماد البراكين فجأة فتجمدوا ـ موتى ومغلفين بهذا الرماد ـ ثم حالوا إلى تماثيل! هذا ما رأيت. حتى أنني رأيت تمثالين يتعانقان في قبلة أبدية، بعيون مغمضة ورموش من الحجر الدقيق المنحوت كأسنان المشط.

سألتهم ما هذه التماثيل، من نحتها، أي نحات، أي جماعة من النحاتين؟

فقالوا إنه الوقت.

وقلت غير معقول، هذه أشكال بشرية! ثم قلت في نفسي لعلها تماثيل باقية هنا منذ العصور الرومانية!

وسمعت المؤرخ مسعود يقول إنه منقوش في «حي زوفا» في كهفٍ عتيق، كهف صارت حيطانه المصقولة بالوقت مثل المرايا فإذا نظرت فيها رأيت وجهك بأدق التفاصيل، قال المؤرخ مسعود إنه منقوش أن هذا الوادي كان مدينة عامرة ثم حلّ على أهلها غضب السماء فمُسخوا حجراً! كل أهل المدينة تحولوا إلى تماثيل!

اتسعت المتاهة ثم ضاقت. ورأيت امرأة واقفة في رقصتها الأبدية، عارية إلاّ من منشفةٍ حجر تلفّ الجزء السفلي من جسمها. ورأيت رجالاً حجراً على مقعد حجر طويل جامدين إلى الأبد وهم يصفقون لها. ورأيت على طاولة حجر أكواباً حجراً مملوءة بسائلٍ حجرٍ إلى نصفها. ورأيت أطباقاً حجراً عامرة بأصناف الطعام الحجري: للمرة الأولى منذ نزلت إلى تحت الأرض رأيت طيوراً سمينة حجراً محمرة على حصى أبيض دقيق قلت إنه أرز بالتأكيد.

ورأيت ثمرات رمان مفقوشة، وحبّ الرمان الأحمر الحجري يبرق فيها، والعروق الصفراء الحجر ظاهرة بين حبوب الرمان. ورأيت القريدس البرتقالي الحجر، يزين طبقاً من الأرز الحجر الأصفر البرّاق. كانت حمرة القريدس تبهر العيون. وجذبني المؤرخ مسعود من كمّي، وقال إن الشموع كادت تسيل.

بعد «وادي جهنم» عبرنا دهاليز مستوية، ثم رأيت أحد الرجال يُخرج حبلاً طويلاً مرة أخرى فعرفت أننا سندخل مضيقاً. هذا المضيق كان متلوياً. وأثناء عبوره توقف الفلكي الذي يتقدمنا عن السير، فارتطم بعضنا ببعض. وقعت على الأرض شموع، وسمعت الشمعدانات تطرطق. (أذكر من أيام المدرسة هذا الوقوف في الصف. وأذكر ـ هذه ذكرى غابت من رأسي كل حياتي، ولم ترجع إليّ إلاّ وأنا تحت الأرض، أليس هذا غريباً؟ ـ أذكر أنني في الصف الثاني الابتدائي ـ أو الأول ـ عرفت تجربة أثّرت فيّ من دون أن أدري. لعلها ليست تجربة مهمة. اسمعْ، وقلْ أنت لي: أعرف أنني كنتُ في الثاني أو الأول الابتدائي، لأنني قبل الأول الابتدائي كنتُ في مدرسة أخرى، وفي الثالث الابتدائي انتقلت مرة ثانية إلى مدرسة ثالثة. ليس وحدي، أنا وأخي. أمي كانت تُعلّم رياضيات وفيزياء، في أكثر من مدرسة واحدة في الجبل، وكانت دائمة الحيرة لا تدري أي مدرسة تُفضل، وهكذا ظلّت تنقلنا من مدرسة إلى أخرى. أخي تعذب معها أكثر. أنا نقلتني مرة واحدة فقط. حين انتقلتُ في المرة الثانية كانت هي... لا أريد الكلام عن أمي الآن.

كنتُ في أول السنة الدراسية، وكنتُ منذ بداية السنة أقرأ على جدول الحصص المعلق هذه العبارة: «حصة السمعي البصري»، ولا أفهم ماذا تكون. «حصة الحساب»، «حصة القراءة»، «حصة

العلوم»، هذه كلّها مفهومة. لكن ما هذه الحصة؟ «السمعي البصري». ذات يوم طلبت منا المعلمة أن نخرج في صف متراصف إلى الممر من أجل «حصة السمعي البصري». خرجنا فرأينا صفوفاً أخرى من الطلاب. وكلّنا معاً توجهنا عبر متاهة الممرات إلى الملعب. لماذا نخرج إلى الملعب؟ ثم مشينا على الرمل بمحاذاة صف السرو حتّى بلغنا الدرج الذي يطلع إلى الإدارة ومكتب المدير. لماذا يقودوننا بالمساطر الخشب إلى هنا؟ كان يوجد تحت الدرج المذكور باب أسود حديد بقفل حديد. وأنا، أكثر من مرة، رأيت عامل التنظيفات ـ كان سورياً، واسمه. . . نسيت اسمه، كنت أذكره، كيف نسيته؟ ـ يرمي المكانس والسطول والمماسح عند هذا الباب. المعلمات كنّ إذا أردنا تخويفنا ـ حين نتكلم بلا إذن مثلاً ـ تقول الواحد منهن ناظرة في عينيك: «سأدهن أذنيك باللبنة وأحبسك في غرفة الجرذان لتلحسك الجرذان». حتى صارت الجرذان كابوساً يُطارد طفولتي، مع أنني كنت واثقاً أن الغرفة التي تتحدث المعلمة عنها ـ تلك الغرفة ذاتها تحت درج الإدارة ـ ليست إلاّ غرفة للمكانس والمماسح، لا غرفة فئران. (الآن تذكرت اسم ذلك الرجل: نور!) المهم أوقفونا في الصف بانتظار نزول المدير الذي يحمل مفتاح الباب الحديد. ماذا يريدون؟ أن نُحبس كلّنا تحت الدرج؟ هذه الغرفة لا تسع عشرة أولاد، كيف تتسع لكل هذه الصفوف؟ فتح المدير الباب وبدأ الصف يدخل. كنت أحصيهم وأنتظر دوري. دخل أكثر من عشرة، دخل أكثر من عشرين، دخل أكثر من خمسة وعشرين، لا أذكر كم ولداً دخل من ذلك الباب الصغير تحت الدرج، وظلّوا يدخلون. كيف؟ أين يختفون؟ ودفعني أحدهم من خلف فوجدتني في عتمة ما تحت الدرج. ورأيت ـ تلك اللحظة، كيف نسيتها سنوات؟ وكيف عادت إليّ وأنا أعبر ذلك

المضيق تحت الأرض؟ ـ ماذا رأيت؟ رأيت حائطاً مطروشاً بالكلس الأبيض، ورأيت مصباحاً أصفر النور، ورأيتُ درجاً ينزل إلى تحت الأرض، ينزل إلى قاعة مملوءة بالكراسي في صدرها شاشة قماش! حصة السمعي البصري الغامضة كانت سينما! وفيلم الرسوم المتحركة الذي شاهدناه مرةً تلو مرة تلو مرة طيلة تلك السنة كان «سام وحبّة الفاصوليا». لم تكن المدرسة تملك فيلماً غيره ناطقاً بالإنكليزية ومترجماً إلى العربية، لتعليمنا. أذكر الصبي الصغير، أذكر البقرة التي يأخذها إلى السوق ليبيعها، أذكر حبّات الفاصوليا في يده. أذكره عائداً إلى البيت والأب يرى حبات الفاصوليا ويزعق فيه كيف فعلت هذا؟ كيف تبيع البقرة مقابل فاصوليا؟ ماذا نأكل الآن؟ وأذكر الأب يرمي حبات الفاصوليا من النافذة. أذكر ـ كم مرة تركنا الفيلم بعد مشهد أو مشهدين، لأن المعلمة تريد أن تشرح الكلمات، كلمة كلمة، وكنا ننتظر الحصة التالية بعد أيام لنعرف ماذا جرى بعد ذلك! ـ ماذا أذكر؟ أذكر القصة كلّها. المطر في الليل. وسام يستيقظ، ويفتح النافذة ويرى حبّات الفاصوليا صارت شتلة عملاقة تطلع إلى الغيوم. ونرى سام ينتعل الجزمة، وينزل إلى الحديقة، ويتسلق الشجرة إلى فوق الغيوم. لم أكن أتخيل أن الواحد يقدر أن يمشي ويركض بجزمته على الغيوم. لم أكن أعلم أن الغيوم فوقها قصور، وعملاق، ودجاج يبيض بيوضاً ذهباً! كنت أرجع إلى البيت راكضاً لأخبر أبي بما جرى. وكانت أمي تنظر إلى أبي وهو يصغي إلى حكايتي، وتضحك!)

بعد المضيق المتعرج بلغنا ساحة دائرية. في مركز الساحة رأيت صندوقاً أبيض. كان نور الشموع يتموج على الصندوق. حين بلغت الصندوق رأيت أنه ناووس حجر آخر. أينما ذهبت تحت الأرض ترى هذه النواويس.

الفلكي دعاني للنظر إلى البوصلة التي يحملها. كانت بوصلة حجرية غريبة، وفي ميناء البوصلة رأيت الإبرة المعدن تدور على محورها كأن جنوناً أصابها. تدور سريعة، تغزل غزلاً. والفلكي ابتسم وشرح لي أن هذا المكان مملوء بالحديد، وهذه الساحة اسمها «ساحة المغناطيس». تحت الأرض حديد، وفي السقف حديد. وقال إن حيطان المتاهة هنا ترنّ رنيناً. وأحد الرجال طرق الشمعدان طرقة خفيفة على الجدار فطنّ، وتكرر طنينه، وظلّ يطنّ حتى بعد خروجنا من الساحة.

بقي صدى الرنين المعدني يطاردنا حتى بلغنا الجسر. لم أعلم في البدء أنني أنظر إلى «الجسر». كل تلك الليالي، وأنا أتخيل ياسمينة آتية إليّ، كنت أتخيل الجسر بثلاث ـ أو أربع ـ قناطر حجر، والمياه قد غاضت تحته، فبانت أساسات القناطر، وظهر لون الحجارة ـ حيث تدفقت المياه دهوراً طويلة ـ كالحاً، ومختلفاً عن لونها الفاتح أعلى القناطر. هكذا تخيلت الجسر، وأنا أتذكر الجسر الصغير أول قريتنا. لكن الجسر «تحت» كان أشد بساطة: رأيت صخرة واحدة سوداء، بلاطة مستطيلة طويلة ـ من رخامٍ سميكٍ قاتمٍ ـ تمتد من هذا الجانب إلى الجانب الآخر. تحت البلاطة يجري الماء وقد ارتفع منسوبه بسبب ضيق النهر في هذه النقطة. وفوق البلاطة يبدو السقف منخفضاً، فلا يقدر الواحد الطويل القامة أن يعبر الجسر إلاّ محني الظهر وإلاّ طرق رأسه (لكنهم تحت قصار القامة). في الجانب الآخر، على الضفة المقابلة، بانت منازل «حيّ الأزرق» بلونها السماوي البديع. (لا أنسى منظرها أبداً: رأيتُ النور يسطع من حيطانها الملساء!) وسرتُ نحو بيت ياسمينة.

*

زقاق البلاط وراء النهر يوصلني إلى بيت ياسمينة. هي دلّتني إلى الطريق. أترك القافلة عند الينابيع، وأسير إلى بيتها. أتركهم في نور المشاعل، يرفعون الماء من البرك، ويعملون شاياً، ويرتاحون. أقول لهم إنني سأرجع، لن أتأخر كثيراً. لكنني لن أرجع. لا أكذب عليهم. لكن ما سيحدث يمنعني من الرجوع. الواحد لا يعرف أبداً ماذا يخفي المستقبل، حتى المستقبل القريب. (أنا ـ في ليلة واحدة ـ صرتُ غريباً عن أخي. مع أنني بقيت ساكناً معه تحت سقفٍ واحد، وسوف أبقى ساكناً معه حتى بعد رحيل أبي. مع ذلك صار غريباً في عينيّ.)

أقطع أجران الماء التي أخبرتني عنها فأرى مدخل بيتها، وأرى الحلقة الحجر المعلقة فوق الباب.

أتقدم في المتاهة ولا أخاف. هذه المرة الأولى التي أسير فيها وحدي مخترقاً الدهاليز. العصا في يدٍ، والشمعدان في الأخرى. لستُ خائفاً. عظامي شفيت. وجسمي خفيف. أعرج كما يعرج الفلكي. لكن بصري حديد. من هذه المسافة البعيدة أستطيع رؤية بيتها، والحلقة المعلقة فوق الباب. هذا الحيّ الأزرق أقل ظلمة من الأحياء الأخرى. قلبي ينشرح.

أعلم أن حضوري سيفاجئها. لم أخبرها أمس ـ وهي نائمة عندي ـ أنني اليوم سأزور الحي.

أقترب كمن يخطو على الماء. لا أغرق. في داخلي تتدفق قوة لم أعرفها منذ زمن بعيد (كنت مرّات، وأنا طالع على الدرج من ظلمة السينما، ينتابني هذا الإحساس: أخرج إلى نور الشارع وأعضائي تضجّ بالقوة... فيبقى الإحساس معي ساعة أو ساعتين، ثم يتلاشى ويزول.)

أجدها قاعدة إلى المغزل تغزل ثوباً أبيض.

ترفع رأسها وتراني. أتوقع دهشة على وجهها لكنها تبتسم. ثم أسمع صوتها الهامس:

ـ كنت أنتظرك.

أسألها كيف عرفت أنني سأجيء. لا ترد. لكنها تحدثني عن الثوب الذي تنسجه، وعن إيليا وعباس:

ـ حين فقدتُ إيليا جاء عباس وقال إنه يريدني. قلت ليس الآن. قلت سأعمل كفناً لإيليا. وحين أنتهي أحرق الكفن في الفرن. بعد ذلك أذهب معك. هكذا قلت له. ولم أكن أكذب عليه. منذ دهر أعرف عباس. كان صاحب إيليا. ويأكل عندنا. ويشرب.

أزيز المغزل يتكرر صداه بين الغرف. مع أنها أبعدت كرسيها إلى خلف، يظلّ الصدى يتكرر. حين تسكت أسألها لماذا تحدثني عن إيليا وعباس الآن؟ لا تقول شيئاً، فأتابع الكلام:

ـ أنا لحقتك من فوق إلى هنا، هل نسيتِ؟

كلماتي تخرج من بين أسناني. لا أدري لماذا ألفظ هذه الكلمات. لكنني أعلم ـ من ملامح وجهها ـ أنني رفعت صوتي عالياً.

الكلمات خرجت. لا أستطيع أن أستردها. أراها كالحجارة مقذوفة من فمي، تطير إلى الأمام، تطرق وجهها، تطرق رأسها، تطرق الحائط وراء جسمها، ثم ترتد. في هذه المتاهة المطمورة ستظل كلماتي تتكرر إلى الأبد. قلت لها إنها لا تحبّني. قلت لها إنها لم تحب أحداً أبداً. قلت لها تريدين الخروج ليس كي تكوني معي. تريدين الخروج للبحث عنه، عن إيليا.

أشاحت بوجهها.

لن أسمع همسها بعد اليوم، وهي تحتي في الفراش، تحدثني عن الينابيع جنب بيتها، وعن الطبيب يعقوب الذي كان يحيا هنا، ويعمل أدوية لجميع الأمراض، ويشفي الناس، كل الناس، لكنه عجز عن شفاء المرأة التي يحبّها. حين ماتت زوجته حملها ونزل في مياه البركة العميقة ولم يطلع. ما زال تحت، إذا غطست إلى الأعماق رأيته. يوجد تحت مخلوقات عجيبة. يوجد مخلوق يقول المؤرخ مسعود إنه خروف. خروف يحيا تحت الماء. يرعى الطحالب والمرجان. وذات يوم سيصيده رجل محظوظ ويذبحه ويأكله. ومن صوفه سيعمل قميصاً وكنزة.

لن أقول لها بعد اليوم وأنا أقذف فيها أنها تقول أغرب الأمور في أغرب الأوقات.

لا أخاف أن تحمل طفلاً لأنها لا تحبل. أخبرتني أن معظم النساء هنا، هكذا. كلّنا عاقرات صرنا، قالت. وحين سألتها لماذا، قالت إنه الماء. الماء والهواء والنور القليل. وقالت ـ وهذا لم أستوعبه جيداً ـ إن النهر كان يحمل إلى المدينة الضوء أيضاً. وحين جفّ النهر، حين صار ضعيف التيار، لم يعد النور يدخل أبداً!

وأنا قلت إن الرسّام أيضاً ذكَر هذا.

وهي قالت ـ وعيناها غائمتان والبياض يتسع ـ إنها لا تعرف الرسّام لكنها تعرف الأسماك وتعرف الضفادع الخضراء وتعرف أنها كلّها يبست وماتت حين تيبس النهر. لكن قبل ذلك كان النهر يحمل النور. كانت ترى الضوء في عيون السمك، لم يكن السمك أعمى.

*

تخاف من صوتي العالي وتتراجع إلى وراء. أقول لها إنني لا

أريد أن نزعل. لكنني لا أفهم لماذا تظل تحكي عن إيليا.

تقول إنه كان زوجها.

أقول لكنكِ معي الآن، في بيت راحيل كنتِ معي، وفي بيت الفلكي كنت معي، والآن أيضاً ـ في غرفتي ـ أنت معي. أينما أذهب تأتين إليّ، أليس هذا حبّاً؟ أنت لا تضيعين في المتاهة. الكل يضيع فيها. حتى الفلكي يضيع إذا خرج بلا خرائطه. لماذا تريدين أن نزعل؟

لا تقول شيئاً. لكنني أرى وجهها يزداد بُعداً، يزداد جماداً. كأنها تتحول إلى تمثال.

لا أدري ماذا أفعل. كيف أجذبها من المكان الذي تذهب إليه؟

أقول لها إنني لا أريد أن أتركها أبداً. أقول لا أريد أن أخرج من بيتها وهي غاضبة.

يداها تتحركان. الأنامل التي أعرفها جيداً ـ الأنامل التي تظهر فجأة أجنبية، ليست لي ـ تتحرك، وتلمس الثوب على المغزل. ثم أسمع همسها:

ـ لست غاضبة منك. لماذا أغضب منك. لا. لا لست غاضبة.

أقول إن وركي كان يؤلمني قبل ساعة. أقول إن الرحلة الطويلة أرهقتني.

تدعوني إلى القعود وتجلب لي ماء.

ـ لا تغضبي مني يا ياسمينة. أنا تعبان. كل هذا الوقت تحت التراب، تعبت. لا تزعلي مني. علينا أن نخرج. علينا أن نطلع إلى فوق. صارت ساقي أحسن. ووركي أيضاً. والآن جسمي نحيل،

أقدر أن أزحف في أنفاق التهوئة بسهولة. وأنت تعرفين الطريق. علينا أن نخرج.

لا تنظر إليّ. تنظر إلى الثوب على المغزل وتقول إنها تنسج هذا الثوب ليوم خروجها. تريد أن تلبسه حين تطلع إلى «برّا». لا تريد أن تطلع إلى الشمس في هذا الثوب البالي.

أقول إن ثوبها حلو لأنها هي حلوة.

أصابعها في حضنها، وتهمس بصوت غريب، صوت بعيد، كأنها تبحر في فضاء أبعد من نهاية العالم:

ـ صعب عليك أن تزحف في شبكة التهوئة. لن تقدر. أنت نحيل، صرت نحيلاً، بلى، لكنك طويل، طويل جداً. ستعلق في المنعطفات. ثم إن الطلعة قوية، قوية ومتعرجة وزلقة.

أقول إنني كما سقطت أقدر أن أطلع.

تقول إن الفلكي يمكن الوثوق به. أما المؤرخ فلا. وزكريا أيضاً لا تثق به. ولا تثق بأخيه العشّاب. وعباس بالتأكيد لا يمكن الوثوق به.

أسألها لماذا تتحدث عنهم الآن؟

تكرر هامسة وهي تنحني صوبي:

ـ الفلكي. الفلكي. لا تصدق غيره. إيليا كان لا يثق إلاّ به. الآخرون لا يمكن الوثوق بهم. الفلكي يحيا في الخرائط. لا يخاف على نفسه. ليست عنده مصالح. وقلبه طيب. طيب وكان يحبّ إيليا. وهو يحبك أيضاً. أنا أعلم. يحبك.

صوتها يخيفني. لماذا تكلمني بهذه الألغاز. أقترب منها. أريد أن ألمس يديها. تتركني أحمل يدها. لكن اليد باردة. باردة كدلفين. باردة كالثلج.

أشعر بالحزن. أستلقي على جنبي. أضع رأسي في حضنها. أسمع همسها البارد:

ـ إذا كنت متعباً عليك بالنوم. سأوقظك بعد ساعة. أو في الصباح. ليكن نومك عميقاً.

لا تلفظ اسمي. كلما ألقت عليّ تحية المساء قالت في آخرها «يا بطرس». هذه المرة لا تلفظ الاسم. لا أريد أن أنام. أريد أن أحكي بعد. أريدها أن ترجع كما كانت. حارة. حارة وقريبة. لا أنسى أبداً تلك الليلة، أول نزولي في بيت الفلكي. لا أنسى فمها على عينيّ. أريدها أن ترجع كما كانت. أقرأ المنقوش على الحائط فوق التخت وتقول إنها لا تفهم هذه الكلمات. وأشرحها لها. أريد أن أحكي معها الآن. أن أدمر هذا الجدار الذي نبت بيننا كشجرة صبار. لكنني تعبان. الرحلة الطويلة أتعبتني. أغمض عينيّ. أنام.

*

لا أدري متى أستيقظ. لكنني أعلم فوراً أمرين:

1 ـ أن وقتاً طويلاً قد عبر.

2 ـ أنها أثناء نومي غادرت البيت.

الثوب اختفى عن المغزل.

أنتظر ياسمينة كل ليلة. أنتظرها في غرفتي ناظراً إلى الشمعة تذوب. على الحائط رسم شمس وغيوم وأشجار لا أدري ماذا تكون. يتقدم الليل فأسمع النشيج الذي أعرفه. وهذا الصوت يخبرني (لكن كيف أتأكد) أنها ما زالت هنا، تحت الأرض، في المتاهة الحجر. أسمع البكاء، وأنتظر.

أتمدد على بطني، أو على ظهري، أو على جنبي. أمارس التمارين حتى وأنا في السرير. عليّ أن أستعد. أعرف أنهم لا يريدونني أن أخرج. كلّما قلت إنني أتحسن، أنني قادر الآن على الطلوع قالوا انتظرْ قليلاً بعد، وإلاّ أوجعتك عظامك، فخذك لم تُشفَ تماماً بعد، ألا ترى نفسك كيف تعرج، ما زلت عاجزاً عن الوقوف بلا عصاك!

يقول لي المؤرخ لماذا العجلة؟ انتظرْ حتى ينتهي موسم الجفاف. شبكة التهوئة مملوءة بالغبار الآن، إذا زحفت فيها قد تختنق. انتظرْ موسم الأمطار ليذهب الغبار. لماذا تتعجل؟

المؤرخ يسكت والعشّاب يوسف يتابع عنه الكلام. يقول وهو يلوك عشبة ـ لا أدري ماذا تكون ـ إن عظمة فخذي يجوز أن تطقّ من جديد إذا زحفت عليها، فإذا طقّت كانت كارثة. العظم في المرة

الثانية يطول عليه الوقت قبل أن يجبر. الأفضل الانتظار بعد.

ويقول زكريا بالصوت الهامس ذاته، مثلهم:

ـ حين تستطيع السير بلا عصاك يمكن أن تحاول، لكن ليس الآن، لماذا تخاطر؟

أهزّ رأسي وأبقى ساكتاً. لا أقول لهم إنني أستطيع أن أركض الآن، ومن دون هذه العصا.

لا أقول شيئاً. أتذكر كلمات ياسمينة.

أحمل العصا وأعرج كما يعرج الفلكي. مع أن ساقي شُفيت. لم أعد في حاجة إلى عصا. لكنني أُخفي سرّي. وأمضي مع المؤرخ إلى «حيّ السُمر».

*

أصل الآن إلى مكانٍ صعب في قصتي. لا أعرف كيف أخبرك ماذا جرى لي في ذلك الحيّ. لم أكن أتخيل أبداً أن أرى ما رأيت، وأن أسمع ما سمعت.

هل تستطيع أن تتخيل رجلاً ميتاً ينهض من القبر ويقعد معك؟ تشربان الشاي ويحكي لك عن حياته. هذا ما حدث معي. طبعاً لم أتكلم مع موتى. إنني أستعمل تشبيهاً فقط. الموتى لا يتكلمون.

أذكر الدرب المنحدرة من النهر (من «مركز الصيادين» على النهر) إلى ذلك الحيّ. أذكر أطفالاً بلا ثياب يلعبون في الدهاليز وبين الأدراج، وأنا أسأل المؤرخ ماذا يفعلون كل النهار، ألا يتعلمون أبداً؟ أذكر المؤرخ يضحك ويقول إن الذي يتعلم هنا يصير شقياً، ما فائدة العلم؟ لا أدري لماذا، لكنني أتذكر إيليا. الفلكي أخبرني أن إيليا كان مولعاً بالنظر إلى خرائطه وإلى الكلمات المنقوشة على حيطان بيته. (بيت الفلكي يتكون من ممرٍ طويل

ينعطف في زاوية تسعين درجة ثلاث مرات، فيتشكل بالتالي من أربع غرف.)

قبل أن ندخل «حيّ السُمر» أنتبه أن رائحة الهواء قد تغيّرت. صارت أقوى. كأنهم في هذا الحيّ يتعرقون أكثر. رائحة الأجسام عارمة، حادة، تصفع الوجه. بعد ذلك تتراجع الرائحة. المؤرخ يدلّني إلى مدخل. نتقدم حاملين الشموع. نجد رجلاً قاعداً في الظلام. بشرته ليست شمعية البياض. لكنه ليس أسمر أيضاً. لعله كان قبل سنوات أسمر. الآن شحبت سمرة وجهه. أعرف ـ من النظرة الأولى ـ أنه لم يولد تحت الأرض. أعرف أنه نزل من عالمي، «العالم البرّاني».

يتبادل الكلام مع المؤرخ. المؤرخ لا يخبره أنني من «فوق». أفهم من كلامهما أن المؤرخ يريده أن يروي بعض ما حدث له قبل نزوله مباشرة إلى هنا. أفهم أن المؤرخ سمع قصة الرجل من قبل. سمع حياته كلّها، من ولادته إلى هذه اللحظة. لكنه الآن يريد أن يتأكد من بعض التفاصيل.

عينا الرجل لا تبصران وجهي. هل هو أعمى؟ لكنني كنت أحسب العميان يحيون في مكان آخر! لماذا يحيون في مكان آخر؟ لأنه «حيّ العميان»! أفكّر أنني ـ رغم مرور كل هذا الوقت ـ ما زلت جاهلاً! وساذجاً أيضاً!

يتكلم الرجل عن القنابل.

أملُّ من سماعه يتكلم عن الفارق بين القنابل والرصاص.

يقول إن الرصاصة مثل الرمح أو السيف أو الحجر، تصيب الرجل فتقتله. لكن القنبلة ليست رصاصة. يقول القنبلة كتلة ضخمة من الحديد تنفجر كما ينفجر الفرن أحياناً فإذا انفجرت طارت منها

شظايا. من القنبلة الواحدة قد تطير مئة شظية. وكل شظية تقتل كما يقتل الرصاص.

أملّ من سماع الرجل الأعمى الآتي من «فوق»: هذه التفاصيل مثيرة ربما بالنسبة إلى الناس «تحت»؟ لكنني عشت حياتي كلّها تحت القصف.

ثم أسمع صوته يخفت أكثر، يقول:

ـ كنتُ أنا وزوجتي وابنتي الصغيرة وأولادي الثلاثة. كنّا في المطبخ. كنّا نأكل.

صوته جامد. لا حرارة فيه. كأنه لا يحكي عن عائلته.

أعلم أنهم قتلوا جميعاً بقنبلة وحدة.

أعلم أنه ـ بعد أن دفنهم ـ حاول أن يسافر إلى أخيه في الخارج.

يقول أشياء تبدو لي غامضة.

أفكّر أن عقله لم يعد سليماً تماماً.

يروي شيئاً عن توقف القصف، عن انتهاء الحرب.

أفهم أنه يحكي عن «حرب السنتين». أكتشف رويداً رويداً أنه يعتقد أن الحرب اللبنانية انتهت سنة 1976! دخلت قوات الردع العربية فتوقف إطلاق النار وانتهت الحرب! هكذا يحسب هذا الرجل العائش تحت التراب، بلا بصر!

أُدرك أنه بقي فوق حتى سنة 1977.

في تلك السنة خطفوه. كان ذاهباً إلى العمل فخطفوه. حاجز طيّار ظهر فجأة عند زاوية الشارع. يذكر سيارة مرسيدس زرقاء، ويذكر امرأة تزعق، ويذكر «ورشة بناء» وعربات رمل وبحص. إذا كانت الحرب انتهت، فلماذا خُطِف؟

المؤرخ يسأل الرجل الأعمى أسئلة.

الأعمى لا يجيب بوضوح. يسكت. يبدو كأنه نام. بل إنني أسمع شخيره فعلاً. المؤرخ يهمس في أذنه ويلمس رقبته. رقبته تغطيها التجاعيد. مع أنه لم يجاوز الخمسين. أعرف عمره من شعره الفاحم السواد، ومن رائحة جسمه. أعرف ذلك بالحدس.

يقول الرجل إنهم كانوا في مكان مظلم وكان يسمع سيارات تعبر فوقه، والعجلات تصرّ. يقول كانوا في كاراج تحت الأرض.

يقول إنهم كانوا كثراً. حاول أن يُكلم الآخرين. قال اسمه وأين يعيش ومن أين هو. والآخرون تكلموا أيضاً. كانوا يتكلمون دفعة واحدة. ولم يميّز الأسماء كلّها. سادت الضجة. وسمع بكاء. ثم طرطقة قوية. قال إن عيونهم كانت معصوبة. وأيديهم مقيدة خلف الظهور. والكواحل أيضاً.

قال إنهم بعد زمن طويل ـ كم؟ أيام؟ شهور؟ ـ توقفوا عن إطعامهم.

في البداية جلبوا لهم خبزاً وماء.

بعد ذلك كفّوا عن إطعامهم.

ـ ثم صار عددنا يقلّ.

وقال الرجل إنهم في النهاية أطلقوا الرصاص على من بقي. ثم حملوهم إلى الخارج.

ـ عرفتُ من الضوء القوي.

قال إنه سقط وسقط وسقط. ثم ارتطم بالقعر. وسقط الآخرون فوقه. قال إنه لم يكن أول من سقط. لأنه عرف أنه لم يقع على حجر أو تراب.

ـ وقعتُ على ناس.

قال إنه فتح عينيه فلم يرَ إلاّ الدم.

ـ وقت طويل ولا أرى إلاّ الأحمر.

بعد ذلك زحف. أبعد الأجسام وزحف. لم يعرف أين هو. فهم أنهم رموه في بئر. أو في مكان ما مثل البئر. صار يزحف ليصل إلى حائط البئر. إلى سلم حديد. إلى سلم حجر. لم يصل. ظلّ يزحف. ثم أحسّ بالرائحة الباردة. وسمع خرير الماء.

*

نغادر البيت فيغرق في الظلام من جديد. المؤرخ يقول إن هذه القصة تتكرر من أفواه كثيرة. حتى إنه مرّات يحسبها كذباً. ثم يقول إن قلبه ينكسر كلما سمع هذه القصة. بعد وقت، ونحن نقطع «وادي جهنم»، يسألني كم بالضبط دامت الحرب، كم سنة من سنوات العالم البرّاني؟

أقول وأنا أتكلم كأنني أسير في منام:

ـ 15 سنة.

يسألني كم شخصاً قُتِل فيها؟

أقول أنني لست متأكداً، لكن ليس أقل من مئة ألف شخص، على الأقل مئة ألف.

يسألني هل هذا عدد كبير جداً فوق؟

أقول إنه كبير، بالتأكيد كبير، ثم هناك أيضاً الناس الذين ضاعوا.

ـ مثله، يقول.

ويلتفت برقبته إلى خلف.

أهزّ رأسي، فيسألني عن عدد هؤلاء، عدد الذي خُطفوا وضاعوا.

أقول لستُ متأكداً، لكن ليس أقل من عشرة آلاف شخص، ربما كانوا عشرين ألفاً.

ويسألني هل هذا عدد كبير جداً فوق؟

*

أنتظر ياسمينة كل ليلة. في الوقت ذاته أسمع النشيج. الصوت يقترب، يقترب... ثم يتبدد. هل أعرف أنه بالتأكيد صوتها؟ لا أعرف شيئاً. الحياة غامضة. ولعل الأصوات تأتي من «فوق».

أسمع أيضاً موج البحر. وحين أنام ـ فاقداً الأمل ـ أرى كوابيس. قطة مذبوحة تحاول انتزاعها من جبّ شوك في طرف حقل زيتون (ماذا تفعل هنا؟ تنقي زيتوناً؟) لكنك لا تنجح. القطة كبيرة بيضاء مبقورة البطن، عالقة في الشوك، تفوح منها رائحة فتّاكة، وأنت ترى الأحشاء القذرة الحمراء. تطلع إلى جلٍّ آخر لتجلب عصا وتبعد الحيوان المذبوح. تجد عصا سوداء ثخينة. تحملها فإذا بها ساق آدمي شُويت حتى تفحّمت. هنا وهناك ترى أطرافاً آدمية محروقة وأعضاء مبعثرة. لم تعد في الحقل. صرت في كاراج تحت بناية. تريد الخروج من تحت الأرض حيث الجثث والزبالة والرائحة وأعمدة الباطون. لكنك لا تجد مخرجاً. هل تعلق هنا وتموت ولا يعرف أحد؟

أتذكر أشياء لا أريد أن أتذكرها. وأرى وجوهاً لا أريد أن أراها. لا أقدر أن أفعل شيئاً. لا أحد يقدر أن يسيطر على مناماته. ما يأتي إليك وأنت راقد في الفراش يأتي إليك، رضيت به أم لم ترضَ، غصباً عنك عليك أن تقبله. أنام فتنطلق الصور في تلافيف دماغي.

أستيقظ محطم الجسم. أخرج إلى المتاهة حاملاً العصا.

وأحياناً يوقظني عباس الصياد. نمضي معاً إلى «الباب الطيب». «حيّ العميان» قريب، لكن مدخله من الجانب الآخر. أظل أؤجل الدخول إليه. ثم يأتي يوم وأدخله.

قبل ذلك أزور «حي شيخ محمد». أجد راحيل في باب البيت حيث أقمتُ طويلاً، بيت أبيها. أجدها مع جارات، فيتحلقن حولي ويسألنني عن صحتي، وعن عظامي. ثم تقول إحداهن إنني صرت أبيض، لم أعد أسمر اللون أبداً!

ـ كأنك منا، تقول راحيل.

*

في طريق العودة، بينما أعبر المتاهة سالكاً طريقاً مختصرة، ألتقي الشيخ إسحاق. رائحته شحم وشمع، وعلى كتفيه قشرة من رأسه. يسألني عن صحتي، وعن عظامي. أعرج أمامه قليلاً.

ـ كما ترى عينك، أقول.

فيبتسم. ثم يُحذرني من الإسهال الضارب في البلد. ويقول هامساً:

ـ صاحبك الفلكي في الفراش منذ يومين.

*

أريد أن أزور «حيّ المعامل» وأن أتفقد صحة الفلكي سلمان. لكن عباس الصياد يطلب مني أن أنتظره إلى بعد الظهر، فهو يريد الذهاب معي. أنتظره قاعداً في غرفتي. يُخيل إليّ أنني أسمع أبواق سيارات. أعرف أن هذا مستحيل. وأقول لعله بوق بحري مثلاً، بوق الباخرة هائل الصوت، يُسمع من جزيرة إلى أخرى!

يأتي عباس ويقول إنه بحاجة إلى مساعدتي. أحمل العصا وأخرج. يقول إنه رصد ثعباناً.

نطارد الثعبان في المتاهة المظلمة. لا أرى الثعبان. لكنني أتبع عباس الصياد. نقطع الجسر إلى الضفة الأخرى. نسلك دهاليز تفضي إلى دهاليز أوسع ثم إلى ساحة ثم إلى دهليز ضيق ثم إلى ساحة ثم إلى دهاليز فسيحة ثم إلى دهاليز أضيق، وأجدني أمام الجسر من جديد: درنا دورة ورجعنا إلى النهر!

نقطع إلى الجانب الآخر ولا نصيد الثعبان الذي نطارده. ويقول عباس:

ـ الملعون! ما أسرعه!

وأنا ألهث، والعرق يتصبب من وجهي.

يرفع ماء من النهر. المياه قذرة. تغيّر لونها في الأيام الأخيرة. صارت بلون العشب «برّا». يلقي الماء الأخضر على الأرض. يقول:

ـ نذهب غداً. لن نلحق اليوم. نذهب غداً.

أُدرك عندئذٍ أنه كان يضحك عليّ. ولكنني لا أقول شيئاً. ماذا أقول؟ أنا أصلاً غير متأكد.

*

ـ . . . تلك الليلة شربنا كثيراً. كنا نشرب عرقاً وفودكا وويسكي. ونبلع حبوباً وندخن حشيشة. كل الليل ونحن نشرب ونبلع وندخن. الرعد أخوت والمتراس كله يهتز والسيل يتدفق عند المدخل. لا أعرف من اقترح أن نخرج ونتسلل. كنا نتسلل إلى الخنادق على بشارة الخوري دائماً. لكن ليس في المطر. وليس بعد كل ذلك الشرب. أنا بطني كانت ثقيلة كأنها مملوءة بالحجارة. لم أكن أكلت شيئاً منذ الظهر. لكن الشرب، الشرب، والشرب. كنت منفوخاً. والحبوب أبلعها بلعاً. والحشيشة تملأ رأسي. وخرجنا.

لطخنا نفسنا بالوحل وزحفنا. تسلقنا متاريس ووقعت وأنا أجذب جسمي إلى جسمي قافزاً فوق أكياس رمل. أكياس وحل. كان جسمي مفككاً. من الشرب والبلع والدخان وكل ذلك المطر. لم أشعر بالبرد. داخل «الدشمة»، في الأسفل، كان البرد أقسى، ينغرز في فتحات الوجه كالخناجر. حين خرجنا ذهب عني البرد. لكنني، تحت الشتاء، شعرت بجسمي يتفكك. كأنني تلقيت قذيفة في بطني، والقذيفة قطعتني إلى نصفين. كنت أشدّ ذراعي على جسمي فلا أحسّ بذراعي. انطفأنا ونحن نشرب. انطفأنا تماماً. وبقينا نزحف. الوحل دخل فمي. صرت أبصق الوحل وأسعل و«كومالي» خلفي يضربني لأسكت، ويضحك، ويقول: «فضحتنا»! وصرنا كلّنا نضحك. شريط شائك مزّق لحم وجهي. لم أنتبه إلاّ حين أحسست بالدم. كان ساخناً مثل الحليب، وفكّرت أن قناصاً أصابني. الرعد كان يرعد. والبرق يبرق. وفكّرت أنني أموت، أنهم قتلوني. كان يوجد قناص هناك، في البناية، وراء التمثال، تمثال بشارة الخوري، كنا نسمّيه «بو عدسة»، كان فظيعاً. وقلت قتلوني. كومالي كان عالقاً في الوحل، بعيداً، في خندق آخر. اقترب مني هاغوب ـ هاغوب مانوكيان أنت تذكره ـ وكان يضحك. ورأيت ورقة بقدونس على أسنانه. كان البرق يملأ الوحل باللون الأزرق واللون الأخضر. وصرت أضحك حين مسح الدم عن وجهي وقال هذه برغشة، عقصتك برغشة في الحرب يا غارو، العذراء... كان يريد أن يقول شيئاً عن... لا أعرف ماذا أراد أن يقول. ظهر كومالي فوقنا فجأة، يقفز من دون أن يحني ظهره ومن دون أن يزحف. كان يركض مكشوفاً على الحافة العالية بين الخندقين، ويضحك، ويقول أن المطر فاتر، هذا ليس الشتاء، كأننا في الصيف، كأننا نسبح على البحر. رفعت جسمي وخبطته بالرشاش

على ساقيه. كان بعيداً لكنني طُلته بالرشاش. وقع علينا. كنا تسعة. وبقينا نزحف ونطلع وننزل وسيول الوحل تتدفق على ثيابنا. قطعنا الطريق كلّها. كانت بلا زفت. كلّها تراب وحجارة وحديد وخشب وبلاستيك وأكياس نايلون ورصاص وزبالة. لم يطلقوا علينا رصاصة واحدة. لكننا وصلنا إلى أسفل التمثال ونحن نلهث. أنا الدم على وجهي، ورينغو يُحوزق، وهاغوب يده على ركبته ويزعق ويضحك. كان بنطلونه مقطوعاً والدم على ركبته يمتزج بالوحل. قال إنه زحف على قناني الزجاج المحطمة. رآها وزحف عليها. قال إنه فعل ذلك ليتأكد إذا كانت ستجرحه. كنا مجانين. كانوا يسمّوننا الشياطين السود. ويسمّونني «الرفيع». كنت أدخل من شقٍ في الحائط. كنتُ عنكبوتاً. لا أحد يعرف كم مرّة تسلّلنا إلى متاريسهم ورجعنا. لكن تلك الليلة... مثل هذه الليلة. مثل هذه الأمطار. وهذه الرعود. والبرق. لا أنسى البرق. في حياتي كلّها لم أرَ برقاً مثل تلك الليلة. إلاّ في الجبل. (بلى، في الجبل، حين كنا صغاراً، تذكر؟) زحفنا حتى بلغنا «الشادر». كان الغطاء المشمع يغطي نصف الخندق. ومن باب الخيمة كان يطلع دخان وضوء نيون وأصوات. كنا نسمع ضحكاً. كانوا مثلنا سكرانين. وانتظرنا. اتفقنا بالإشارات أن نهجم بالسلاح الأبيض. بلا رصاص. لا نريد أن يقصفونا الآن، نريد أن نضرب ونهرب. نحن أصلاً جئنا بلا أوامر، بلا تغطية. لا نريد أن نخرق وقف إطلاق النار، كنا نقول هذا غاطسين في الوحل، ونضحك ونحبس الضحكات، وقال هاغوب «الساطور، الساطور»! ورأيته يخرج ساطوراً من ثيابه. كنا نحارب بالبنطلون الجينز والجزمة العسكرية و«الفيلد» الأميركاني. وهاغوب كان يضرب كيس الرمل بساطوره فيقطعه. أنت تذكره! حرام هاغوب! البرق، لا أنسى البرق! ليس قبل، لكن بعد. انتظرنا حتى خفتت الأصوات.

كان الجو يزداد سخونة. كل الرعد والهواء والوحل، والدم يفور في أنفي! كل تلك الحبوب التي بلعناها. وهجمنا. هجم هاغوب وأنا جنبه، والباقون خلفنا. اقتحمنا الخيمة مستعدين للطعن والضرب، فرأينا الكلّ على الأرض. الأرض مفروشة سجاجيد وطراحات، والصوت يخرج من تلفزيون أبيض وأسود، ونور النيون يرتجف. كانت لمبة قديمة، تنطفئ ثم تضيء. وتبرق.

كانوا 11 أو 12 أو 13، لست متأكداً. حين دخلنا لم يتحركوا. على الأرض زجاجات فارغة ومنافض بلاستيك مملوءة بأعقاب السجائر. كأنهم يسهرون في البيت. ليس زجاجات عرق فقط، ولكن أكواب وكؤوس أيضاً. وجنب التلفزيون في الزاوية على الأرض صُدر قش عليه طعام، بقايا طعام، صحون باذنجان مكدوس ولبنة شنكليش وزيت مخلوط مع زعتر وصحن زيتون أسود وصحن فيه كبيس بندورة. كانوا أكلوا وناموا. على التلفزيون مسلسل مصري. والمكان حار. واحد منهم فتح عينيه وقال لي: «مرحبا». لم يعرف من نحن! ثم عرف.

كان يمدّ يده ويبحث عن رشاشه. هاغوب بضربة واحدة قطع ذراعه. صرخ الرجل وبدأنا. لا أعرف كيف أصابوا هاغوب لكنهم أصابوه. كانوا سكرانين، وحركتهم بليدة كما في ستيف أوستن. لا يستطيعون أن يتحركوا. ونحن، مع كل الحبوب والشراب والحشيشة، بقينا أسرع من البرق. وقع هاغوب فالتقطت الساطور من يده. كومالي كان في باب الخيمة. لم يدخل. وقع في باب الخيمة، تعثر بحبل ووقع على الأرض وظلّ على الأرض. دخل خلفي أربعة أو خمسة، ثم هرب اثنان أو ثلاثة منهم. لم أفهم لماذا هربوا. خافوا من البرق والرعد أم من الرصاص أم من صرخات هاغوب، لا أعرف؟ أنا لم أسمع الرصاص. بعد ذلك سمعته. في

الأول لم أسمع. كنت أريد أن يخرس هاغوب. لكنه ظلّ يزعق. نظرت حولي فلم أرَ معي إلاّ الشنتيري. والشنتيري قال لي «اهربْ». استدار ليهرب ورأيته يسقط. كان في كنزة صوف صفراء، بلا «ڤيلد»، وبلا جاكيت، وبلا عقل. كنا نناديه «العبيط» لأن صاحب «سوبرماركت امباسي» كان يناديه هكذا. كان خاله أو زوج خالته، لا أذكر. برم ليهرب فرأيت ظهر كنزته يتبقع بالأحمر. ووقع. رأيت كومالي وراء باب الخيمة القماش، رأيته من شق الباب، والبرق يبرق، والوحل يسيل، وقلت هذه هي الساعة. كانوا استيقظوا كلّهم، 10 أو 11 أو 12 أو 20، لم أعدّهم. هاغوب قال «13»! لكن هاغوب كان يحبّ هذا الرقم أكثر مما يحبّ جعجع.

البرق والحبوب والشتاء والويسكي. لا أعرف. شيطان دخل في جسمي. كان الساطور معي، وقلت هذه هي الساعة. هاغوب قال إنه لم يعرف ماذا حدث لي. أخذت أضرب وأضرب وأضرب. كان الدم ينوفر وأنا أضرب وأقول عليّ أن أضرب أكثر، لا أريد الخروج من هنا، لا أريد أن أهرب، لا أريد أن أطلع إلى «برّا». كنت أضرب وأفكّر بالتلفزيون وصينية الأكل وانتبهت أنني جائع وبقيت أضرب. ضربت واحداً على رقبته فتدحرج رأسه. لم أكن أعلم أن هذا ممكن! وضربت واحداً يقوم عن الأرض، ضربته على رأسه، فرأيت مخّه يخرج من شعره. الشعر أشقر أصفر، والمخ أزرق أخضر، وصار الدم يبقبق، وسمعت الصراخ أعلى. الصراخ ورائحة الدم والبيض المسلوق وبخار يخرج من أنفي ومن بين أسناني. كنتُ ألهث وأضرب والعرق يسيل من يدي والدم يسيل على أصابعي. أدور كما في أفلام الكاراتيه وأضرب. يدي تتحرك وحدها. ضربني واحد على ظهري. لبطته، لا أعرف كيف لبطته.

ثم ضربته. نزل الساطور على ظهره، على جانب ظهره، عند الكلية. رأيت اللحم ينقشر مثل قشرة الموزة، ورأيت تفاحة سوداء تسقط منه. كليته انتفضت على الأرض. لم أعد لا أسمع ولا أشم. صرت فقط أرى. دم، وسيقان، ورؤوس. حركتهم بليدة كئيبة وأنا كالبرق. قطّعتهم كلّهم وكنت أريد أن أقعد وآكل اللبنة والزيتون والبندورة الخضراء المكبوسة والزيت والزعتر. لكن الدم كان يغطيني. ويدي كانت جامدة على الساطور، والأصابع تخشبت على القبضة. حملت هاغوب على ظهري، كنت أجرّه وأحمله، وخرجت. رأيت كومالي يركض، بعيداً، تحت البرق. ناديت عليه فرجع. حملت هاغوب مع كومالي وركضنا. نقع ونقوم في الدم والرصاص يشرقط في الماء والوحل وأرض الخندق. قطعنا الطريق، وهاغوب على ظهري. حين وصلنا إلى جهتنا رميته وانطرحت في الوحل، على ظهري. البرق. أزرق. لا أنسى البرق تلك الليلة. الساطور بقي في يدي. الدم تجمد عليه. لم أقدر أن أفتح أصابعي. تجمدت أصابعي. دخلنا الفرن. وغسلت يدي. غطستها بالماء الساخن. هي والساطور. ثم فتحت أصابعي إصبعاً إصبعاً، خلصت الساطور من يدي.

لولا أنني رأيت ذلك الشبح الأبيض يتقافز وراء البراميل القديمة في ظلمات «سيتي بالاس»، بين الأعمدة الباطون القاتمة، في ذلك الليل الماطر البعيد. . . لولا أنني ركضت وراء ياسمينة (أنا الحارس). . . لولا أنني سقطت في تلك الحفرة. . . لولا أن. . . أردتُ أن أخبرك عن العالم الموجود «تحت». فإذا بي لا أخبرك إلاّ عن أحزاني. فماذا أعمل الآن؟ هل أخبرك كيف باتت متاهة بيريتوس المطمورة أشد ظلاماً في عينيّ بعد اختفاء ياسمينة؟ اختفت ولم ترجع إلى بيتها ولم يعلم أحد أين ذهبت. هل خرجت إلى برّا؟ أم ضاعت في المتاهة التحتانية إلى الأبد؟ هناك مساحات داخل المدينة المسورة لا تظهر على خرائط الفلكي سلمان! هو أخبرني، وابنه الفلكي الصغير حامد أخبرني، عن غابات حجرية في أقصى الشرق، وعن سلاسل جبال وعرة خطرة لم يسلك شعابها أحد، وإذا سلك شعابها إنسان، ضاع ولم يرجع. هل ضاعت ياسمينة في الأسفل، أم خرجت إلى العالم البرّاني للبحث عن إيليا الذي خرج قبلها؟ هل أراها ذات يوم وأنا أعبر طرقات الأشرفية منحدراً عند المساء إلى بناية «فيرجين»؟ وإذا رأيتها هل يُكلم أحدنا الآخر؟ هل أعرف وجهها في نور الغروب؟ هل تعرف وجهي؟ هل تكون

وحدها؟ أم يكون معها رجل؟ قبل زمنٍ قصير كنت خارجاً عند الظهيرة من عملي ـ من دوام النهار ـ في «برج الغزال» فرأيت رجلاً واقفاً عند تقاطع الطرق ينظر إلى إشارات السير تشتعل وتنطفئ، وإلى السيارات والشاحنات تنطلق دفعة واحدة أو تتجمد. كان وجهه غريباً: بياضه شاحب لكنه مبقع بدوائر حمر كالشمندر، وعلى عينيه نظارات. بدا شديد الشبه بالناس «تحت». وكان ـ مثلهم ـ قصير القامة. هل عثر على هذه النظارات في الطريق أم اشتراها؟ هل أرى إيليا ذات يوم؟ وكيف أعرفه؟ لن أعرفه إذا رأيته فأنا لم أرَه أبداً! ولولا أنه اختفى من «تحت» لِما خرجت ياسمينة تبحث عنه في طبقات سيتي بالاس المهجورة، ولما رأيتها بينما أحرس المكان، ولما نزلت يوماً إلى تحت! الآن، لا أسير في طرقات بيروت، إلاّ أجدني أتأمل الوجوه الشاحبة. أفتش عن عيون حزينة ترمش متعبة في نور الشمس الحلو ـ القوي ـ وأسأل نفسي هل يأتي يومٌ فأجدني مرة أخرى أمام ياسمينة؟ أو أمام راحيل؟ أو الفلكي سلمان؟ أو المؤرخ مسعود؟ أو الجغرافي الصغير زكريا؟

*

بعد اختفاء ياسمينة والظلمة التي غمرت بيتها الأزرق الحيطان صرت أراها في مناماتي تطفو بثوبٍ عاجي البياض على بركة الماء عند ينابيع يعقوب، أو ترقد محطمة العظام على سفح الهوّة داخل «باب البحر».

ما زلت أرى مثل هذه الكوابيس بين حين وآخر. لكنني الآن ـ وهذا هو الفارق بين «تحت» وهنا ـ لا أستيقظ في الظلام الدامس بعد هذه الكوابيس. أستيقظ لاهثاً مخنوق الأنفاس مبلولاً بالعرق، كما كان يحدث لي تحت، بلى، صحيح، لكنني لا أستيقظ في

الظلام: صرتُ ـ منذ خروجي ـ لا أنام إلاّ ومصباح الكهرباء مضاء.

*

لا أنسى الليالي والكوابيس. أنتظرها ولا تأتي، فأنام. وفي النوم أراها تطفو ـ مثل أوفيليا ـ على وجه المياه. أنا الذي قرأت كل تلك الكتب لم تساعدني الكتب على احتمال الألم. بل العكس: تضاعف ألمي!

لكنني لا أريد أن أحكي لك عني. مع أنك تظل تسألني عن أخي ومرض أمي وموت أبي! ماذا أخبرك عن أخي؟ هل أقول إنني لا أصدق ما رواه لي في تلك الليلة؟ أصدق أنه ذبح كل هؤلاء الرجال وهم نيام في الخندق، لكنني لا أصدق أنه كان سكران. لم أصدق لا البكاء ولا الندم! إذا بدأت الحرب من جديد يكرر كل ذلك مرة أخرى! وإذا لم يكرر ذلك يكون السبب العمر، لا الندم. فأخي لم يعد في عزّ الشباب. أمي؟ ماذا أخبرك عنها؟ السرطان التهم معدتها ثم مصرانها. كنت صغيراً، لكن نزار كان يخبرني. لماذا أخبرني كل تلك التفاصيل الصغيرة الفظيعة؟ أذكر أبي يجلبها إلى البيت، وقد تساقط شعرها. أنت تعلم. العلاج الكيماوي. كانت صفراء. شاحبة. زال الشحم عن وجهها. والعظام ناتئة. وتتحرك على مهل. أذكر عينيها وقد اتسعتا. أذكر أبي يحملها من فراشها إلى مقعد الباطون الطويل على المصطبة. كان هذا مجلسها المفضل دائماً. قبل المرض كانت تجلس هنا، تُصحح أوراق امتحانات بحبرٍ أحمر، وترفع وجهها بين حين وآخر لتتأمل أبي يسقي البستان عند الغروب. أو يُنقي مساكب البقدونس والكزبرة من أعشاب ضارة. ماذا أذكر أيضاً عن مرض أمي؟ أذكر الأصوات في

الليل. يكون العالم غارقاً في الظلام وأرى نور الشموع يتلامع تحت الباب (كانت الكهرباء تنقطع كثيراً.) وأسمع بكاء. من يبكي؟ أمي أم أبي؟ لا أقدر أن أنام وهذا النور الأصفر تحت الباب!

أراد أبي أن يدفنها عند حافة المصطبة حيث مسكبة النعناع، عند البركة التي ينش الماء من حيطانها. ذهب إلى الخوري يطلب إذناً. قال له الخوري: «هذا غير ممكن، علينا أن ندفنها في المقبرة». أبي ترك الخوري وذهب إلى مخفر بيت الدين ليطلب إذناً. الدرك قالوا له: «هذا غير ممكن، يجب دفنها في المقبرة». وأبي اضطر أن يدفنها في المقبرة، وراء دير الراهبات.

أذكر المقبرة، وسوراً من الحجر البركاني الأسود مُعرقاً بلونٍ برتقالي. أذكر شجيرات صبار، وأذكر شجرة توت، وزيتونة. دفنها في ظلال شجرة جوز، كأنها شجرة الجوز عند حافة المصطبة. قال خالي روفايل، حين صار أبي يأكل برؤوس أصابعه ويقضي الليل ساهراً يدخن تبغه، قال خالي أمام خالتي إنه لم يرَ أبداً رجلاً يحزن مثل هذا الحزن. مثل النبي أيوب، قال.

ماذا أخبرك بعد؟ أريد أن أحكي لك عن العالم التحتاني فتظلّ تسألني عن أبي! أبي خنقه الربو. وأنا ـ أثناء موسم الأمطار الثالث تحت التراب ـ صرت مثل أبي، مريضاً بالربو. حين كنّا في الجبل كنتُ أسمع أبي يسعل أحياناً، لكنه لم يكن يختنق بسعاله. بعد نزولنا إلى بيروت، حيث الرطوبة عالية بسبب القرب من البحر، صار الربو يوقظ أبي من النوم. استحكم عليه فذهب إلى الطبيب. وهذا أعطاه أدوية وبخّاخاً يرشه في فمه، مثل هذا الرشاش، فانتولين. أنا أستخدم هذا، كما أستخدم بخّاخاً آخر، كلينيل ـ فورت. لكن أبي مات قبل أن يصير هذا الدواء شائعاً. أصابته نزلة رئوية ثم تفاقم الالتهاب. بقي ينام في الطابق التاسع ثلاثة أيام وأنا

أنام عنده. ثم تحسن وقال الطبيب أننا نستطيع الآن أن نأخذه إلى البيت. في تلك الفترة أخبرني نزار عن «مذبحة الخندق». كان يشرب كل ليلة، يشرب ويسكي رخيصاً، ويشرب «عرق غنطوس وأبو رعد». وذات ليلة حكى لي. أذكر المطر الأصفر ينهمر غزيراً، والبرق على زجاج باب المطبخ، وأنا أُعد كيسي لأذهب وأنام عند أبي في المستشفى، ونزار يحكي ولا يسكت.

تريد أن أخبرك عن ساعة أبي الأخيرة؟ كان يوم أربعاء. ذهبت لأجلبه إلى البيت فصعدت إلى الطابق التاسع، إلى غرفته، فلم أجده. كان الفراش خالياً. الرجل على الفراش الآخر أخبرني أنهم نقلوه إلى العناية الفائقة. خرجت أركض في متاهة الممرات البيضاء، أبحث عن غرفة العناية الفائقة. كان المكان مملوءاً بالوجوه الغامضة. والأثواب القطن البيضاء. دلّوني إلى المكان. حين وصلت أخبروني أنه خرج من العناية الفائقة وأنه الآن على الطابق الثالث في الغرفة 14. لا أريد أن أضجرك بالتفاصيل. أذكر الأدراج الطويلة (لأن المصعد لا يصل أبداً) وأذكر دقات قلبي على الأدراجِ في الدهاليز. كنت متأكداً أنني بلغت الطابق الثالث، ومع هذا لم أجد الغرفة 14. إحدى الممرضات دلّتني أخيراً إلى الغرفة 314 (أكثر من مرة عبرت أمام ذلك الباب وقرأت ذلك الرقم، لكنهم فوق قالوا لي 14، لم يقولوا 314)! وجدت أبي، على وجهه قناع الأوكسجين، وجنب سريره طبيب. حين دخلت فتح عينيه ونظر إليّ، أبي.

الطبيب شرح لي أنه تعرّض لنوبة أخرى، وأن رئته اليمنى انطبقت، وكذلك اليسرى. الطبيب يحكي وأنا أنظر إلى رقبة أبي. قال الطبيب إنهم فتحوا الرقبة وأدخلوا أنبوباً في القصبة الهوائية، لأن الأنبوب الذي أدخلوه عبر الفم ثم الزلعوم لم يكفِ لوصول

الهواء. قال إنهم استخدموا منفاخاً، ونفخوا بالهواء رئة أبي التي انطبقت. ظلّ يحكي وأصابع أبي تتحرك على الشرشف؛ لا أنسى حركة أصابعه. اليد اليمنى. بدت هذه اليد كأنها تخبرني شيئاً. اليد الأخرى كانت تحت الغطاء.

قال الطبيب أنه عَبَر مرحلة الخطر. وفي تلك اللحظة ـ بينما أُوشك على التنهد ـ بدأت نوبة أخرى. تحرك أبي حركة مفاجئة ونزع القناع عن وجهه. أذكر الطبيب يكبس زراً في الحائط، وأذكر أبي يشهق، يحاول أن يتنفس، ويقول أن في زلعومه حجارة. يقول إن الوحل يسدّ زلعومه، يقول إن الوحل في صدره.

ـ زلعومي وحل!

هذه كانت عبارته الأخيرة. استمرت النوبة ساعة.

❋

الرطوبة تحت الأرض فظيعة. كنتُ مرة آكل كسرة خبز قبل النوم. اعتدت على هذا العشاء: أكسر خبزاً ـ هذا الخبز الذي يعملونه من سمك مجفف ومطحون ـ وآكله مع شربة ماء. تلك الليلة ـ كنت انتقلت إلى غرفة تتبع «مركز الصيادين» ـ وقعت مني كسرة خبز تحت السرير. تركتها ونمت. حين استيقظت تذكرتها فبحثت عنها. وجدتها قد تغطّت بالوبر. غطّاها العفن الأخضر وغلفها كلها في ليلة واحدة!

❋

هل أخبرك عن رحلاتي مع المؤرخ مسعود إلى «حي السُمر» ثم إلى «حي العميان»؟ إذا أخبرتك القصص التي سمعتها تحت، هل تكتبها كلّها؟ لكن لماذا تكتبها؟ حرام أن تكتبها. هناك أشياء تحدث في هذه الحياة الأفضل ألا نتكلم عنها. الأفضل أن ننسى أنها

حدثت، أنها موجودة، هنا، أو تحتنا، في الأعماق. لا أريد أن أحكي عن الناس الذين رأيتهم في «حيّ العميان». كنت أريد أن أحكي عن إبراهيم ابن خالتي. الآن ما عدت أريد. قلبي يوجعني حين أتذكر وجهه الذي تغيّر. ليتني لم أرَه أبداً. كنت أذكره ضاحكاً مملوءاً بالحياة. ليتني لم أنزل أبداً إلى تحت. قلت لك إنها كانت أسوأ لحظة في حياتي، تلك اللحظة حين نزلت وراء الشبح إلى الحفرة الغامضة؟ ألم أقل لك؟ بلى، قلت.

حين رأيت إبراهيم كنت وحدي. لم يكن المؤرخ معي. ذهبت إلى حي العميان لأجلب ماء من السبيل. عباس هو أيضاً أصابه الإسهال. قبل أن يصيبه الإسهال ذهب معي لنزور الفلكي. ظلّ يماطل ويؤجل زيارتي إلى «حيّ المعامل» حتى قلت له إنني سأذهب وحدي إذا كان لا يريد الذهاب. قال إنه يريد، ولكن المشكلة أن الطريق لن تكون سهلة.

لم يكن يكذب. كانت الطريق قد تبدلت. المرض بدّلها. الإسهال تحول إلى وباء. وفكّرت، وأنا أعبر بين الأجسام الملقية عند العتبات، أن المدينة كلّها تحتضر.

وهذا صحيح يا ربيع. إنهم يموتون. كلّهم.

*

هذا هو السبب الذي جعلني أحكي لك.

صديقي سلمان، الفلكي، الرجل الذي ساعدني في الخروج، طلب مني شيئاً واحداً فقط: ألا أحكي عن بيروت. قال لا تخبر أحداً. هذه كانت وصيته لي. وأنا وعدته. قلت لن أخبر أحداً. السرّ في قلبي، في بئرٍ عميق، لن أتكلم.

سهل أن تعد الوعود. ليس سهلاً، لا، ليس سهلاً. كان الأمر

صعباً، ولكنني وعدته. حين وعدته أقسمت أمام نفسي أنني لن أتكلم عن العالم التحتاني.

فلماذا أتكلم الآن؟ لماذا أخبرك القصة كلّها؟

سأقول لك لماذا: لأنني لا أستطيع أن أحمل وحدي كل هذا الثقل، كل هذه المسؤولية، كل هذه المعرفة: المدينة تحت تموت. إنهم يموتون. كلّهم.

*

قبل أن يطلب مني عباس الذهاب إلى سبيل العميان ـ قبل أن يدخل الوباء مركز الصيادين ـ تحامل الفلكي سلمان على مرضه وعبر البلد من شمالها إلى جنوبها وجاء إليّ. جاء سرّاً، والتقينا، ودلّني على «بيت الخُضَر»، حيث بدأت هذه القصة. دخلنا فوجدنا كبير العشابين يوسف يسقي الشتلات. بعضها أخضر فوّاح الرائحة طيب العطر، وبعضها نال منه الأصفرار فتغيّرت رائحته. قال لنا:

ـ المياه تقتلها. لا أعرف ماذا حصل لهذا الماء!

*

أدركت بعد تلك الرحلة أنهم سدّوا مخرج سيتي بالاس. سدّوه لئلا يقع فيه أحد الأولاد، هكذا قال العشّاب (تذكرت بئراً ناشفة وراء بيت خالي في مونو كان يسدّها بلوح خشب، وفوق اللوح صخرة. نزار اعتاد أن يزيح الصخرة والغطاء ويصرخ في البئر. أبي كان يخاف علينا دائماً من الوقوع فيها.)

*

قبل أن ندخل «بيت الخُضر» ربطنا قماشاً على عيوننا. لأن نور النيون كان باهراً.

حين خرجنا أبعدنا القماش. نظرت إلى القماشة وتخيلت أن الأوراق الخضراء التي رأيتها للتو انطبعت لا بدَّ على القماشة أيضاً. لكن القماش قماش. أنت تعلم. لم يبقَ على القماشة أثر. الأثر بقي في رأسي. منذ متى لم أرَ نباتاً أخضر طيب الرائحة؟ منذ متى لم أرَ نوراً يغمر أوراق النبات؟ هذه الرؤية منحتني القوة. لم أيأس لأنهم أقفلوا هذا المخرج. وكلامي مع الفلكي ـ بعد ذلك ـ زادني عزماً وأملاً.

*

ـ أصلاً هذا المخرج لن يفيدك. ما يقوله يوسف صحيح. الخروج من هنا صعب إذا كان الواحد طويلاً مثلك. حتى لو كانت ساقك سليمة تماماً. أنا أعرف خدعتك.

ـ أنا تعلمتها منك.

ـ أعرف، أعرف. من يحمل العصا يعرف. لا تيأس. هناك مخارج. هناك مخارج دائماً. المهم أن نجدها.

ـ «الهوّة» عند باب البحر! ماذا لو قفزت فيها؟ ألا أخرج إلى البحر؟

ـ بلى، تخرج. لكن بلا روحك. عظامك تتكسر!

ـ إذاً عليّ أن أفتح هذا المخرج الذي سدّوه وأحاول. إذا كانت ياسمينة خرجت منه في تلك المرة الأولى، وإذا كان إيليا خرج منه، فعندي أمل.

ـ لا يا بطرس. أملُك هو باب البحر. لا تصدق أنك ـ مع هذه القامة ـ تستطيع أن تزحف طلوعاً في كل تلك الأنفاق. ستعلق كالفأر فيها ولن تتمكن من العودة. تعلق وتختنق بالوحل. لن تقدر. البحر، باب البحر هو المخرج.

ـ تلك الطريق التي أخبرتني عنها أول مرة التقينا، أليس كذلك؟ إنها مخيفة! أنت قلت إنها متاهة كاملة، ثم أنتهي في كهوف الوطاويط! ماذا لو ضعت؟

ـ ألست ضائعاً الآن؟

*

وضعنا خطتنا في «موسم الأمطار». وكان عليّ الانتظار حتى ينتهي. لماذا؟ لأن البحر يكون عالياً في «موسم الأمطار»، ومرات يملأ الكهوف. قال الفلكي باسماً:

ـ لا نريدك أن تطلع من تحت التراب لتجد نفسك تحت البحر! من يعرف ماذا يوجد هناك؟

بينما أنتظر هبوط منسوب البحر دخل وباء الإسهال مركز الصيادين، وطلب مني عباس أن أذهب لأجلب بعض الماء غير الملوث من «سبيل العميان».

*

كنتُ ذهبت إلى الحيّ قبل ذلك مع المؤرخ مسعود. كما ذهبت إليه مع الصيادين. لكن هذه المرة كنت أذهب إليه وحدي. فانظرْ التدابير! دخلت الساحة والشمعدان ينير دربي، فرأيت العميان ممدودين على الأرض، حول سبيل الماء، جنبهم عكازات، ينظرون إلى حيث لا أعلم بعيون واسعة، أو ضيقة، وكلّها بيضاء كالحليب.

ما زلت أراهم في الكوابيس حتى الآن. كان نبات كثيف ينبت حول البركة. يشبه النعناع البرّي قليلاً، ليس النعناع الجوّي، لكن ورقته سوداء، ليست خضراء، وعليها وبر خشن، شديد الخشونة، مثل الشوك.

كنت سمعت بعض هؤلاء العميان، وأنا مع المؤرخ، يتكلم

عن العالم البرّاني. بعض هؤلاء خرج فأعمته الشمس فعاد. وبعضهم وُلد كفيفاً، هنا، تحت الأرض. لكن بينهم أيضاً من نزح إلى هذا الحي من «حيّ السمر». هذه الفئة الأخيرة من العميان ليست من هنا أصلاً. ولكل واحد قصته التي أنزلته من عالمنا إلى تحت الأرض. لا أريد أن أخبرك كل القصص التي سمعتها، لأنني أريد أن أنساها. أفضل أحياناً أن ننسى بعض الأشياء. وأن نفكّر أنها غير موجودة أبداً.

سأخبرك قصة واحدة من تلك القصص، قصة واحدة فقط، تكفي. سأخبرك القصة، وعندي سببي: أقول في نفسي أحياناً أنني إذا أخبرتك القصة وكتبتها أنت في رواية صارت تبدو لي خيالية، غير حقيقية، ولم تعد تُفسد عليّ نومي. لا تزعل مني. أنا لا أسخر من رواياتك. أنا أقول فقط أن ما يُكتب يصير يُسبب ألماً أقل. على الأقل، هذا ما فكّرت فيه أنا حين قررت أن أخبرك عن ابن خالتي، عن إبراهيم.

وضعت الشمعدان على حافة السبيل، وانحنيت على الحوض لأملأ إبريق الماء. فطلب مني أحد العميان أن أسقيه. سقيته فطلب مني آخر أن أسقيه هو أيضاً. سقيته فسمعت الكل يطلبون مني الماء. لماذا يطلبون أن أسقيهم والماء جنب رؤوسهم؟ ليسوا مفلوجين! يستطيعون القيام! ومع ذلك سقيتهم واحداً واحداً. كانوا كباراً في السن. وبدوا لطفاء. ثم قال أحدهم:

ـ أنت المؤرخ الصغير، ابن مسعود، أليس كذلك؟

وأنا قلت إن هذا صحيح (اعتاد المؤرخ أن يقول إنني ابنه.)

فقال أعمى آخر:

ـ هذه كانت حارة النبلاء قبل زمن بعيد. تعرف هذا، صحيح؟

فقلتُ أعرف.

ـ وتعرف ما يقولونه عن ناس الوحل؟

قلتُ أعرف.

ـ وتعرف أنهم الآن ينشفون بهذا الإسهال، يزول الماء من أبدانهم فيتكسرون ويقعون على الأرض، والواحد منهم يصير تراباً وكمشة من الغبار.

قلت إنني الآن صرت أعرف.

عندئذٍ سمعت صوتاً من الجهة الأخرى، على مسافة من دغل النبات الأسود الذي يشبه النعناع والعليق معاً، سمعته يقول:

ـ فوق عندنا أدوية لهذه الأمراض.

فاجأني الصوت. بدا أليفاً. ليس أليفاً كما تبدو لي بعض الأصوات هنا أليفة (كصوت راحيل مثلاً الذي اعتدته، أو صوت ياسمينة، أو صوت الفلكي). بدا أليفاً منذ أزمنة سحيقة. من قبل أن أنزل إلى تحت الأرض. قال:

ـ كانت أمي تعطيني دواء إذا أصابني إسهال فأرجع كما كنت. ما زلت أذكر علبة الدواء. لونها أحمر مثل الدم.

أحد العجائز جنبي شدّني من كميّ يطلب أن أسقيه. أزحته من طريقي ومشيت حاملاً الشمعدان إلى حيث الصوت الأليف. عرفت الصوت القديم ولم أُصدق أذني. انخفض، بلى، لم يعد قوياً، لكنه أيضاً لم يتحول تماماً إلى الصوت الهامس الذي يُسمع دائماً تحت التراب. اقتربت والنور يرتجف على الأرض. فرأيت وجهاً لا أنساه ما حييت: كان الجبين قد ظهرت فيه الخطوط، وكان النور قد انطفأ في العينين، وكانت البشرة قد خسرت سمرتها اللامعة أثناء سنوات الإقامة في قلب الظلام. ومع ذلك عرفتُ الوجه الحبيب: كان

إبراهيم ينظر إليّ، ولا يراني! خفتُ أن أتكلم حين كلّمني. خفت إذا سمع صوتي من هذه المسافة القريبة أن يعرف من أكون. خفتُ أن يعرفني. خفتُ أن يتذكرني!

طلب ماء فسقيته.

قال «شكراً»، فلم أرد.

حين خرجت من حيّ العميان عرفت أنني لن أنتظر انتهاء «موسم الأمطار»: عليّ الآن أن أفرّ! إذا بقيت، أعرف ماذا سيحدث! إذا بقيت أكثر لن أطلع من هنا: سأبقى هنا مثلما بقي الجميع!

*

تلك الليلة ألقيت نظرة أخيرة على وجوه الصيادين ـ وهم يشخرون في نومهم المضطرب ـ ثم خرجت. كانت السكينة كاملة، والظلام أقسى من الحيطان. خُيِّل إليّ أنني أسمع نشيجاً يتكرر عبر الدهاليز. مع ذلك لم أشعر بالخوف، ولا بالبؤس. كنتُ أتذكر اللون الأخضر للشتلات التي رأيتها ـ معصوب العينين بقماشة رقيقة ـ في غرفة النيون. أتذكر اللون الأخضر، وأتخيل السماء الزرقاء، وغيوماً بيضاء كاللبن تسبح في الأعالي، فوق البيوت. لم أكن خائفاً. ورؤية إبراهيم لم تقتلني. أستحي أن أقول هذا الآن. لكنها الحقيقة. رأيته فلم أفكّر فيه. رأيته ففكّرت في نفسي: عليّ أن أنجو، أريد أن أعيش. لا أريد أن أموت. لا أريد أن أبقى تحت التراب.

*

المؤرخ مسعود أخبرني مرة ونحن نتصيد حنكليساً أعمى في إحدى الآبار وراء «وادي جهنم» (كان عباس الصياد معنا، وأحد

رفاقه أيضاً) أخبرني عن المرض الذي أودى بأخيه. قال إنه فجأة كفّ عن الأكل. كان يحبّ الأكل. ولا يكتفي بالسمك الأعمى المسلوق ـ وخبز السمك الأسود، وحساء السمك الحارق ـ مثل الجميع. لا، كان يتفنن في الطعام. يبحث عن الفطر الأبيض في المغاور، ويبحث عن جذورٍ معيّنة فيجففها ويطحنها ويصنع منها بهارات وفلفلاً حاراً ومطيبات. عثر على جذرٍ مثلاً يجعل كل الطعام أقوى مذاقاً، ليس حاراً فقط، ولكن أطيب بدرجات! كان يصيد طيوراً لا تُرى إلاّ في أماكن قليلة ويشويها أو يطبخها بطرق خاصة. تأكل من أطباقه مرة فتشكر ربّك لأنك على قيد الحياة. ثم فجأة أصابه المرض: لم يعد يطبخ ولم يعد يأكل. كان قبل ذلك يصاحب الصيادين ليشتري منهم ما يجلبونه في غزواتهم. في تلك الفترة اعتاد الصيادون على الخروج إلى البحر، أو إلى مخازن المتاجر الكبرى «برّا». كانوا يطلعون إلى برادات أمباسي وأبيلا والتعاونيات الاستهلاكية والمونوبري وغوديز وعون، يطلعون في الليل عبر الأنفاق ويسطون على لحوم وأجبان ومعلبات وأكياس معكرونة وغرائب ثم ينزلون ويبيعونها لمن يشتري، أو يوزعونها هدايا، أو يأكلونها في ولائم خرافية تستمر ليالي وأياماً. المؤرخ مسعود قال إنهم كانوا يقصدون أخاه ليطبخ لهم ويُعلمهم كيف يعملون الأطايب. ثم أصابه المرض. لم نعرف ماذا أصابه، قال المؤرخ، لعله وباء نفساني!

ـ هناك سوسة مثل سوسة الخشب تدخل في اللحم أحياناً وأنت نائم، أو وأنت مستيقظ. لا تنتبه لها، مرّات تنتبه، ومرّات لا تنتبه. أحياناً تعرف السبب، وأحياناً لا تعرف، سوسة لعينة (أصغر من البعوضة) منقوش في كهوف «حي زوفا» أنها كانت تُسمى «منخوليا». الآن لا أحد يلفظ اسمها. هذه من العلوم البائدة

القديمة. لكن السوسة نفسها لا تموت. تدخل في اللحم وتسكن في الإنسان. إذا سكنت فيه زالت رغبته في الحياة. كفّ عن الأكل. كفّ عن الكلام. كفّ عن الخروج من بيته. كفّ عن استقبال الأصحاب. كفّ عن الضحك. لا يعود يطلب شيئاً. لا يطلب حتى خروج السوسة اللعينة من جسمه! هذا ما حدث لأخي.

يقول المؤرخ إن هذا دام زمناً.

ـ ثم بدأ النور يترك عينيه. ذهبت اللمعة. تبدّدت. وصار يبقى في لباس النوم. لا ينتعل شيئاً في قدميه إذا خرج من الباب. وحين يخرج يرجع من عند العتبة. كأنه يعرف كل الأشياء وراء الباب، كل المتاهة التي لا يعرف تفاصيلها أحد! لم يعدْ حتى يشرب ماء! أخي!

أخبرني المؤرخ أن تلك السوسة إذا دخلت إنساناً سكنت قلبه ثم ضخّها القلب مع الدم عبر الشرايين إلى الدماغ. فإذا بلغت المخّ، صارت تأكل المادة الرمادية، وتقضم التلافيف الطرية التي تشبه الدهاليز، وتتغذى على الذكريات والأحلام والخيبات، وتنمو كالدودة ويكبر حجمها إلى أن يصير لون العينين أبيض كالحليب، ولا يعود الآدمي قادراً على تحريك أطرافه.

ترقد عندئذٍ على ظهرك، مثل العميان في «حيّ العميان»، وتموت.

*

أذكر جسمي يركض إلى «حيّ المعامل». أذكر يدي تهزّ الفلكي من نومه. أذكره يذهب معي، وابنه يحمل الشموع، إلى «باب البحر». أذكر وجهه وهو يوصيني أن أحفظ السرّ. أذكر دموعاً تترقرق في عينيه. أذكر أصابعه النحيلة على كتف ابنه. أذكر ابنه

مفتوح الفم، يبدو مذهولاً وأنا أنحني لأخرج من الباب الصغير. أخرج من الباب الأسود الصغير أم أدخل منه؟ كنتُ أخرج، أخرج، أخرج!

لا أذكر أن الفلكي استخدم مفتاحاً لفتح الباب. لا أدري كيف فتحه. لكنني أذكر تلك اللحظة الأخيرة داخل الأسوار: التفت فرأيت الظلمات اللانهائية، ونور الشمعة يرتجف في تيار الهواء الطازج الشهي. كان ذلك آخر ما رأيته قبل أن ينغلق الباب الصغير الذي يشبه كوة في «باب البحر»: بصيص النور الذي يرتجف في الظلام اللانهائي.

*

أنت تعلم ما حدث لي بعد ذلك. لست ولداً كي أكرر أمامك كل ما قاله لي الفلكي في ذلك اللقاء الأول. عبرت دهاليز لا تنتهي، حاملاً شمعة واحدة مشتعلة، والأخرى مطفأة ومخفية في ثيابي. وكنت كلما تشعبت الدرب أمامي سلكت الطريق إلى اليسار. يدي اليسرى تتلمس الحائط كل الوقت، والعرق ـ مع أنه زمن البرد والصقيع والأمطار ـ يجري تحت إبطي ويجري على ظهري. لم أعرق في حياتي كلّها مثلما عرقت في تلك الليلة وأنا أركض نحو البحر الخفيّ، والعصا مرمية وراء ظهري. (طالما تخيلت قبل تلك الساعة نفسي مُطارَداً وأنا أعرج وأضرب العصا على الأرض، ثم حين تقترب خطوات المطاردين مني ـ من هم؟ العشاب يوسف أم عباس الصياد أم زكريا الجغرافي أم الشيخ إسحاق أم ابنتة راحيل أم العميان أم أهل المدينة كلّهم؟ ـ وحين يوشكون على القبض عليّ، أرمي العصا أرضاً ومثل الأرنب أختفي فاراً عن أنظارهم! لكن أحداً لم يطاردني. مع أنني بقيت خائفاً كل الوقت. بلى، أصابني

الخوف وأنا أودع الفلكي وابنه. ومنذ تلك اللحظة ظلّ الخوف في عظامي. وكنتُ أسمع خطواتي وأنا أسرع عبر الدهاليز، والهواء البارد الطازج يلاعب شعلة شمعتي، فأحسب أنهم عرفوا بخروجي. صدى خطواتي يتكرر، وأنا أظن أنهم يطاردونني. وصرت أركض.)

لا أريد أن أضجرك بالتفاصيل. كما قال الفلكي فعلت. بقيت أسلك الدروب إلى يساري. متاهة ممرات يضيع فيها الإنسان، لكن إذا بقيت تأخذ الطريق إلى يسارك، ثم الطريق إلى يسارك، تصل. حين أوشكت الشمعة على الانطفاء أشعلت منها الأخرى الجديدة. قبل انتهاء هذه الشمعة الثانية بلغت ممراً ضيقاً شديد الانحدار: كانت الأرض رطبة هنا، كأنها تذوب تحت جزمتي (هذه الجزمة التي سقطتُ بها. ما زال نعلها قاسياً. لم يرقّ بعد. خلال إقامتي «تحت» أعطوني نعلاً من جلد السمك، خفيفاً في القدم، اعتدت أن أنتعله. لكنني في خروجي انتعلت جزمتي. وما زلت أحفظ هذه الجزمة في خزانتي. الآن لا ألبسها. أجدها واسعة قليلاً. إلى هذا الحد فقدت وزناً!). جلست على الأرض ثم اندفعت منزلقاً في الدهليز. كنتُ متعباً، والأنفاس تلهث في صدري بعد الطريق الطويلة الصاعدة. والآن، بينما أنزلق منبطحاً على ظهري، أخذت أمسح الدم عن رأسي، ولهاثي يزداد قوة. الدم؟ صحيح. مع أن الفلكي حذرني ألف مرة من المسلات في السقف، وقال لي منبّهاً إن عليّ النوم على ظهري قبل الإنزلاق في ذلك الدهليز، فإنني لم أنم ـ لم أنبطح ـ في الوقت المناسب. تأخرت جزءاً من الثانية، وفي ذلك الجزء طرق السقف جبيني. انظرْ! هذه العلامة! هل تراها؟ هذه من «تحت». كنت خائفاً من الانبطاح على ظهري لأنني طوال الوقت أردت أن أرى إلى أين أهبط. هذا هو السبب: خوفي!

فطرقني السقف فوق عيني. الآن أفكّر أنني كنت محظوظاً. كان يمكن أن تقتلع المسلة الحجر عيني. كنتُ صرت أعمى أو أعور. مثل أوديب. أو مثل ذلك العجوز الذي كان يدلّه. لكنني نجوت. وها أنت تراني وتسمعني. نجوت.

ماذا أخبرك بعد؟ بقيت أسقط وأسقط وأسقط. كما بدأت رحلتي بالسقوط انتهت بالسقوط. في البداية انزلقت في الحفرة الغامضة من أسفل سيتي بالاس إلى جوف الأرض. وفي النهاية انزلقت من جوف الأرض ـ مع شمعة بدلاً من المصباح الكهربائي الـ SAMSUNG ـ إلى المغاور البحرية تحت كورنيش الروشة. في انزلاقي سقطت الشمعة مني كما سقط المصباح وكما سقط الجهاز اللاسلكي. لكن قبل أن يشلّ الخوف جسمي بسبب فقداني النور، أبصرت نوراً.

انظرْ الحظ: كنتُ خائفاً أن تدل الشمعة الوطاويط إليَّ. وكنتُ خائفاً أن أبقى بلا شمعة وأضيع في الظلام! فإذا بي أرى نوراً، وأرى أنني بين صخور عند باب كهف، والبحر يهدر بموجه على بعد خطوات.

لم أصدق أذنيّ! لم أصدق عينيّ! كان الوقت ليلاً. وكان الوقت شتاء. ومع ذلك لم تكن المغاور تحت الكورنيش مظلمة، لا ولا كان البحر صاخباً مجنوناً عالي الموج. (كانت نهايات الشتاء، فأنا خرجت من تحت الأرض يوم 24 شباط/ فبراير كما سأكتشف لاحقاً).

مثلما أخبرني الفلكي صديقي حدث. انتبهت أن الريح تنفخ ثيابي وشعري، ولم أعد مبالياً بالدم القليل على وجهي. كانت الريح رائعة، ورائحة الملح أيضاً، رائحة البحر التي طالما اشتقت إليها وأنا في بطن الأرض!

كل ما قاله الفلكي حدث إلاّ الوطاويط، وإلاّ الحاجة إلى هدير البحر. كان قال لي إنني سأجد نفسي في الظلام وأن هدير البحر والأمواج سوف يدلني إلى المخرج، وإلى نور السماء التي لا تُظلم تماماً حتى في الليل. أتذكر؟ هل تتذكر كلامه عن النور الذي يبقى في السماء حتى ليلاً؟ وكلامه عن الوطاويط، تذكره؟ أنا تذكرته بينما أهبط في الدهليز مندفعاً.

لم أنسَ كلمة واحدة. لكنني سقطت ليس في أعماق المغاور بل عند فوهتها، تماماً على الشط. حتى ان المياه بلّلتني. غسلت الدم عن وجهي، ثم قمت واقفاً وأنا أخاف أن تهاجمني الوطاويط. لكنني حين نظرت إلى سقف الكهف لم أرَ إلاّ الصخر الأسود. لم أرَ وطواطاً واحداً. كنت في الكوابيس أتخيلها تتدلى كالعناقيد من سقف الكهف، هذه الفئران الطائرة، ثم أتخيلها تتحرك ـ ما إن تشعر بوجودي ـ تتحرك كأن موجة أعترت أجسامها، ثم تسقط من السقف وتطير صوبي وأسنانها تقضم الهواء، بيضاء حادة. لكني لم أرَ وطواطاً واحداً.

كنت عند حافة البحر. ورأيت نور السماء. كان الوقت ليلاً. والسماء تتباعد فيها غيوم قليلة. لكن النور كان قوياً في الأعلى بسبب صف المطاعم والمقاهي على حافة الكورنيش العالي. أنت تعرف منطقة الروشة وكتبت عنها في رواياتك. هناك، حيث الكورنيش البحري أعلى من سطح الماء بخمسين متراً. أنا كنت تحت، أسفل جدار الصخور، أنظر إلى صخرة الروشة العملاقة، وإلى الصخرة الأخرى المجاورة، وأنظر إلى أنوار النيون تشعشع إلى اليمين، عالياً فوق «مطعم دبيبو». هذا أول ما رأيته عند خروجي من تحت الأرض: شرفة دبيبو المعلقة على حافة البحر، مزدحمة بناس يشربون العرق والبيرة ويأكلون شواء ويتكلمون. هذه

المرة أحببت أصواتهم. أحببت ضحكاتهم المفرقعة العالية. لم يُزعجني أنهم يسكرون في آخر الليل ويُزعجون النائمين. لم أكره ضجتهم. لا. هذه المرة أردت أن أطلع وأقعد معهم وأشرب عرقاً وآكل حمصاً بطحينة وفتوشاً وخبزاً وبطاطا مقلية ولبنة وجبنة وبندورة. كنتُ أنظر إلى الناس فوق، على الشرفة البيضاء، أنظر إلى سماء الليل بغيومها المتباعدة، وأنظر إلى الصخرة العملاقة صامتةً فوق الأمواج، ولا أُصدق أنني على وجه الأرض. نظرتُ إلى هذا العالم بعينين مدهوشتين ولم أُصدق!

وما زلتُ حتى اللحظة لا أصدق.

روايات للمؤلف:

1 ـ **سيد العتمة**، دار رياض الريس، جائزة الناقد للرواية، 1992.

2 ـ **شاي أسود**، دار الآداب، 1995.

3 ـ **البيت الأخير**، دار الآداب، 1996.

4 ـ **الفراشة الزرقاء** (نور خاطر)، المركز الثقافي العربي، 1996، طبعة ثانية عن الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة)، 2001.

5 ـ **رالف رزق الله في المرآة**، دار الآداب، 1997.

6 ـ **كنتُ أميراً**، المركز الثقافي العربي، 1997.

7 ـ **نظرة أخيرة على كين ساي**، المركز الثقافي العربي، 1998.

8 ـ **يوسف الإنجليزي**، المركز الثقافي العربي، 1999.

9 ـ **رحلة الغرناطي**، المركز الثقافي العربي، 2002.

10 ـ **بيروت مدينة العالم** (الجزء الأول)، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2003.

ربيع جابر

بيريتوس: مدينة تحت الأرض

حارس سينما سيتي بالاس المهجورة ينزل ذات ليلة ماطرة إلى مدينة تحت بيروت تُسمى بيروت أيضاً. ماذا يجد بطرس «تحت»؟ نساء فاتنات الجمال وعائلات كاملة تحيا في نور الشموع طعامها السمك الأعمى وخبز السمك والجذور البرية... من أين أتى هؤلاء؟ ومن هم العميان في «حي العميان»؟ هل نزلوا من «فوق» أيام الحرب اللبنانية (1975 ـ 1990) التي قتلت أكثر من مئة ألف إنسان، وأخفت في الظلمات 17 ألف مخطوف؟ أم أنهم وُلدوا تحت؟

رواية عن عالمين، عن التهجير والقتل والبقاء على قيد الحياة... وشهادة خيالية نادرة على دمارٍ حقيقي انتهى ولم ينتهِ تماماً بعد.

المركز الثقافي العربي

دار الآداب ـ بيروت

ISBN:9953-68-033-7